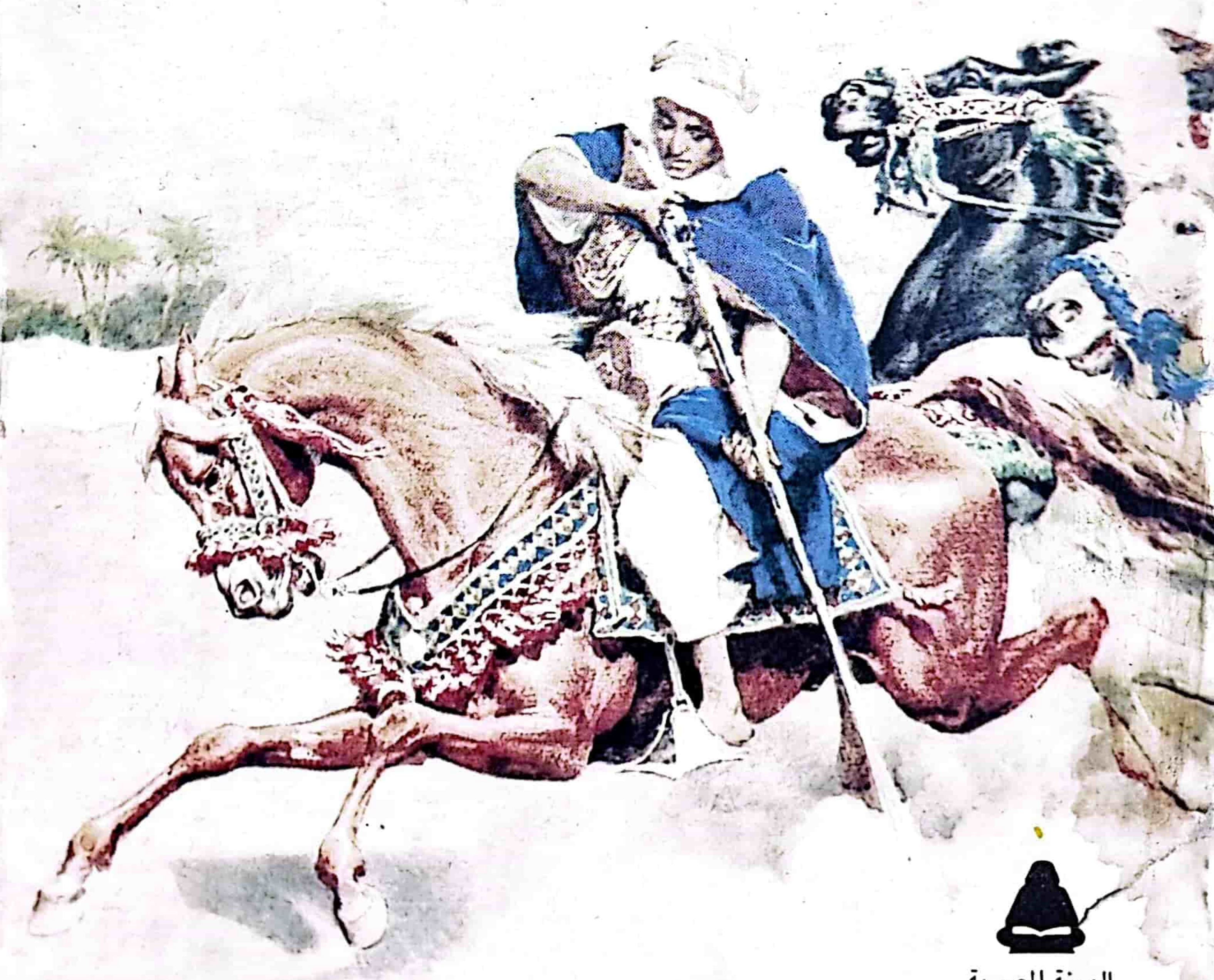
الألف كتاب
الثاني
١٧٦

رحلة بيرتون

إلى مصر والحجاز

الجزء الثاني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ترجمة وتحقيق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

رحلة بيرتون

إلى مصر والحجاز

الجزء الثاني

تأليف

رتشارد ف. بيرتون

ترجمة وتعليق

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

الفهـــــرس

مقدمة الطبعة العربية

هذا هو الجزء الثانى من رحلة بيرتون ، وقد وصف فيه المدينـة (المنورة) والحرم النبوى الشريف ، وأهل المدينة وعاداتهم وتقاليدهم وأمراضهم ... الخ بأسلوب لا يخلو من طرافة ، وسرد قصصى ـ أحيانا ـ لا يخلو من تشويق . ومن الطبيعى أن يتحرز القارىء ـ كما تحرز المترجم قبله ـ لأن رحالة أوربيا معروفا بالصراحة وذرابة اللسان يتناول بالوصف والتحليل منطقة عزيزة عليه ، لذلك فاننى أبادر بالقول انتى وثقت كل ما ذكره بيرتون على المصادر الاسلامية الأصيلة فلم أجد فيما كتبه مخالفة لقرآن أو حديث ، ولا مخالفة لما أوردته كتب السـيرة ، وفيما يلى قائمـة بالمراجع التى رجعنا اليهـا لتوثيق أقوال بيرتون :

— قارنا كل ما أورده بيرتون من آيات قرآنيـة على المصحف الشريف مسـتعينين بالمعجم المفهرس لألفـاظ القرآن الكريم لمحمد فـؤاد عبد الباقى ، فوجدناه صحيحا .

— قارنا كل ما ذكره من أحاديث الرسول على صحيحى البخارى ومسلم مستعينين بالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى اعداد المستشرقين أ. ى. ونسنك و ى.ب. منسنج ، مطبعة بريل فى ليدن ، نسخة ١٩٦٩ ، فوجدنا جانبا مما أورده صحيحا ، وجانبا آخر من الأحاديث الموضوعة ، والطريف أن بيرتون نفسه تشكك فيها .

— قارنا ما ذكره عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم بما ورد فى « السيرة النبوية » الشهيرة لابن هشام (حققها وضبطها مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، ١٩٣٦) فوجدنا ما ذكره بيرتون صحيحا أو مطابقا .

— استعنا ببعض كتب السيرة الحديثة لمقارنة أعداد المقاتلين المسلمين بأعداد المقاتلين الكفار ، فوجدنا ما ذكره بيرتون صحيحا ، وأشرنا لهذه الكتب الحديثة فى الحواشى · وقارنا التسلسل التاريخى للسيرة بما ورد فى « حياة محمد » لمحمد حسين هيكل فوجدنا اختلافا يسيرا نوهنا عنه فى الحواشى ·

— وعن آراء السلفيين (الوهابيين) استعنا بكتيب صغير عن مسائل الحج والعمرة وضعه ابن باز وهو واحد من السلفيين ·

— أما ما ذكره بيرتون عن المدينة المنورة من تاريخ ممعن فى القدم قبل الاسلام فقد قارناه بما ورد فى (الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة – الملحق الثانى) تأليف محمد بن محمود النجار وهو كتاب تراثى مهم ، والجدير بالذكر أنه منشور بمكة المكرمة (مكتبة النهضة الحديثة) فوجدنا ما كتبه بيرتون صحيحا أو على الأقل مطابقا لما فى الكتاب آنف الذكر ·

وأرهقنا بيرتون بايراد أسماء قديمة ، وحكايات توراتية ، فوجدناها جميعا (الأسماء والحكايات التوراتية) فى كتاب « تاريخ مختصر الدول » تأليف غريغوريوس الملطى المعروف بابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ) طبعة بيروت ، دار المسيرة ·

— واستعنا بأطلس تاريخ الاسلام للدكتور حسين مؤنس (نشر دار الزهراء) لتتبع الدول الاسلامية التى حكمت الحجاز ·

— وتصفحنا كتاب السمهودى الشهير « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » ·

— والذى لا شك فيه أن قيامى بترجمة « رحلات بوركهارت فى شبه الجزيرة العربية » منذ خمس سنوات مضت مع زميلى د· عبد العزيز الهلابى (نشر بيروت) قد سهل على كثيرا ترجمة بيرتون ·

— واستعنت ببعض الكتب عن المعلقات العشر للوصول للمقابل الشعرى العربى لما أورده بيرتون بالانجليزية ، وقد نجحت مرة فى العثور على المطلوب ولم أنجح مرة أخرى فى الوصول لبيتين ، فترجمت معانيهما · ومن استطاع الاستدلال على الأبيات المطلوبة من ذوى العلم والفضل شكرنا لهم ان أفادونا ·

بيرتون والتنوير :

لم يعجب بيرتون – وهذا طبيعى – كثير من الخرافات السائدة فى بلاد المسلمين لكنه لم يتناولها بتعصب ولم ينظر لها بتعال ، فابن الحضارة

الغربية عاب على قومه – قبل أن يعيب على المسلمين – أن لديهم خرافات شبيهة. لقد تعجب بيرتون من أن بعض المسلمين يروون أن احدى النخلات من النوع المعروف بالصيحانى هتفت – بينما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يمشى مع الامام على رضى الله عنه فى أحد البساتين – قائلة : « هذا محمد صلى الله علية وسلم أمير الأنبياء وهذا الامام على أمير المؤمنين وجد الأئمة الأطهار » ويعتقد بيرتون أن هذا من الخرافات ، ونحن بدورنا لا نختلف مع بيرتون فى هذا ، فالأحاديث الموضوعة (المكذوبة) كثيرة ودوافعها معروفة . وكتب الباحثون حول هذا الموضوع كثيرا . ولكن حيدة بيرتون تتجلى بعد ذلك بقوله ان لدى الأوربيين خرافات شبيهة خاصة فى المراحل التى سادها الظلام ففى سنة ١٢٧٢ زعموا أن الصليب تكلم مع القديس توما الأكوينى ولا زال البعض يردد هذا الكلام ، مع أن هذه الخرافة (الكلام لبيرتون) لم تحدد التاريخ الذى حدث فيه هذا ولا المكان (صفحة ١٠٤ من الترجمة العربية (*) ، وص ٤٠١ من النص الانجليزى) .

ولم يعجب بيرتون ما زعمه الأغوات من أن عمودا من النور يخرج من قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وقال انه لم ير ذلك ، كما رأى كثيرا من الممارسات الخاطئة وسمع كثيرا من الخرافات عند قبر حمزة رضى الله عنه ، لكنه عاد (أى بيرتون) فذكر خرافات أوربية مماثلة ، فاراد أن يذكر أوروبا بها وينور قومه فعاب عليهم زعمهم بأن العذراء مريم تظهر أو تتجلى للأطفال فى جبال الألب وفى فرنسا . الكلام لبيرتون . ويقول انه كان يريد أن ينصح المسلمين بترك هذه الخرافات ، لكنه وجد خرافاتهم أكثر معقولية من خرافات ظهور العذراء وغيرها مما يشيع فى أوروبا ، بل وحتى الأمريكيون ذوو الرءوس اليابسة (التشبيه لبيرتون) يعتقدون فى (الوسيط) و (خفقات الروح)... الخ (ص ١٣٠ من الترجمة العربية (**) وص ٤٢٨ من النص الانجليزى) . منتهى الموضوعية والحيدة ! أين هذا من رحالة أوربى آخر هو فارتيما الذى تسمى بالحاج يونس المصرى وزار الديار المقدسة فى مطلع القرن السادس عشر ولم تعجبه حكاية النور الصاعد من قبر الرسول صلى الله عليه وسلم فأمعن فى السخرية على أساس أن هذا من الأمور غير المعقولة ، ثم يعود بعد صفحات ليحدثنا عن « التجلى » أو « الظهور » الذى رآه فى الهند (طبعت الهيئة العامة للكتاب رحلة فارتيما ضمن سلسلة الألف كتاب الثانى) . والطريف أن بيرتون يذكر فى موضع آخر من رحلته أن رؤية بعض الناس لنور منبعث من قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ربما كان لفرط الحب والتعلق أى أنه ظاهرة

(*) الفصل ١٩ – حاشية ١١ .

(**) الفصل ٢٠ .

نفسية ! ما أروع هذا ! منتهى الموضوعية خاصة وأن أحدا من المسلمين لم يدع أن الرسول قد تجلى أو أنه رآه رأى العين (الا مناما) ٠

وهكذا يمضى بيرتون بحيدته هذه ولسان حاله يقول ان الجميع فى حاجة الى التنوير ٠ فهو يشجب التعصب ٠ دعنا نسمعه وهو يقول : « عندما تطلب من أحد الشيعة أن يدعو لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فكأنك تطلب من بروتستنطى أن يدعو لبابا روما الكاثوليكى » ٠ انه تعصب ممقوت ٠

اشارات فى التاريخ السياسى :

ـ فى الجزء الأول (الرحلة الى مصر) وجد بيرتون فى المصريين حماسة للوقوف الى جانب الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا ، وفى هذا الجزء (عن المدينة المنورة) وجد بيرتون الحماسة نفسها ، بل ووجد العرب يتوقعون أن تجتاح الدولة العثمانية أوروبا واستعدوا لجمع الأسلاب الأوربية !

ـ أشار بيرتون فى سطور قلائل الى أن الحركة السلفية فى شبه الجزيرة العربية تتطلع للتحالف مع أوروبا ، للاستيلاء على الحجاز وللقضاء على البدع السائدة فيه ، ونسب ذلك لمصادر وثيقة ٠ والواقع أن عوام السلفيين الاصلاحيين أنفسهم (أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب) أو جمهورهم لا يفكرون فى شىء كهذا (التحالف مع القوى الصليبية على حد تعبير بيرتون) وانما هذا من تفكير الساسة ، ولكن التطورات التاريخية ـ على أية حال ـ أثبتت ما قاله بيرتون فقد تحالفت بريطانيا مع الشريف حسين وأيدت ما يسمى بالثورة العربية الكبرى ضد الأتراك لفترة وجيزة، ولما وضعت الحرب أوزارها تحالفت مع ممثل القوى السلفية (وكان من دهاة الساسة بلا شك) ونصرته على منافسه الشريف حسين ، فتمكن السلفيون من ضم الحجاز ٠ ان هذه الرحلات مصـــدر أصيل للبحـوث التاريخيـــة ٠

وأخيرا : فهذا هو النص الكامل للرحلة ما ظلمت منه شيئا ، زاخر بالتاريخ الاجتماعى والتفاصيل الطريفة ٠ وكثير من المعلومات الواردة به باتت معروفة مشهورة كحديثه عن تاريخ المسجد النبوى وغزوات الرسول ٠٠ الخ لم نشـأ أن نحذفها أملا فى أن يكون النص كاملا ، ولسنا نتوقع أن يكون ما كتبه بيرتون **مصدرا** للسيرة النبوية ، فالمصادر فى هـذا المجال أصيلة وكثيرة لكننا نقدم رؤية أوربية موضوعية ٠

والله من وراء القصد ٠

د٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الفصل الخامس عشر

المرور خلال ضاحية المدينة « المنورة » الى منزل حامد

منظر المدينة المنورة على البعد ـ الحرة ـ العنبرية ـ التكية حرارة التقاء الاقارب والاصدقاء ـ حى المناخة ـ وصف الشيخ حامد بعد وصوله لبيته ـ الحلاق فى الشرق ـ حديث العرب عن الحرب التركية الروسية ـ شراسة اطفال العرب ـ وصف المجلس ـ اسرة الشيخ حامد ـ عراك الكلاب ـ فارسية جميلة غير محجبة ٠

كلما تطلعنا صوب الشرق ، أطلت الشمس من أفق يحده تل منخفض تناثرت عليه شجيرات صغيرات ذوات **قنازع** (١) Stufted trees جعلها ضباب الصباح تبدو عملاقة ، أما الأرض فقد صبغت باللونين الأرجوانى والذهبى ، ويمتد أمامنا سهل رحب تحد امتداده أرض **نجد** المتموجة ٠ والى اليسار كومة صخور كالحة فظة هى جبل **احد** الشهير ، وقد استكانت عند قاعدته أجمة أشجار خضر (٢) ، وقبة بيضاء أو قبتان ٠ وعن أيامننا ، شريط عريض من ضباب اتخذ لونا أرجوانيا فاتحا اعترته زرقة ، فكأنه صبغ بصبغ زهر **الليلك** Lilac Coloured (٣) وقد تجمع فيه قطر الندى ، فغدا ضبابا كثيفا أوهن بكثافته أشعة الصباح التى راحت تجاهد لاختراقه لتنتشر على بساتين النخيل وحدائق قباء التى تشمخ على أرض زمردية خضراء وسط سهل مصفر كئيب ٠ وتقع المدينة (المنورة) على بعد ميلين

---

(١) قنازع جمع قنزعة (بضم القاف وسكون النون) وهى خصلة الشعر فى بعض البذور والثمار ٠٠ الخ معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ـ (المترجم) ٠

(٢) ذكر بيرتون فى مكان آخر من رحلته أنه عندما اقترب من جبل احد وجده أجرد تماما لا نبتة واحدة عليه ٠ وما يقوله هنا وصف للمنظر على البعد حيث تكون هذه الاجمة الخضراء بعيدة شيئا ما عن الجبل ـ (المترجم) ٠

(٣) أو ليلج ، وهى مشتقة من الفارسية بمعنى الصبغ الأزرق ، ويستخرج من هذه الزهرة عطر ٠ عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ـ (المترجم) ٠

تقريبا ، وتبدو كبيرة رحبة عند النظر اليها على البعد ، فاذا ما اقترب المرء منها وتمعن تبين له مدى الوهم الذى وقع فيه · وثمة طريق متعرج من **الحرة** The Harrah الى المدينة (المنورة) يتلوى عبر السهل ، ويفضى الى بوابة مرتفعة ذات شكل مستطيل فى السور الطينى الذى يسور الحى · انها بوابة **العنبرية** Ambari · والى اليسار منها مبنى جميل على الطراز التركى عليه قباب ومآذن · انه **التكية** Takiyah التى أقامها الراحل محمد على ، لتأوى المسافرين من الدراويش ، والى اليمين منها صف طويل من مبان منخفضات مطليات باللون الأبيض ، لها نوافذ مربعة أشكالها ، **ويعوزها** الجمال ، رغم أنها تمثل محاولة لتقليد نوافذ الثكنات المتحضرة · واذا بدأنا من ناحية اليد اليمنى ونحن جلوس على التلال ، فان المعالم الجديرة بالملاحظة فى المدينة (المنورة) هى على التوالى : الى الخارج بين النخيل الى الشمال من المدينة (المنورة) تبدو بقايا سبيل ماء ضخم وقديم ، وبين هذا السبيل والســور يقبع مبنى رائع على نسق نظام الأجنحة التركى Pavilion Style انـه قصر الحـاكم · وفى الزاوية الشمالية الغربية لسـور المدينـة (المنورة) حصن مرتفع مطلى بالطلاء الأبيض ، وقد شيد جانب منه فوق كتلة من الصخر البارز ، الا أن سوره الخارجى واستحكاماته ، **وكواته** الواسعة من الداخل والتى تميل للضيق من الخارج · كل أولئك يعطى انطباعا أنه مبنى أوربى حديث مما يتناقض تناقضـــا غريبـــا مع تاريخه الشرقى الحقيقى (٤) · وفى حى **المناخة** Al-Manakhah (ومعناها مكان اناخة الابل) – تبرز – متألقة – القباب the brad-new domes ومآذن المساجد الخمسة بين كتل المنازل الرمادية والأرض الجرداء ذوات المنظر غير المشرق · والى الخلف فى أقصى شرق المدينة (المنورة) يشاهد المرء على البعد جوهرة المدينة ودرتها ، انهـا الأبراج (المآذن أو المنارات) الأربعة المرتفعة ، ذوات البناء المكين ، والقبة

---

(٤) فى بلاد الشرق ، حيثما وجدت مدينة لها قلعة ، فقد جرت العـادة أن تكون السلطتان – (سلطة المدينة وسلطة القلعة) منقسمتين على نفسيهما · وتعد Suart فى غرب الهند مثالا معروفا على ذلك · ولابد أن أرجع القارىء الى ما كتبه بوركهارت فى كتابه p. 281, Vol. II, Travels in Arabia. وما بعدها للحصول على تفصيلات عن المنازعات بين اغا القلعة ، واغا المدينة · وقد انقضت هذه الأيام ، لكن الى حين · (موجز تعليق بيرتون) ·

والمقصود باغا القلعة واغا المدينة حاكماها · والجدير بالذكر أن الترجمة الكاملة لرحلات بوركهارت فى شبه الجزيرة العربية ، قد صدرت عام ١٩٩٢ فى السعودية ، وقام عليها الأستاذان د· عبد العزيز الهلابى و د· عبد الرحمن الشيخ – (المترجم) ·

الخضراء المتألقة التى دفن الرسول (صلى الله عليه وسلم) تحتها (٥) ٠ وقد حجبت جموع مبانى المدينة ومساكنها التى تشبه ـ يقينا ـ بقعا بيضا فوق سطح أخضر ـ نصف مجمع مقابر البقيع الذى يحظى بالتبجيل ، عن الناظر من مكانى هذا ٠

وبدءا من هذه النقطة الى ناحية الجنوب تبدأ النخيل الكثيرة الشهيرة فى التاريخ الاسلامى ، والمعروفة بنخيل المدينة (المنورة) ٠ وطليعة هذه الأرض (الجانب الأمامى منها) يلائمها تماما أن نبرزها بمثل هذه الصورة : حقول من جفاء خبث البازلت الأسود مما يعد اشارة واضحة على أصلها البركانى ، وقد تقطعت الى كتل ضخمة وجلاميد ، يمر خلالها منحدر يتلوى فى السهل ، ملائم ـ رغم انحداره ـ للابل ٠

وبعد أن استرحنا لخمس دقائق ، ركبت دابتى ثانية ، واتجهنا الهوينى الى البوابة ٠ لقد كان الطريق غاصا ـ حتى فى هذا الوقت الباكر ، بالجموع المشتاقة التى خرجت للقاء القافلة ٠ أما رفاقى فقد فضلوا أن يكونوا راجلين لسبب واضح ، وهو أن يتمكنوا من لقاء الأقارب والأصدقاء بتبادل القبلات والأحضان وبالمصافحة ٠ حقيقة ان العرب يظهرون حرارة ودفئا فى مثل هذه المناسبات أكثر مما يظهره أى شعب شرقى آخر عرفته ، فهم ذوو عواطف جياشة تفوق كثيرا عواطف الفرس ، كما أن طباعهم أكثر تعبيرا ووضوحا من طباع الهنود ٠ والشاب المحترم ، ابن مريم ـ وهو يافع اذا قورن بهرمها المؤكد ـ كان يبكى بصوت عال فرحا وسعادة ، وهو يجرى حول الجمل الذى تركبه أمه ، وكان يشب على أصابع رجليه ، بينما كانت هى تنحنى انحناءة مضاعفة فى محاولة غير مجدية لمبادلته القبلات٠وكظاهرة عامة فان نوافير العيون تفيض بالدمع عند الالتقاء بالأقرباء المقربين والأصدقاء الحميمين وزملاء الدراسة ٠ ويحيى الأصدقاء ورفاق السلاح بعضهم البعض الآخر بصرف النظر عن الرتبة أو حظهم فى الحياة ، بأحضان حميمة وباستفسارات كثيرة لا تتيح فرصة للاجابة الا قليلا ٠ والأسلوب العام للتحية هو أن يلقى الواحد منهم ذراعه على كتف الآخر ، فيقوم الآخر بلف ذراعه على وسطه ، ويضع ذقنه على عظام ترقوته اليسرى ، ثم على عظام ترقوته اليمنى ، ويتم تبديل موضعى القبلات والربت على الكتفين فى كلا الجانبين الأيمن والأيسر بسرعة ٠

---

(٥) كتب السير يوحنا منديفل Mandeville فى القرن الرابع عشر يعلم أوربا أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) مدفون فى المدينة Methone ٠ وفى القرن التاسع عشر أخبرنا محرر كتابة السيد Halliweu أن Methone هى مكة ٠ وهذا جهل غريب وقع فيه مؤلفون مشاهير فى فرنسا وانجلترا ٠

(موجز تعليق بيرتون)

وأفراد الطبقات الدنيا يحيون أفراد الطبقات الأعلى بمحاولة تقبيل أيديهم مما يدفع الأخيرين لنزع أيديهم بعيـدا ، أما المعارف أى الذين يعرفون بعضـهم البعض الآخـر معرفة سطحية فتحيتهم اشـارة حارة « poignée de mains » a Cordial ، ثم يرفـع الواحـد منهم أطراف أصابعه الى شفتيه ، ويقبلها (أى يقبل أطراف أصابعه هو) بتلذذ ظاهر ٠

وبعد مرورنا ببوابة العنبرية ، سرنا ببطء أرتالا فى طريق عريض متربة واجتزنا الحـرة Harat (حى الحـرة) وحى العنبرية ومعظم حى المناخة the Manakhah وهذا الطريق يلى فى جودته طرق القاهرة ، الا أنه أكثر اتساعا وأكثر انتظاما من تلك الطرق التى تعود عليها المسافرون فى المدن الآسيوية ٠ وقد اعترتنى الدهشة وأنا أرى على جانبى الطريق وفى مساحة صغيرة كهذه ، هذا العدد الكبير جدا من المنازل المهدمة والتى لحقها الخراب فلم تعد تصلح للسكنى ٠ ثم عبرنا جسرا مقاما على بطن سيل السيح Al-Sayh (٦) يبدو فى بعض المواضع أن عرضه يبلغ خمسا وخمسين قدما ، كما أن شاطئيه يظهران علامات مائية تؤكد المستوى المرتفع والعميق للمياه فى هذا السيل ٠ وكان الجسر الذى عبرناه من حجارة مقطعة غـير مصقولة ومقنطرا (مقوسا) قليلا ٠ والطريق هنا يمر ببر المناخة (٧) (البر هنا بمعنى سهل) ويؤدى طريق مستقيم الى الباب المصرى للمدينة (المنورة) لكننا استدرنا ناحية اليمين ، وبعد أن قطعنا ياردات قليلات وجدنا أنفسنا عند مدخل دار صديقنا حامد ٠

لقد كان الشيخ حامد قد سبقنا فى الصباح البـاكر لتجهيز مكان لضيوفه ، وليتلقى التهانى الأوليات والأحضان الحارة من أمه وابنة عمه(٨) ٠ وكان من الواضح أنه لم يكن قد أنهى هذا الواجب الباعث على السرور عندما وصلنا ، لأن ابلنا بركت ما لا يقل عن خمس دقائق أمام باب داره قبل أن يخرج الينا لتقديم التحيات الكريمة المعتـادة ٠ وقد رحت أحملق مندهشا من التغيير الذى اعترى منظره هذا الصباح ٠ فقد مرت شفرة الحلاقة على رأسه ووجهه (٩) ، أما رأسه فقد أصبحت الآن مغطاة بعمامة

---

(٦) يسمى هذا السيل (الوادى) بوادى السيح وهى تعنى الماء الجارى ٠

(٧) مكان اناخة الابل ، وهى مشتقة من مادة ناخ ـ (المترجم) ٠

(٨) والحق أن العرب ومعظم الشرقيين يستقبـلهم ذووهم بعد عودتهم من السـفر بصرخات الفرح ، وهم لا يحبون أن يشهد الغـرباء مظـاهر فرحهم بعودة القـريب الغائب ـ (بيرتون) ٠

(٩) الحلاق فى بلاد الشرق لا يكتفى بامرار المواسى (الشفرة) على المواضع التى ينبت بها الشعر ، وانما لابد أن يكشط الجبهة ، ويشذب الحواجب ، وينتف الخدود ٠ ويمر بنصل الشفرة سريعا على الأنف ويصحح خطوط الشارب العلوية والسفلية ، ويفصل بين جناحى الشارب من الوسط ، وما الى ذلك ـ (موجز تعليق بيرتون) ٠

ـن الموسلين (الموصلى) Muslin بحجم كبير ، ملفوفة حول طاقية جديدة مطرزة ، أما وجهه فبالاضافة الى أنه أصبح حليقا نظيفا ، فقد كان يزدان بشارب صغير ارتفع طرفاه كفاصلتين (شولتين ، ،) أما لحيته فكانت كلحية العنز الا أنها مسحوبة أو مدببة الطرف حتى غدت شبيهة بما يسميه النحويون علامة تعجب (!) وقد استبدل بقميصه القذر المهترىء والحبل الملفوف حول خاصرته ، جبة حمراء وردية (قرنفلية فاتحة اللون) من صوف نفيس ، فوق قفطان من قماش مزركش بالزهور ، وصدرية جميلة من قماش حريرى وقطنى من النوع الهلالى (١٠) ، وتمنطق بحزام من نسيج مربع نقشه ، له شراريب متقنة عند طرفيه ، ولفه حول وسطه عند ثلثى قامته ، وأحسن عرضه بفتح جبته ، أما سرواله الطويل فكان أيضا من القماش الهلالى وكانت أطرافه التى تصل الى كاحلى قدميه موشاة بطريقة تنم عن ذوق راق وتعطى انطباعا (أى طريقة التوشية) بأنها قراميد صغيرة متموجة ، أما قدماه اللتان كانتا حافيتين قد سفعتهما الشمس ، فقد أصبحتا نظيفتين بفعل الغسل الجيد ، وقد دسهما فى (مسد) Misd (١١) جديد (خف داخلى) وببش (خف خارجى) من جلد ذى لون ليمونى على أحدث طرز (مودات التفصيل فى استانبول ، وفى احدى يديه التى أصبحت الآن رقيقة نظيفة كان الشيخ يحمل مسباحا من عرق اللؤلؤ دلالة التقوى ، وفى يده الأخرى بعض الغلايين وعود ياسمين وقطعة عنبر غالية الثمن ، وكان كيس التمباك الخاص به يتدلى من خصره ، كما يتدلى كيس نقوده الصغير من جيب صدر قفطانه الذى كان كسائر ثيابه من قماش ثمين موشى بالذهب وفى الوقت نفسه رأيت كل رفاقى قد تغيرت هيآتهم بشكل ملحوظ على نحو يشابه تغير منظر الشيخ حامد . ولأنهم أناس ذوو ادراك فانهم يظهرون فى ثياب خلقة كما كانوا أو عندما يرغبون أن يكونوا مجهولين لا يعرفهم أحد ويرتدون الملابس الكتانية الجميلة عندما يريدون أن يعرف الناس مدى ما هم فيه من رخاء أو فى الأماكن التى يريدون أن يأخذ

---

(١٠) الهلالى نسيج قطنى مخطط بشرائط من حرير أبيض ، وهو قماش مفضل لدى عرب المدينة . وفى استانبول (القسطنطينية) يباع أفضل أنواعه ، ويبلغ سعر القطعة التى تكفى لحياكة قميصين حوالى ثلاثين شلنا ـ (موجز تعليق بيرتون) .

(١١) الميز Mizz (أو الميزة) وبالعامية العربية مسد Misd هو أخفاف داخلية تثبت باحكام من جلد قرطبى ناعم ، وتعد بمثابة جورب يلبس تحت الخف الملامس للأرض ، والميز (الجوارب الجلدية الداخلية) دائما نظيفة لذا يمكن أن يدخل الانسان وهى فى قدميه الى المسجد أو الديوان Diwan or Divan ـ (موجز تعليق بيرتون) .

الناس عنهم هذا الانطباع من خلال ملابسهم الفخمة · وعلى هذا فملابسهم الغالية الثمنية لا يلبسونها الا لأيام قلائل بعد عودتهم من الرحلة ليقدموا بها البرهان أنهم كانوا فى مهام أو يسعون لتحقيق بعض الأهداف ، وبعد ذلك يدخرونها ويضعون معها عطر الخزامى Lavender ويحفظونها لاستخدامها فى المناسبات · تماما كما تفعل العجائز فى أوروبا اللاتى يحتفظن بثياب المناسبات · وأخذ الشيخ حامد ـ الذى تغيرت حاله بعباءته هذه ، من رجل سوقى فظ الى رجل كيس رزين ـ بيدى وصعد بى الى المجلس Majlis (١٢) الذى كان قد كنس وزين وزود بالأدوات المطلوبة للاستقبال المرتقب ـ التشريفات · وخلفنا كان الولد محمد يتبعنا وقد بدا أكثر دونية ، خجلا من منظره بشكل لا يمكننى وصفه ، فقد كان لا يزال فى ثيابه الرثة وكان يشعر ـ بشكل حاد ـ أن كل زائر يحدق فيه ، وقد يقول فى سريرة نفسه : من هذا الدعى ؟

لقد زوى نفسه فى ركن واعتراه شعور عميق بالخور والذل وكان الشيخ نور الذى كان رثا وفى الغاية من القذارة كهندى زاهد جوال يجلس الى جواره يشاركه خجله · أتراني لم آمر هذا « العبد » أن يجعل من نفسه ـ بشكل عام ـ شخصا مفيدا !

ومن الأمور المعتادة لكل الأقارب والأصدقاء أن يزوروا المسافر زيارة قصيرة فى اليوم نفسه الذى يعود فيه حتى تدوم الصداقة · وكانت النارجيلات Pipar معدة ومعمرة ، والديوان ممتد كما ينبغى وكانت القهوة تعد على مجمرة brazier فى الممر · ونادرا ما كنت أتخذ مكانى عند عتبة النافذة الباردة ـ لقد كان هذا المكان هو أفضل مكان فى الغرفة ـ عندما يبدأ الزوار فى التدفق ويهب الشيخ للترحيب بهم ومعانقتهم · وقد جلس هؤلاء الزوار ودخنوا ، وتحدثوا بلباقة ، وسألوا كل ما يخطر على البال من الأسئلة عن عابرى السبيل وعن الأصدقاء الغائبين ، وشربوا القهوة (١٣) ، وبعد انقضاء نصف ساعة على الزيارة هبوا فجأة وتبادلوا

---

(١٢) أى غرفة الجلوس أو غرفة الاستقبال ، وعادة ما تكون فى الطابق الأول أسفل غرف الحريم ـ (موجز تعليق بيرتون) ·

(١٣) تصنع القهوة فى المدينة (المنورة) بشكل عام من بن جيد ، أما فى مصر فان رواد المقاهى يطلبون هذا المشروب « مرا كالموت أسود كالشيطان ، حارا كجهنم » ، ولتحقيق هذه الرغبة ، فانهم يحمصون البن حتى يصبح أسود اللون ، ويغلونه مدة تكفى لجعله مرا ، ثم يشربون مغلى البن الذى يغدو سميك القوام ، وفى المدينة (المنورة) على عكس ما فى مصر) فان حبوب البن الجيدة تعزل بعناية ، ولا توضع على النار الا عند الرغبة فى اعداد شراب القهوة ، أى انه يجرى تحميصها اولا بأول ، وعند التحميص لا يتركونها حتى تسود ، وانما حتى تصبح صفراء ثم تدق لتغدو مجروشا =

العناق ، ثم غادروا • وكان الشباب يدخلون بهدوء بعد أن يتعانقوا عند الباب ويجلسون بأدب على أسوأ المقاعد بعد القاء تحية خجولة على جمع الحاضرين ، وينحنون ويتناولون قهوتهم بعد تمنع ويخرجون من الغرفة بهدوء كما دخلوها •

أما العظماء فهم مشغولون ومغرورون ، وبالاضافة الى رزانتهم فان لسان حالهم يقول « حسنا فعلنا في هذا العالم » وظهورهم يكون مصحوبا بالضوضاء المصاحبة لوقوف كل الحاضرين على أقدامهم ، توقيرا لهم ، واذا جلسوا (أى هؤلاء العظماء) جلسوا بطريقة توحى بالأهمية ، واحتكروا النقاش ، ويغادرون المكان بطريقة تنم عن الأهمية مصحوبين بالتبجيل ، متوقعين أن يهب الجمع وقوفا بهذه المناسبة •

والجهاد — كما هى العادة — هو الموضوع الرئيسي في النقاش • فقد أمر السلطان القيصر أن يتحول للاسلام (١٤) • لكن القيصر طلب السلام وقدم الجزية والطاعة ، لكن السلطان زد شارحا : « لا والله ! لابد من الاسلام » ، ان القيصر لا يستطيع اتخاذ خطوة كهذه دون بعض التردد ، « لكن الله يضرب وجوه الكفار » ان عبد المجيد سيلتهم الموسكوف (١٥) فى وقت يسير ، وبعد ذلك سيستدير بجيشه المنتصر ضد الفرنجة الكفار — بادئا بالانجليز والفرنسيين والأروام (أو الاغريق) (١٦) • ومن بين كثير من هذا الهراء — اذا قارنته برأيى —

= لا مسحوقا ، والواقع أنه حتى الطبقات العليا فى مصر ، يصنعون مشروب القهوة على النحو أنف الذكر • ويغلون المجروش فى الماء ثلاث مرات ، ثم ترش برذاذ ماء بارد ليترسب المجروش ، ثم ينقل المشروب النقى (المصفى) فى آنية أخرى • والذين يحبون شرب القهوة غليظة القوام (لها وش) أو كما تسمى « كيمك Kaimak » لا يشربون ما فى الآنية الثانية • ونادرا ما يشرب العرب أكثر من فنجان واحد فى المرة ، وان كانوا يشربونها كل نصف ساعة على مدار النهار أما استخدام قشر البن Kishr كما فى اليمن فغير معروف فى مصر • (موجز تعليق بيرتون) •

(١٤) زار بيرتون مصر والحجاز ١٨٥٣ — ١٨٥٤ وتركيا (الدولة العثمانية) فى حرب مع روسيا (١٨٥٣ — ١٨٥٦) ، واشتركت مصر فى هذه الحرب الى جوار الدولة العثمانية ، وقد سبق أن أشار بيرتون فى الجزء الأول (عن مصر) لحماسة المصريين ورغبتهم فى الجهاد ضد الروس ، وهاهم الحجازيون يبدون الشعور نفسه — (المترجم) •

(١٥) يسمى المصريون والحجازيون الروس باسم « الموسكوف » أو الموسكو — (بيرتون)

(١٦) اليونانيون أو الاغريق معروفون تماما فى المدينة المنورة ويشكو بعض المؤرخين من أن بعض الاماكن المقدسة غير ذات الأهمية الكبيرة (المقصود غير المسجد الحرام والمسجد النبوى) قد وقعت فى أيدى هذا الجنس (اليونانيين) فمنعوا الناس من =

فقد سمعت أخبارا تنذرنى بالشر فيما يتعلق برحلتى الى مسقط · فقد قرر البدو أنه يجب تكوين « فريق عربى Arab Contingent » طمعا فى الحصول على أسلاب أوروبا · وقد سبب هذا خلافات ومعارك فكل الرجال كانوا راغبين فى الذهاب مع هذا الفريق (التجريدة) وحتى الذين بلغوا سن العاشرة لن يتخلفوا ونخلص من هذا بأن هؤلاء الرجال الظرفاء كانوا يحاربون فى كل اتجاه · أو على الأقل هذا ما سمعته من الزوار ، وقد وجدت بعد ذلك أنهم لم يكونوا بعيدين تماما عن الصواب ·

والسمان The Samman عائلة كبيرة عددا ، كما أنها ذات نفوذ وافر ، فمن الساعة الثامنة صباحا حتى منتصف النهار – يكون مجلسهم مزدحما بالناس · وبسبب الكياسة والمجاملات تأخر ميعاد افطارنا حتى ساعة متأخرة دون أن نحس بذلك ·

ان لعنة الكبار (١٧) تهون اذا قيست بلعنة الصغار (الأطفال) فحالما أصبحت القاعة شبه فارغة بعد انصراف الضيوف ، اندفع الأطفال فى جماعات وداسوا على أصابعنا ، وأحدثوا جلبة وضوضاء وكأننا فى حضانة أطفال مجانين ، ودفعوا كل شىء وقع فى أيديهم وكانوا يستخدمون طريقة فى الحديث قد ترعب حتى الرجل المحارب (١٨) · وفى الحقيقة لا يستطيع أحد أن يتقبل هذه اللعنة (الشقاوة) الا أولئك الذين درسوا حالات « الأولاد الفظيعين المربكين » الذين يعيدهم الهنود لمنازلهم مشحونين مع البضائع ·

فأحد هؤلاء الأطفال وكان كالقنفذ لا يزيد عمره عن ثلاثة أعوام بالكاد أخبرنى أن لدى أبيه سيفا فى البيت ، وأنه سيقطع رقبتى به من الأذن للأذن ، وأشار بيده الى رقبته مشفعا قوله بالايضاح ، وكان ذلك لأننى منعته من أن يطأ قدمى الجريحة · وبقليل من التوبيخ ، جعلت هذا النذل الصغير يكاد يتميز من الغيظ فدفعنى بقبضته الصغيرة وفتح عينيه السوداوين عن آخرهما بطريقة شنيعة وحملق فى وهو يضرب على ركبته ضربة قوية تحمل معنى التهديد · وحدث أن الشيخ حامد وصل فى هذه

= زيارتها (سواء أكان هؤلاء اليونانيون من المسلمين أم ممن ادعوا الاسلام) · وقد انتهز الكاذب الأفاق كاجليوسترو Cajliostro هذه الحقيقة وادعى كذبا وجود جالية يونانية بالمدينة المنورة – (عن بيرتون) ·

(١٧) يقصد كونهم فى حالة حرب دائمة وفى كل اتجاه – (المترجم) ·

(١٨) يسلى الآباء والبالغون انفسهم بشتم الأطفال ومشاكستهم بمجرد استطاعتهم (أى الأطفال) الكلام لاثارة غيظهم وللحكم على قدرتهم على التصرف · ويعد هذا السلوك الأطفال بمخزون هائل من البذاءات والشتائم ··· (موجز تعليق بيرتون) ·

اللحظة فوقف مشدوها عند المدخل وذقنه فى كفه ليرى الأفندى (١٩) يتعرض لمثل هذه المهانة ، وقد أنقذت هذا الطفل الآثم من ضرب عاجل ، لكن ذلك لم يتم بسهولة · وثمة فتى لعوب شيطانى آخر أمسك بواحد من مسدسى المحشوين بالذخيرة ، وقبل أن أتمكن من اختطافه من يده خبط به على رأس جاره ، ولحسن الحظ فقد كان زناده عند الأمان (نصف مصلى) ، كما كان الزناد خشنا (لا يتحرك بسهولة) · وعندئذ قام ولد خطير وضخم فى حوالى السادسة من عمره قد وضع محبرة فى حزامه لأنه كان يتلقى تعليما أوليا ـ بالقبض على نرجيلتى وبدأ يدخن وينفث الدخان بكثافـة ، فتجرأت على الضـحك عند مقارنتى بين طوله وطول النرجيلة ، عندئذ ألقى بها على الأرض ، وحملق فى بثبات بعينين تقدحان شررا وملامح ملأى بالغضب وسرعان ما تبين لى سبب هذه « الفظاظة » فالاكتفاء « بالتكشير » والتوبيخ لا يجدى مع هؤلاء الأولاد ، اذ لا ينتج عن ذلك الا ضحكهم وسخريتهم ، فهم لا يرتدعون الا اذا ضربوا بشدة ·

وعلى أية حال فقد عادوا الى وضعهم الأصلى : أولاد غاضبون كرجال ، ويعاقب بعضهم بعضهم الآخـر داخل بيوتهم كمـا يفعل الأولاد الأنجلو سكسون · أما خارج بيوتهم فهم دائما لا يتعاركون الا بالعصى والأحجار · لقد تفحصوا أسلحتنا قبل أن يتفضلوا بالنظر الى أى شىء آخر ، وبدا أبناء الخامسة من العمر ـ وتلك كانت أعمارهم بشكل عام ـ وكأنهم فى الثامنة عشرة ·

وأخيرا فقد اخترقت قواعد اللياقة العربية وتجاوزتها كثيرا فقلت لمضيفى بكلمـات واضحة ـ بطريقة التذلل التى كان الولد محمـد يستعملها ليذيب بها القلوب اننى جائع وعطشان وفى حاجة للنوم وأود أن أكون بمفردى قبل زيارة الحرم (النبوى) ، فقام الشيخ الطيب باحضار طعام الافطار لى واشعال النرجلية ، وفرش الوسادة ، واظلام الغرفة ، وطرد الأطفال خارجها وتركنى فى الجو الذى أريده ، مع نفسى ، وقد فعل الشيخ الطيب كل هذا رغم أنه كان يستعد للخروج الى قبر والده ليدعو الله له بالرحمة to pray before his father's Grava وبعد أن تركنى سمعته يدعو أمه وزوجته وقريباته الى غرفة المخزن حيث وضع أمواله مواريا اياها عن العيون · وفى فترة الضـحى وفى حضـور الزوار استدعى الشيخ حامد أحمد أعمامه وطلب منه فى حالة بين الجد والمزاح أن يخرج السحارة the Sahharah ، لكن الشيخ لم يهتم بهذا الطلب ·

---

(١٩) اى بيرتون نفسه ـ (المترجم) ·

ففى كل ساعة يتم فتح صندوق جديد فى هذا المكان من العالم ، وكرم المالك يكون محط اعجاب أولئك الذين يحرجهم رفض (طلبهم) ، كما أن على المالك أن يسمح للآخرين بسلبه (أو نهبه) بأكرم طريقة ممكنة ولهذا فان الشيخ حامد كان يعانى تماما متحسبا للعواقب اذا غادر بيته قبل أن يراجع أو يستعرض ثروته ليكتشف ما نقص منها مستشفا ذلك من التلميحات التى قد تخرج من شفاه النسوة فى بيته ، ويبدى رضا بالغا للائى يكن أكثر حرصا ٠

وبعد أن نلت قسطا من النوم خرجنا جماعة الى الحرم ، فزيارة الحرم واجب يجب ألا يتأخر عنه الأتقياء ٠ وكانت الروح المعنوية للولد محمد أفضل مما سبق بتأثير ما أعارة حامد له من ملابس من بينها عباءة موشاة ذات ألوان مبهرجة بشكل يزيد عن الحد وقام الولد محمد ومثله فى ذلك مثل الشيخ نور ـ بصقل طربوشه واستعان ببعض ملابسى التى تخلصت منها باعطائها له ، فهيأ نفسه ليبدو كعبد حبشى محترم بثياب غريبة نصفها تركى ، ونصفها الآخر هندى ٠ وانى أوثر أن أحتفظ بحديثى عن شعائر الزيارة لفصل آخر ، وأن أنهى هذا الفصل بحديث موجز عن طريقتنا فى العيش ببيت الشيخ حامد الذى أحسن وفادتنا ٠

ان الشيخ حامدا يسكن فى مبنى صغير يقع فى ركن ، وهو ـ أى المبنى ـ يفتح تجاه الشمال والشرق الى بر المناخة Barr al-Manakhah والطابق الأرضي ليس أكثر من مجاز أو ردهة ليس به الا أشياء خشنة مثل الشقاديف Shugdufs والحصر وقطع من أكياس ، متناثرة هنا وهناك ٠ فاذا صعدت سلما مظلما متمعجا من أحجار غير مستوية مغطى بتراب أسود كثيف متماسك وصلت الطابق الأول من المنزل حيث يعيش أهل البيت ٠ ويتكون الطابق الثانى من غرفتين فى واجهة البيت ، احداهما هى غرفة المجلس Majlis والأخرى تحولت الى مخزن ٠ وخلفهما ممر مظلم تطل الأبواب عليه ، أما الجانب الخلفى من الطابق الأول فيتكون من غرفة طويلة ليس لها نوافذ تشتمل على حنفية â Hanafiyah وهى وعاء نحاس كبير لحفظ الماء ، وأشياء أخرى تستخدم عند الوضوء أو الاستحمام ٠ وفى الطابق الثانى يوجد المطبخ حيث يوجد الحريم عادة ، ولم أدخل المطبخ ٠

وفى المجلس نوافذ صغيرة أقرب الى الطاقات فى الجدار الشمالى والجدار الشرقى ، ولها مغاليق خشبية ومصاريعها من قصب ، وهناك تجويفات فى الحوائط بها حواش (وسائد) لتجلس عليها صباحا ومساء لتستمتع بالجو البارد ٠ أما السقف فمن جريد النخيل المصفوف على عوارض من سوق النخيل ، وقد دهن باللون الأحمر ٠ أما الجدران فمشيدة

من طين وطوب أحمر بالاضافة الى خط من الخشب مثبت بالجبس ، وليس هناك في المجلس ما يمكن أن يطلق عليه أثاث سوى الديوان Diwan حول الجوانب وسجادة في الوسط • وثمة صندوق خشبى ضخم مثل صندوق البحار ، يشغل أحد الأركان • ويوجد في الجدار الجنوبى صفة Suffah وهى رف صغير من أحجار تحت قوس معمارى Arch ، وعلى هذا الرف (الصفة) تصف الأشياء التى تستخدم باستمرار ، كزجاجات العطر وفناجين القهوة ، وكتاب أو كتابين ضلا طريقهما الى هذا المكان ، وأحيانا توضع العمامة هنا لابعادها عن أيدى الأطفال • وثمة خطافان (شماعتان) على الحائط الغربى مثبتتان على ارتفاع ينم عن حذر ، وقد علق عليها زوج من المسدسات ، وسروالان قرمزيان جميلان وشرابات tassels وستة غلايين ذوات أنابيب من خشب أحمر فاتح (كرزى) ولا يخلو وسط الغرفة من شيشة أو شيشتين Waterpipe ، وفى الركن مجمرة نحاسية كبيرة بها نار ، كما أن كل أدوات عمل القهوة موجودة إما على حافة المجمرة العريضة أو ملقاة حولها على الأرض • والممر - مثله مثل السلم - مغطى بتراب أسود متماسك ، وخلال موسم الحر ، يرشونه بالماء مرتين يوميا •

وتتكون الأسرة من أم حامد وزوجته وبعض أبناء الاخوة أو الأخوات nephews وبعض بنات الاخوة أو الأخوات ، أطفال صغار يجرون نصف متوحشين وأكثر من نصف عراة ، وجاريتين أفريقيتين • وعندما وصلت القافلة الدمشقية ازدحم المنزل بوصول اخوته الثلاثة الشبان •

ورغم أن منزل الشيخ حامد لم يكن واسعا ، الا أن المناظر المتباينة التى تبدو من نوافذ المجلس تجعل منه مكانا حيويا • فمن ناحية الشرق تشرف على ميدان البر وسور المدينة وما خلفه من منازل ، والباب المصرى ، والأدوار العليا من مآذن الحرم النبوى وشىء من جبل أحد البعيد • ومن ناحية الشمال ترى منظر مسجد محمد(٢٠) أحد المساجد الخمسة ، وجزءا من جدار الحصن ، وعند وصول القافلة الدمشقية ترى منظرا مبهجا • وكان المجلس يتميز ببرودة منعشة خلال فترة الصباح ، أما بعد الظهيرة فان الشمس تصب أشعتها عليه بقسوة وقد وصفت - بشىء من التفصيل - مثالا عن كيفية سكن الطبقة الوسطى فى المدينة (المنورة) ، أما الطبقات العليا فتأثرت بالفخامة التركية والمصرية فى السكنى ، وقد أتيح لى أن أرى نموذجا مناسبا لها فى مسكن عمر أفندى فى « البر Barr (٢١) » • وفى هذه المناطق نجد أن مساكن الفقراء متشابهة فى كل مكان •

(٢٠) هذا المسجد غير المسجد النبوى المعروف (الحرم النبوى) - (بيرتون) •
(٢١) المقصود بر المناخة - (المترجم) •

لقد كانت معيشتنا فى بيت الشيخ حامد هادئة ومقبولة الى حد ما · ولم تقع عينى ولو مرة واحدة على وجه امرأة خلا الجاريتين الأفريقيتين ، وحتى هاتان فقد حاولتا أن تسحبا خماريهما المهترئين على مفاتنهما السوداء ولم تكونا لتجيبا عن أبسط سؤال لكن شيئا فشيئا سمحتا لى أن أراهما وغامرتا برفع أصواتهما لاجابتى الا أنهما لم تتخليا أبدا عن مظهر الخجل والحشمة · ولم أر ـ بل حتى لم أسمع ـ شابات الأسرة اللائى كن يقمن دوما فى الغرف العليا من البيت · الا أن أم حامد ، المرأة المسنة ، كانت تقف على السلم ، وتتناقش بصوت عال مع ابنها ، وكانت تتجاذب معى أطراف الحديث ، عندما يقل عدد الناس فى البيت · وعلى أية حال فلم يحدث أبدا أن أتت وجلست الى جوارى ، وان حدث بعد ذلك فى مكة (المكرمة) أن أتت عجوز شمطاء ancient dame وجلست الى جوارى ·

وعندما أكون مستلقيا فى وسط النهار بالممر ، غالبا ما كنت أرى جماعات من النسوة يصعدن السلم الى غرفة الحريم ، وفى بعض الأحيان قد تقف امرأة لتصافح بيدها المغطاة حامدا ، ويتهامسان لفترة ، وتسأله عن أخبار أصدقاء غائبين ، وغالبا ما ينهيان حديثهما ، دون أن تكشف المرأة حتى عن بوصــة واحدة من وجنتيها وانمـا تبدآن حديثهما وتنهيـانه باحتشـــام ·

وعندما يطلع الفجر ، فاننا نغتسل ونصلى ونتناول افطارنا من قشرة خبز (وجه الرغيف) يابس قبـل تدخـين النارجيلة ، ثم نشرب فنجانا من القهوة · وبعد القهوة يحين ارتداء الملابس والركوب لزيارة الحرم النبوى أو أى من الأماكن ذوات القداسة خارج المدينة (المنورة) ثم لنعود قبل أن تحمى الشمس لنجلس معا ونتجاذب أطراف الحديث ونتداول الشيش (جمع شيشة) Shishes والشيبوك Chibuks (٢٢) والقهوة والماء البارد المعطر بدخان المصطكى (المستكة) ، وهكذا نقضى الوقت حتى يحين ميعاد الغداء الذى يبدو أن له وقتا محددا هو السـاعة الحادية عشرة صباحا · وتقدم هذه الوجبة فى المجلس فى صينية نحاسية كبيرة قادمة من الطابق العلوى ، ونبدأ بقول بسم الله Bismillah ونتحلق حول الصينية ونغمس أيدينا على قدم المساواة فى الصحون القابعة أمامنا ، وعادة ما لا نغادر طعـاما على المائدة الا تناولنا منه : الخبز ، ومختلف أنواع اللحوم ، ويخنة الخضروات ، وأخيرا نتناول بالملاعق الأرز المسلوق · ثم تأتى الفاكهة والرطب الطازج والأعناب والرمان ·

---

(٢٢) الشبق بضم الشين والباء · انظر حاشية سابقة ، ج ١ ـ (المترجم) ·

وبعد الغداء تعودت أن أتعلل ببعض الأعذار كالقول بأننى متعود على قضـاء فترة قيلولة (راحة منتصف النهار) أو اننى سوداوى Saudawi (متوعك المزاج) ـ وذلك كى آخذ بساطى وأفرشه فى الممر المظلم خلف المجلس حيث أستلقى لأقرأ أو أستمتع بالنعاس أو التدخـين أو كتابة مذكرات موجزة ٠

ثم أتت ساعة استقبال الزائرين أو رد الزيارات ٠ لقد كنا ـ لازلنا ـ نحتفظ بعلاقات صداقة حميمة مع عمر أفندى ، وسعد العملاق البارع the Demon رغم أن صالح شكار Shakkar وعم جمل (٢٣) Amm Jamal اما أنهما لم يكونا يحبان صحبتنا أو ربما ظنا أن مستوى معيشتنا متواضع للغاية ولا يليق بمقامهما ، ولم يظهرا مرة واحدة فى بيت حامد وكنا نصلى صلاة العشاء فى الحرم أو فى المنزل ويعقبها تناول وجبة العشاء وهى ثانى وجبة أساسية مثلها فى ذلك مثل الغداء وان كانت المائدة أكثر امتلاء بالخبز واللحوم والخضروات وحساء الأرز ، والفاكهة ، وتنتهى الوجبة بتدخين النرجيلة وتناول القهوة ٠

وكى نقضى سهرتنا فاننا عادة نرتدى ملابس معتادة ويضع كل واحد منا على كتفه نبوتا Nabbut ونذهب للمقهى ، وفى بعض الأحيان ـ فى المناسبات الاحتفالية نندمج فى تناول الحلوى (الطعطومة Taatumah أو أو العطمية Itamiyah) (٢٤) والرمان والفواكه المجففة ، وذلكَ بعد تناول العشاء بوقت كاف ٠ وعادة ما نجلس على حصر مفروشة فوق الأرض فى الهواء الطلق عند باب منزل الشيخ حامد نستقبل زوار المساء ونتجاذب أطراف الحديث ، ونقص القصص ، ونضفى جوا من المرح على الجلسة ، فاذا ما أحس أحدنا باقتراب سلطان النعاس خر فى مكانه نائما ٠

وبسبب حرارة النهار فان ليل المدينة (المنورة) ـ كما أظن ـ يتسم بالمرح ويكون محببا منعشا ٠ ولتحاشى الغبار يقومون برش الأرض أمام منزل الشيخ بالماء كل مساء ٠

---

(٢٣) جمل وليس جمال كما اتضح فى الجزء الأول ـ (المترجم) ٠

(٢٤) فى وثائق الوقف على الأماكن المقدسة يشار اليها بالطعامية وهى كما يشير بيرتون نوع من الحلوى ، ويبدو أن المصريين صرفوا هذا الاسم بعد ذلك للطعمية المعروفة الآن (معجون الفول وبعض الخضروات مهيأ فى أقراص ومقلى فى الزيت) وهذا ليس أمرا غريبا ، فالمصريون المحدثون عندما وجدوا أنهم يسمعون عن فاكهة الأناناس ولايأكلونها أو لا يأكلها الا الأثرياء منهم حلوا المشكلة بأن أطلقوا لفظ الأناناس على نوع من الشمام فأسموه « أناناس » ، وبذلك أصبحوا من أكلة الأناناس ٠ انه تصرف تلقائى فى حاجة الى دراسة ـ (المترجم) ٠

وقد عانى الولد محمد من آلام مرض الزلخة (اللمباجو) الشديد٠وعلى اية حال فقد كان يعالجها بالتدليك بزيت الزيتون المغلى مع الزنجبيل ٠

وكان ما يسبب لنا ازعاجا فائقا ليلا هو العراك بين الحيوانات ، وما تحدثه من أصوات وجلبة ٠ فخيول الجند المربوطة فى بر المناخة كانت ــ يقينا ــ مطلقة العنان لاثنتى عشرة ساعة وقد قام بعضهم بربط قوائم فرس عجوز انساب عذارها (ما ينساب من اللجام على وجه الحصان) فرفعت قدميها الخلفيتين (بطريقة الكانجارو) نحو حصان مجاور لها ، بينها وبينه حقد ، وتلامست رأساهما للحظة وصهلت بغضب وراحت تركل ركلات مرعبة ، وأخيرا إنفلت حصان آخر وراح يحطم كل ما يواجهه برأسه وذيله ، بطريقة شريرة ٠ وكان هذا مقدمة لفوضى عامة فى المربط ، وتشابكت الحبال التى عقلت بها الخيول ، وحدث فرار جماعى للخيول قلب السهل رأسا على عقب : خيول تعدو ، وأخرى تشب على قوائمها الخلفية ، وخيول ترفس أو تعض أو تصهل أو تضرب الأرض بحوافرها صاخبة غاضبة ، ويختلط كل هذا بنباح الكلاب التى تنبح تجاوبا مع هذه الفوضى الصوتية ، وأصحاب الخيول يصيحون جادين فى اثرها ٠

لقد كان منظرا غريبا أن ترى فى ضوء القمر هذه الخيول الشيطانية الثائرة ، وزاد المنظر هولا هذه الظلال التى تعطى المنظر أبعادا غريبة وفى أكثر من مرة كنا نهب فزعين من أسرتنا ٠

وكلاب المدينة (المنورة) ليست أقل شراسة من الخيول فهى أضخم وأشرس من الكلاب التى تتلكأ فى شوارع القاهرة ٠ وأهل المدينة ــ مثلهم فى ذلك مثل المصريين ــ لديهم تنظيمات شرطة مكلفة بالقبض على الكلاب الضالة التعيسة ، الا أن الكلاب كانت تجتمع فى بر المناخة ، وكان لدينا مناسبات عدة لمراقبتها ، ويمكننى أن أؤكد أنها كانت تنقسم الى مجموعتين تحاربتا بمهارة وشراسة أذهلتنى!٠ففى بعض الأحيان اذا تراجع أحد الجانبين قام بعض المحاربين (الكلاب) فى الجانب المهزوم بدور البطل ليضحى بنفسه فى صالح المجموع ، فيقوم وقد صر أسنانه ، وعوى عواء الغضب بالهجوم على المنتصرين المتغطرسين حتى يستعيد أصدقاؤه الهاربون رباطة جأشهم ، وهو يقوم فى هذه الحال بدور المبارز Mubariz وفى أحايين أخرى نجد أحد الكلاب الضخمة يدخل الحلبة بصراخ مفزع (مسعور) فيقفز على أحد الكلاب ويعض الثانى ويفزع الثالث لدقيقة أو دقيقتين ثم يفلت هاربا فى ركن قصى فى حين يكون الميدان الغاص فى حاجة لوجوده ٠ ان هذه الحصافة غير المألوفة فى معارك الكلاب تكون محط أنظار العرب فيتسلون بملاحظتها ، ويراعون قواعدها فى معاركهم ٠ ومن الأمور المألوفة فى الحجاز أيضا خرافات عن كلاب تشبه كلابنا الا أنها

ـ كما هو المعتاد عندهم « أى عند العرب » ـ أكثر شاعرية وأقل تنافرا ٠

ويعتقد معظم الناس أن الكلب عندما « يعوى » بدون سبب ظاهر بجوار منزل ، فان أحد سكانه سيموت (٢٥) ، لأن الكلب كما يقولون يتعرف على شـكل ملك الموت عزرائيل وهو يرفرف فوق مسكن من حان قدره المشئوم ، ولأن روح الانسان الآثم تكون كئيبة معتمة بسبب ما اقترفه صاحبها من خطايا ٠

وعندما تدخل القافلة الدمشقية المدينة (المنورة) يصبح يومنا نوعا ما أكثر تشويقا ٠ فعبر نوافذ منزل الشيخ حامد تتوالى تباعا المشاهد الغريبة ٠ فقد نصب وجيه فارسى أيضا خيامه بالقرب القريب من الباب لدرجة أن أسلوب حياته الخاصة أصبح مشاهدا ومعروفا للولد محمد الذى كان يسلى زملاءه بأن يقص عليهم كل المشاهد الغريبة أو المثيرة للضحك ـ لقد كانت زوجة هذا الفارسى امرأة جميلة للغاية وقد أثارت سخط الشاب بعدم تحجبها ، عندما كان يحملق فيها ، لأنها اعتبرته مجرد ولد لأنها رأت أن لحيته لم تنم بعد وقال الولد محمد : « سأطلب منها أن تتزوجنى ، وبذلك أجعلها تستحى ! » ٠

وقد طلب منها بالفعل ذلك لكن لسوء حظه فان الفارسية الجميلة لم تتوقف أبدا حتى عن تحريك مروحتها ٠

وحاق الخزى بالولد محمد ٠

---

(٢٥) فى الريف المصرى أقوال من هذا القبيل ـ (المترجم) ٠

الفصل السادس عشر

زيارة لقبر النبى (صلى الله عليه وسلم)

الاستعداد لزيارة الحرم النبوى ـ نظرة العرب لراكب الحمار ـ السلفيون (١) (الوهابيون) وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ـ تفضيل مكة المكرمة على المدينة المنورة والعكس ـ أخطاء وقع فيها بيرتون ـ وصف المسجد ـ الحجرة ـ قبر الرسول ـ أوهام بيرتون حول قبر الرسول ـ النور المنبعث من قبر الرسول ـ الدعوات والابتهالات اثناء الزيارة ـ قبر أبى بكر رضى الله عنه ـ قبر عمر رضى الله عنه ـ قبر فاطمة الزهراء ـ اهل المدينة يسمون احدى آبارهم (زمزم) ـ المتسولون ـ الحرم النبوى بالغ الروعة ليلا ـ المآذن ـ الأسطوانة الحنانة ٠

بعد أن استحممنا (تطهرنا الطهارة الكبرى) ونظفنا أسناننا بالسواك كما أمرنا ، وارتدينا الملابس البيض التى كان الرسول يحبها ، أصبحنا مستعدين لبدء رحلتنا المقدسة ٠ ولما كانت قدمى ما تزال تسبب لى ألما فائقا ، فقد أرسل الشيخ حامد فى طلب حمار ٠٠ ! حيوان هزيل بائس بادى عظام الظهر ، مصاب بالعرج فى احدى سوقه ، تعوزه أذن ، أما عدته فتجاريه بؤسا وهزالا ، فسرجه بلا ركاب ، وحل حبل محل لجامه ٠ وكان يتعين على أن أركبه مهما كانت حاله لأمر من الباب المصرى بين البدو الذين يحتقرون الحمار مثلهم فى ذلك مثل الهنود فأغانى العرب تقول :

شرف للراكب أن يركب حصانا

وركوب البغل قلة شرف

وركوب الحمار مجلبة للعار

---

(١) السلفيون والمثقفون يشدون الرحال لمسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا لقبره ـ (المترجم) ٠

وعلى أية حال ، فان الحجاج الأتراك كانوا بشكل عام يركبون الحمير عندما لا يستطيعون المسير ، وكانوا يبدون فخورين بذلك لجهلهم بكل أحكام العرب المسبقة . وكان البدو يتجمعون معا ويتحدثون بصوت يمكنني أن أسمعه ، ذاكرين أنني عثماني Osmanli – ومادمت كذلك فأنا لا أفهم العربية بطبيعة الحال وراحوا يتساءلون بشكل عام :

أية لعنة من لعنات الله أصابتني فجعلتني من فئة راكبي الحمير ؟؟!

لكن الشيخ حامدا كان يحدثني عن المسجد النبوي كواحد من الحرمين الاسلاميين ، كما أنه الثاني بالنسبة للمساجد الثلاثة المفضلة في العالم ، أما المسجدان الآخران فهما المسجد الحرام في مكة (لارتباطه بابراهيم الخليل) والمسجد الأقصى بالقدس (لارتباطه بالنبي سليمان) ففي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أن « صلاة واحدة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه عدا المسجد الحرام » (٢) لذا فمن واجب الزائر أن يصلي الصلوات الخمس جميعا في المسجد النبوي طول اقامته بالمدينة (المنورة) وأن يقضي نهاره في قراءة القرآن (الكريم) وأن يقضي ليله – إن أمكنه ذلك – في التأمل والعبادة .

والتشرف بالحضور للمسجد النبوي وما بداخله من بقع مقدسة يطلق عليه مصطلح « الزيارة » . وهناك فرق جوهري بين « الزيارة » من ناحية وأداء فريضة الحج من ناحية أخرى . فالحج فرض – بنص القرآن – على كل مسلم مرة واحدة في حياته ، أما الزيارة فتطوعية . والطواف حول الكعبة (المشرفة) بمكة (المكرمة) لا يجب أبدا أن يؤديه الزائر حول قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) . فالزائرون لقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يلبسون ملابس الاحرام ، ويجب ألا يقبلوا القبر أو يمسوه بأيديهم (تبركا) أو يضغطوا بصدورهم عليه كما يفعلون عند الكعبة (المشرفة) أو يتمسحوا بوجوههم على التراب المتجمع بالقرب

---

(٢) نصوص الأحاديث الشريفة في هذا المجال كالتالي : « صلاة في مسجدي هذا خير من الف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام » وأيضا : « صلاة في مسجدي هذا افضل من الف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام افضل من مائة صلاة في مسجدي هذا » وايضا : « صلاة في مسجدي هذا افضل من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام افضل من مائة الف صلاة فيما سواه » واحاديث اخرى كثيرة في هذا المعنى تختلف في درجة الافضلية ، لكنها جميعا تفيد أن الصلاة في المسجد الحرام بمكة افضل من الصلاة بالمسجد النبوي ، والصلاة في المسجد النبوي افضل من الصلاة في غيره من المساجد ، وهذه الأحاديث مجمع عليها في كتب الأحاديث الصحيحة المعروفة بالصحاح (البخاري ومسلم وابن ماجه والنسائي ... الخ – (المترجم) .

منه (٣) ، أما الذين يسجدون أمامه كالهنود الجهلاء ، فهم يرتكبون اثما كبارا (*) ، ويأتون أمرا ادا (**) Guilty or deadly Sin .

ومن ناحية أخرى فانه من فعل الكفار أن تبصق على أى موضع فى المسجد النبوى أو أن تتصرف فيه باستهتار أو ازدراء .

هذا ما استقر عليه رأى علماء الدين والمتدينين ، ويمكن أن يظن المرء أنه يكفى القول بالأهمية الروحية لمسجد الرسول وقداسته . لكن البشر خاصة فى بلاد الشرق يتحتم عليهم دائما أن يتطرفوا . فالمسلمون السنة من أتباع مذهب (الامام) مالك يعتقدون أن المدينة (المنورة) أكثر شرفا وأعلى مرتبة روحية من مكة (المكرمة) لوجود قبر محمد (صلى الله عليه وسلم) بها . ويقول بعضهم ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) فضل المدينة (المنورة) كملجأ له (دار هجرة) وباركها ، تماما كما بارك ابراهيم مكة (المكرمة) وتروى المأثورات ما هو أكثر من هذا (٤) . وتفخر المدينة (المنورة) أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عاش على ما قدمته له . وآخرون - مثل (عمر بن الخطاب رضى الله عنه) كان فى حيرة أى موضع يفضله لدفنة (٥) . أما الوهابيون (السلفيون) - من ناحية أخرى - فيرفضون شفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى يوم الحساب (فى الآخرة) وينظرون لقبره نظرتهم لقبر أى ميت ولا يولونه أى اهتمام ، كما ينظرون باشمئزاز لبعض المسلمين الأغبياء الذين يوقرون القبر توقيرا وثنيا ولهذا فقد نهب الوهابيون (السلفيون) القبر بعنف Sacriligious Violence ومنعوا الزائرين القادمين من أقاصى المعمورة

---

(٣) هذا دليل قوى على أن بيرتون قد استقى معلوماته عن الاسلام من مصادر أصيلة ، ولم تكن معلوماته عنه مجرد تجميع للخرافات الشائعة ، كما أنه - أى بيرتون - لم يتأثر بالدراويش والطرق الصوفية رغم اختلاطه بهم ، والجدير بالذكر أن الرحالة بوركهارت الذى سبقه بزيارة الاماكن المقدسة قد وقف الموقف نفسه ونظر باحترام فائق للاسلام بوجهه النقى ولم يحسب على الاسلام الخرافات الشائعة بين المسلمين . أنظر رحلة بوركهارت التى ترجمت للعربية وأشرنا لها فى حاشية سابقة - (المترجم) .

(*) كبارا (بضم الكاف وتضعيف الباء) : المفرط العظم - (المترجم) .

(**) ادا : أمرا منكرا - (المترجم) .

(٤) اورد بيرتون هنا جملة غير واضحة المعنى او اننا لم نجد ما يؤكدها وهى :
Moreover, as a tradition declares that every man's body is drawn from the grund in which he is buried, ...

(٥) ان كان المقصود بهذه العبارة تردد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى اختيار موضع دفنه (أى دفن عمر نفسه) فهذا غير صحيح ؛ لأنه رضى الله عنه أبدى رغبته كما تجمع كل المصادر على أن يدفن بجوار نبيه صلى الله عليه وسلم ، وان كان المقصود تردد النبى صلى الله عليه وسلم فهذا أيضا غير صحيح ولو أبدى الرسول صلى الله عليه وسلم رغبة فى أن يدفن فى مكة المكرمة لم يكن فى وسع احد أن يخالف رغبته - (المترجم) .

من دخول المدينة (المنورة) (٦) ٠

ويجمع المسلمون على أن بيت الله فى مكة المكرمة هو أفضل الأماكن فى العالم وأكثرها قداسة وطهارة ، وأن المدينة (المنورة) أفضل من أى مكان فى مكة (المكرمة) خلا الكعبة (المشرفة) أو بيت الله ٠ وعلى أية حال فإن أهل مكة يدعون تميزا بغير حدود على أهل المدينة ، كما أن أهل المدينة يفخرون على أهل مكة ٠

وقد وصلت فجأة للمسجد النبوى بعد أن مررت بشوارع موحلة لأنهم رشوها بالماء قبل حلول المساء ٠ وكما هو الحال فى مكة المكرمة فان الزائر عندما يقترب من المسجد يصدم بالمبانى القبيحة ، بل ان بعض هذه المبانى تلامس بالفعل سور المسجد ، وبعضها يفصل بينها وبين سور المسجد ممر ضيق يمكن مقارنته بالممر المحيط بكنيسة القديس بول فى ميدان الفاتيكان ٠ وليس للمسجد النبوى واجهة خارجية ، ولا يمكن للمرء أن يلقى عليه نظرة شاملة ، لذا فان مبنى المسجد لا يوحى بالجمال أو الجلال (٧) ٠ وعند دخولى من باب الرحمة صعدت بضع درجات صغيرة ، واعترتنى الدهشة بسبب المظهر المتواضع الخالى من الذوق لهذا المكان الذى يحظى بالتبجيل والتوقير فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ٠ فمبنى

---

(٦) نفضل فى هذا الصدد نقل آراء الوهابيين ، وهو اسم يكرهه أصحاب الدعوة السلفية فى شبه جزيرة العرب ويفضلون عليه (الموحدون) أو السلفيون – من المصادر الاصلية لهم ، فالسلفيون يوقرون المسجد النبوى ويحترمونه ويدعون لشد الرحال اليه ، لكنهم يمنعون التمسح بقبر الرسول صلى الله عليه وسلم أو التوجه بالدعاء للرسول صلى الله عليه وسلم باعتبار ذلك شركا (وهو قول صحيح) ٠ يقول احد السلفيين : « تسن زيارة مسجد النبى صلى الله عليه وسلم قبل الحج أو بعده » ٠٠٠ ويقول : « ويسن السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول : « السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ٠٠٠ ! » ويقول هذا السلفى : « ان الصلاة فى الروضة مفضلة لقول الرسول : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » ٠٠٠ الخ

انظر : التحقيق والايضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة لابن باز صص ٦٩–٨٠ – (المترجم) ٠

(٧) هذا رغم المبالغ الطائلة والأوقات الهائلة فى مختلف أنحاء الدولة العثمانية ، ومصر خاصة ، ولكن مشايخ العرب ، والفراشين والأشراف كانوا يستولون على كل هذا ولا يتركون لصيانة المسجد الا اقل القليل ٠٠ انظر على سبيل المثال : وثائق الوقف على الأماكن المقدسة ، بحث قدمه د٠ عبد اللطيف ابراهيم (مصادر تاريخ الجزيرة العربية – ج ٢ ، ص ٢٥١ وما بعدها ٠ الرياض ، جامعة الملك سعود ، ١٩٧٩ ، وانظر أيضا : وثائق مخصصات الحرمين الشريفين فى مصر أبان العصر العثمانى ، تأليف مصطفى محمد رمضان (مصادر تاريخ الجزيرة العربية – ج ٢ ، صص ٢٥٩–٢٧٤) ٠ وفيما يلى قوائم ببعض المبالغ المرسلة للحرمين الشريفين من واقع السجلات والوثائق الرسمية التى نشر جانبا مهما من أصولها الباحث المذكور :

المسجد ليس كالمسجد الحرام بمكة (المكرمة) ، فهذا المسجد الأخير يتسم بالعظمة والبساطة ويعطى تعبيرا عن فكرة الواحد السامى (عن الفكرة السامية) • أما المسجد النبوى فقد نظرت اليه طويلا ، انه أشبه

= اسم الوقف	صرته عام ١١٥٤ هـ (١٧٤١ م)	
– وقف السلطان مراد والسلطان محمود	٥٥٧٢٣٦	نصف فضة
– وقف الدشيشة المحمدية (والدشيشة هى القمح المجروش)	٤٩٧٩٨٤	نصف فضة
– وقف الحرمين الشريفين	٤٥٥٨٤٢	نصف فضة
– وقف الخاصكية المستجدة	٥٣٧١٠٠	نصف فضة
– وقف السلطان أحمد خان	٢٢٥٠٤٠	نصف فضة
– وقف الدشيشة الكبرى	٧٠٨٧٤٢	نصف فضة
– وقف بشير أغا وكيل دار السعادة	١٥٠٦٧٥	نصف فضة
– وقف الخزينة	٨٠ر٠٠٠	نصف فضة
– وقف اسكندر باشا	١٢ر٦٠٠	نصف فضة
– وقف على باشا السبكى	٢٠ر٠٠٠	نصف فضة
– وقف سنان باشا	٢٢ر٠٠٠	نصف فضة
– وقف الخاصكية القديمة	١٢٥ر٠٠٠	نصف فضة

وفيما يلى بيانات الصرة التى تم ارسالها سنة ١٨٥٦ ميلادية وهو تاريخ قريب من التاريخ الذى كان فيه بيرتون فى الديار المقدسة •

مبلغ الصرة ٤٢٣٢ر٨٧٤٦ نصف كيس ، ويلاحظ أن الكيس فى هذه الفترة كان يساوى عشرين ألف فضة (٢٠ر٠٠٠) ، واليك التفاصيل :

نصف كيس	كيس	جهة الصرف وبيان التوزيع
٣٩٣٤	٨٣٤	من جهة الخزينة العامرة وهو مبلغ الصرة الميرى •
١٤٢٥٤	١٢٧	من جهة أوقاف أغات دار السعادة وأرباب خيرات وأحكار مصر •
		فضة كيس
	توزيعها :	٧٨ر١٦٠٤ لأهل مكة
		٥٩ر١٢٦٥٠ لأهل المدينة
٦٨٥٥	٣٢	من جهة أوقاف برانية معتـاد صرفها من الخزينة العامرة بالرزنامة
	توزيعها :	٨ر١٨٤٧٣ لأهالى مكة
		٨٣٨٢ ر٢٣ لأهالى المدينة
١٩٨٥١	٢٩٤	عوائد الأشراف والعربان بمكة والمدينة =

بمتحف فنون من الدرجة الثانية أو دكان للتحف . ملىء بالزينات الثانوية وزخارفه تدل على فخامة الفقراء .

والمسجد النبوى متوازى أضلاع ، طوله حوالى أربعمائة وعشرين قدما وعرضه حوالى ثلاثمائة وأربعين قدما ، واتجاه طوله يمتد تقريبا امتدادا شماليا جنوبيا . وكما هى العادة فى المساجد الاسلامية فهو مبنى مكشوف مع وجود مساحة واسعة فى الوسط تسمى الصحن أو الحوش

=	١٨٢٠	٦٣	انعامات باسم الأشراف والعربان بمكة والمدينة .
	١٧١٦٧	١٢٨٦	مصاريف الذخائر بمكة والمدينة ومطلوب الايالة بجدة لغاية ١٢٧٠ هـ
	١٦٦٤٠	٤٣٥	مرتب اطعام طعامية بتكيات مكة والمدينة عن ايراد وقف محمد على باشا . توزيعها :
			١١٨٤٠ر١٥٣ مرتب تكيات مكة المكرمة
			٤٨٠٠ر٢٨٢ مرتب تكيات المدينة المنورة
	١١ر٣٥٨	٥٠٧	مرسل اعانات للمتقاعدين المجاورين بمكة والمدينة وجدة من ديوان الرزنامة .
	١٧٢٨٠	٥٣	مصاريف دايرة المحمل والصرة الشريفة ذهابا وايابا .
	٨١٦٠	٥	بدل كسوة العلامة السيد محمد الكتبى .
	١٩٠٠٠	٦٠	عن بدل غلال مرتب أرباب وظايف بالمدينة
	٨٠٠	٢٥	تفى التزام أشراف مكة والمدينة
	٣٥٠٠	٢٧	مرتب يومية عربان الحجاز الذى كان جاريا صرفه بالمحروسة .
	٥١٠٠	٢٥٥	من غلال أجرة الجمال المستأجرة هذا العام.
		١٧٤	عن المستجد باسم حضرة شريف مكة .

هذا غير صرر آلا عثمان التى بلغت مبالغ طائلة ، وصرر الأوقاف السلطانية التى كانت تقل عن الصرر المصرية فى العام نفسه (١٢٧٣ هـ / ١٨٥٦ م) .

(المترجم) .

أو الحصوة أو الرملة (٨) ، يحيط بها رواق ذو صفوف أعمدة ، كصفوف الأعمدة فى أروقة الكنائس الايطالية • وأسقف الأروقة مستوية (مسحة) تعلوها قباب ، الواحدة منها على شكل نصف برتقالة ، وهى القباب المعروفة فى أسبانيا باسم Media Naranja ، وتنقسم المنطقة المسقوفة من المسجد الى أربعة أروقة يفصل بينها ممرات ضيقة منخفضة عن مستوى الأرضية بثلاث خطوات أو أربعة •

وعلى طول الجدار الشمالى القصير ، من الداخل يوجد الرواق المجيدى نسبة الى السلطان العثمانى الحالى • أما الجدار الغربى فعنده رواق بوابة الرحمة ، وفى الجدار الشرقى بوابة النساء Bab al-Nisa • أما الروضة وهى أكثر المواضع قداسة فى المسجد النبوى فيحتضنها الجدار الجنوبى القصير ، وهى - أى الروضة - أعمق من الأروقة الأخرى اذ فيها ثلاثة أضعاف ما فى أى رواق آخر من الأعمدة • والأروقة الأربعة مدعمة من الداخل بالأعمدة من مختلف الأشكال والمواد من الرخام السماقى الجميل الى الجص غير الجميل ، وهى مقنطرة (مقوسة) من الخارج ، أما الرواق الجنوبى - حيث يوجد قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) - فهو مبلط ببلاط جميل من (رخام) أبيض وأعمال مطعمة Marquetry work ، والرواق مغطى هنا وهناك بحصر خشنة وفوقها سجاجيد غير نظيفة بليت تماما بفعل أقدام المؤمنين •

لكن هذا ليس وقت التفاريج (٩) Tafarrug • فقد نبهنى الشيخ حامد برفق الى ما هو متوقع من الزائر • فقد قادنى الى باب السلام وشق طريقه بصعوبة وسط جحافل المتسولين وسألنى ان كنت طاهرا ومتوضئا ، ثم وضعنا أيدينا بحيث تغطى كف اليد اليمنى ظاهر اليد اليسرى ، وعقدنا اليدين الى الأسفل قليلا والى يسار الوسط waist كما لو كنا فى وضع

---

(٨) الاسم المعمارى الصحيح هو الصحن ، أما بقية الأسماء فشعبية ، فيسميه الناس الحصوة لانه مفروش بالحصى ، والرملة لانه مفروش بالرمل ، وعندما أديت فريضة الحج للمرة الاولى منذ تسعة عشر عاما تقريبا كان جانب كبير من المنطقة المحيطة بالكعبة المشرفة مغطاة بحصى صغير قالوا انه الحصى الذى يرجم الحجاج رمز الشيطان (الجمرات) يتم جمعه ويوضع حول الكعبة المشرفة ، لكننى لم أر هذه الحصوات بعد ذلك حول الكعبة منذ ١٩٨٣ تقريبا اذ تم تبليط ما حول الكعبة المشرفة تبليطا جيدا • وباختفاء الحصى والرمال من صحن المسجد (أى مسجد) لم يعد احد يسمى الصحن (رملة) او (حصوة) - (المترجم) •

(٩) Tafarrug لفظ عامى عربى معناه استطلاع معالم المكان او (الفرجة) عليه - (المترجم) •

الصلاة (١٠) ، وبدأنا الدخول بالقدم اليمنى وخطونا ببطء للأمام لنصبح أمام خط يسمونه المواجهة الشريفة (١١) the Muwajihat al-Sharifah وخط المواجهة الشريفة هذا مقسم على نحو ما يقسم الممشى aisle ، وهو مواز للجدار الجنوبى للمسجد النبوى . وكان الشيخ حامد يمشى عن يمينى ، وكان يردد الدعوات التى سأوردها فيما يلى بصوت عال وأنا أردد ما يقول . وقد ترجمت هذه الدعوات حرفيا فجميعها صيغ لا يحيدون عنها وسيعذرنى القارىء لهذه الأمانة فى الترجمة التى أودت بفصاحة النص الانجليزى :

In the name of Allah — باسم الله

and in the faith of Allah's Apostle — وبحق دين رسول الله

O lord — يا الهى

وأدخلنى مدخل صدق
Cause me to enter the Entaring of Truth

وأخرجنى مخرج صدق
and Cause me to issue the Issuing of Truth

واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا (١٢)
and make me a Sultan victorious

and permit me to draw near to Thee — وأذن لى بقربك

وأتبع ذلك بالصلاة على النبى وتبع ذلك بقوله :
O Allah ! — يا الله

---

(١٠) لا يفضل السلفيون والمثقفون اتخاذ هذا الوضع أمام قبر الرسول عليه الصلاة والسلام . يقول أحد السلفيين : « ما يفعله بعض الزوار من وضع يمينه على شماله فوق صدره أو تحته كهيئة المصلى ـ أمر لا يجوز عند السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم ولا عند السلام على غيره من الملوك .. لأنها هيئة عبادة لا تصلح الا لله وحده ... » ابن باز : التحقيق والايضاح لكثير من مسائل الحج ... الرياض ، ١٤٠٩ هـ ـ (المترجم) .

(١١) ترجمها بيرتون هكذا : Illustrous fronting ، وما ذكرناه فى المتن هو المصطلح المعروف : المواجهة الشريفة وليس المواجهة الشهيرة ـ (المترجم) .

(١٢) واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا وقد ترجم بيرتون هنا كلمة السلطان بمعنى المساعد او القوة ، وكأن المقصود هنا بالسلطان الحاكم العثمانى او غيره وليس هذا هو المقصود بالدعاء او ليس هذا ـ على الاقل ـ هو معناه المفهوم ـ (المترجم) .

افتح لى أبواب رحمتك Open to me the Doors of Thy Mercy

وهبنى الدخول فى رحمتك and grant me Enterance into it,

واحمنى من الشيطان الرجيم

and protect me from the Stoned Devil.

وأثناء هذه الدعوات المبدئية كنا قد قطعنا ثلثى المواجهة الشريفة والى يسارى كان يوجد حائط منخفض ارتفاعه كقامة الانسان تقريبا وكان مزخرفا بزخارف عربية به أربعة أبواب صغيرة يمكن العبور منها الى داخل خط المواجهة الشريفة . وفى هذا الحاجز توجد عدة وحدات صغيرة : المحراب ويسمى المحراب السليمانى (١٣) والمنبر والمحراب النبوى (١٤) .

وكلا المحرابين من الفسيفساء الجميلة ، ومزخرفان بسخاء بالرخام المختلفة ألوانه ، أما المنبر فهو مجموعة رشيقة من الأعمدة عليها زخارف شجرية أنيقة وكتابات محفورة بشكل رائع ، ولما وصلنا الى الباب الغربى الصغير فى الجدار المنخفض آنف الذكر دخلنا البقعة الشهيرة المعروفة باسم الروضة بسبب قول النبى (صلى الله عليه وسلم) : « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » (١٥) . والجانب الشمالى والغربى ليسا معزولين عن بقية الرواق ، والى الجنوب يوجد الجدار المنخفض ، أما الى الشرق

---

(١٣) يسميه الغرباء (مصلى الشافعى) أى المكان المخصص لصلاة أتباع المذهب الشافعى . وقد أرسل السلطان سليمان القانونى (الفاخر) هذا المحراب من اسطنبول منذ مائة عام تقريبا . وهذا السلطان أيضا هو الذى أمر ببناء المئذنة السليمانية — (موجز تعليق بيرتون) .

(١٤) من المفترض أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يفضل هذا المكان لأداء صلواته ، أما الآن فقد شغله المصلون الأحناف ويسمى — لذلك — المصلى الحنفى .
(موجز تعليق بيرتون) .

(١٥) النص المشهور : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » (المترجم) .
ولكن بيرتون يذكر لنا فى تعليقه اختلاف الناس فى هذا المعنى : اختلف المسلمون فى المواضع التى يشير لها الحديث ولا أدرى لماذا لا يفعل المسلمون جميعا كما يفعل السلفيون (الوهابيون) فيتجاوزون عن ذلك كله ، فبعض المسلمين يفهم المعنى على أنه ما بين منزلى (فى المسجد) ومكان صلاتى فى بر المناخة روضة من رياض الجنة ، وآخرون يفهمون المقصود على أنه ما بين البيت والمنبر ، وآخرون يفهمون « ما بين قبرى ومنبرى » ويشير آخرون الى حوض مياه يسمى حوض الكوثر . ويسمع المسلمون المعاصرون أن الروضة مكان يجب توقيره كجوف الكعبة تماما .
(موجز تعليق بيرتون) .

فمحددة بالنهاية الغربية للمشربية التى تضم قبر الرسول (الأخشاب المزخرفة والمثقبة التى تتخذ شكل أخشاب المشربية والمحيطة بقبر الرسول صلى الله عليه وسلم Lattice work) .

وقد دخلت الروضـــة بصحبة مزورى فأجلســنى أمـــام المكبريه Mukabbariyah (١٦) ووجهى صـــوب مكة (المكرمة) ، وكتفى اليمنى قبالة العمود الأيمن للمنبر النبوى ، وعلى بعد حوالى عشرين قدما منه . وبعد أن أدينا صلاة العصر ، أديت الركعتين المعتادتين تحية للمسجد (*) ، وبعد اتمامهما رتلت مائة وتسعا ومائة واثنتى مرة سورتين من القرآن (الكريم) : «قل يا أيها الكافرون» وسورة (الاخلاص) وفيما يلى ترجمتها :

« قل هو الله أحد	Say, He is the one God
الله الصمد .	The eternal God
لم يلد ولم يولد	He begets not, nor is the begot
ولم يكن له كفوا أحد » .	and unto him the like is not

وبعد ذلك سجدت سجدة شكر لله (سبحانه) أن جعل من نصيبى زيارة هذه البقعة الطاهرة .

وبعد سجدة الشكر ، يحل الوقت المناسب لأداء الصدقات ، فقد حاصرنى الشحاذون الذين بسطوا مناديلهم على الأرض أمامنا ، وقد نثروا عليهــا قليلا من القطع النقــدية النحاسية الصغيرة لاثارة نوازع الكرم والسخاء لدى . ولأننى كنت حريصا على ألا يشغلونى فقد كنت قد أعددت للأمر عدته ، فقبــل مغــادرتى منزل الشيخ حامد كنت قد صرفت مبــلغ دولارين الى قطع نقــدية صغيرة ، وأعطيتها للولد محمد الذى صحبنى ، وكلفتــه أن يوزع هذا المبــلغ – بعد أدائى سجدة الشــكر – (١٧) فى المسجد .

---

(١٦) دكة حجرية مقامة على اربعة أعمدة يقوم عليها المبلغ للمناداة بالاقامة (اقامة الصلاة) وقد أهداها للمسجد قايد بك سلطان مصر المملوكى – (بيرتون) .

(*) تحية المسجد الحرام بمكة المكرمة هى الطواف . واعتاد المسلمون التسليم على رسول الله وصاحبيه فى المسجد النبوى قبل اداء الصلاة اذا لم تكن صلاة الجماعة قائمة بالفعل وما يذكره بيرتون هنا تقليد للعادات المتبعة وليس بالضرورة صحيحا كما اشرنا فى المقدمة (المترجم) .

(١٧) المقصود : ركعتا تحية المسجد – (المترجم) .

لذا فقد أجبت على طلب المتسولين بأن أحلتهم الى تابعى (الولد محمد) وتعللت بتصرف بسيط وهى أنى أخرجت جيوبى الداخلية للخارج (قلبت جيوبى للخارج) ، وبينما كان الولد محمد يدافع الشحاذين انسللت لألقى نظرة خاطفة على الروضة ٠

والروضة هى أكثر أجزاء المسجد احكاما ، ولا يمكن أن نقول الا قليلا فى تمجيدها نهارا فهى لا تزيد فى جمالها عن كنيسة من الطبقة الثانية فى روما ، أو فى مستوى مصلى كنيسة انجليزية تابعة لكنيسة وستمنستر Westminster Abbey ٠ فالروضة مساحة تبلغ ثمانين قدما طولا ، ومزركشة بطريقة بدائية لتبدو كحديقة (كروضة) وهى مفروشة بسجاجيد مزهرة (عليها رسوم زهور) وقواعد أعمدتها مزينة بآجر أخضر فاتح ، أما الأعمدة ذاتها فمزينة بزخارف عربية نباتية غير طبيعية وتتسم بعدم سمو الذوق ، ويبلغ ارتفاع هذه الزخارف على الأعمدة ارتفاع قامة الانسان ٠ وقد وضع فى الروضة بشكل سقيم شمعدان ضخم ذو شعب ، مصنوع من زجاج صخرى نقى (كريستال) ، أعتقد أنه صنع فى بيت لندن London House وجلبه للضريح النبوى الباشا المصرى الراحل عباس باشا ٠

أما الملمح الوحيد الذى يثير الاعجاب ليلا فهو الأنوار المنبعثة من الزجاج الملون فى الجدار الجنوبى الذى يوجد عنده سور القبر (١٨) ، والأشغال المشبكة (المزينة بالتخريم) Filigree من النحاس الأصفر اللامع والنحاس المطلى باللون الأخضر ، والأشغال الذهبية أو المطلية بالذهب ـ تبدو أكثر جمالا عن قريب ، منها من البعد اذ تعطى انطباعا على البعد بأنها قفص ضخم لطائر عملاق ٠ أما فى الليل فالعين تنبهر من جراء أضواء المصابيح الزيتية (١٩) المدلاة من السقف وأضواء الشموع الضخام وبالأنوار الصغيرة الساقطة فوق جموع الزائرين وهم فى أبهى حللهم ، وفوق تجمع أثرى أهل المدينة ، وأكثرهم عراقة محتد ٠ كل هذا يعوضنا عن منظر المسجد وهيئته نهارا ٠ وطالما أن المسلم ، بل وحتى المشرب بعمق بروح الشرق ، سينظر لهذا المنظر بعاطفة وتحيز ، فانه سيبدو أمامه كفردوس ، وقد قصد المعمارى أن يبديه بالفعل كفردوس ٠

ومع حامد اتخذت وضع الصلاة مرة أخرى بوقار وتراجعت بخطواتى الى الوراء ٠ وبعد أن عبرنا من خلال الباب الثانى الصغير فى الجدار المنخفض الذى يواجه المواجهة الشريفة The Muwajihah لم نستدر

---

(١٨) احدى هذه الشبابيك للمسجد السلطانى المملوكى قايد بك (بيرتون) ٠

(١٩) مهداة من السلطان انف الذكر ـ (المترجم) ٠

لليمين حيث باب السلام ، وانما اتجهنا فى الناحية المعاكسة نحو الجدار الشرقى للمسجد · وفى هذه الأثناء كنا نردد :

« ان الله وملائكته	Verily Allah and His Angles
يصلون على النبى	bless the Apostle !
يا ايها الذين آمنوا	O ye who believe
صلوا عليه	bless him and
وسلموا تسليما » ·	Salute Him with Honour

وفى نهاية هذه الدعوات وصلنا للضريح الذى يتطلب بعض الوصف حتى يفهم القارىء طبيعة ما قمنا به عنده ·

الضريح أو الحجرة (٢٠) كما يسمونها كانت فى الأساس غـرفة (السيدة عائشة) (رضى الله عنها) ، وهو عبارة عن مساحة مربعة غير منتظمة الأضلاع من خمسين الى خمسة وخمسين قدما فى الجنوب الشرقى للمسجد ويفصلها عنه (أى عن المسجد) من مختلف الجهات ممر يبلغ عرضه ستا وعشرين قدما فى الجانب الجنوبى وعشرين قدما فى الجانب الشرقى · وسبب هذا العزل كما سبق أن أوضحت ما ورد عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) :

« اللهم لا تجعل قبرى	O Allah, Cause not my Tomb to
وثنا يعبد ·	become an object of Idolatrous A duration
لعن الله قوما	May Allah's wrath fall heavy upon the people
اتخذوا قبور أنبيائهم	Who make the Tombs of their prophets
مساجد » (٢١) ·	Places of prayer

وفى داخل الضريح ثلاثة قبور أو هذا هو المفترض ، تواجه الجنوب محاطة بجدران حجرية دون أية فتحات أو منافذ ، وقيل ان جدرانها من الأخشاب المتينة · ومهما كانت هذه المادة خشبا أم حجرا فانها مستورة من الخـارج بسـتارة تشبه على نحو ما سـتارة السرير الكبير المرتفع ذى

---

(٢٠) لازال هذا المصطلح مستخدما حتى اليوم : الحجرة أو الحجرة الشريفة — (المترجم)

(٢١) ومن الأحاديث المشهورة فى ذلك ما يردده السلفيون كثيرا : « رأى على ابن الحسين (زين العابدين) رجلا يدعو عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فنهاه عن ذلك وقال سمعت من أبى عن جدى رسول الله انه قال : « لا تتخذوا قبرى عيدا ولا بيوتكم قبورا وصلوا على فان تسليمكم يبلغنى اينما كنتم » — (المترجم) ·

أربعة القوائم . ويفصل السور المعدنى الخارجى عن داخل الحجرة ممر ضيق مظلم وهو - أى السور المعدنى - من الحديد المشبك ويحيط احاطة كاملة بالقبر ومزخرف بعشب أخضر فيه حيوية مما يعطى الرائى منظر روضة . وهنا يتداخل فى الخضرة - بدقة شديدة وبلون فاتح ليبرز بالتناقض مع اللون الأخضر - كتابات بالخط النسخ مشغولة بالنحاس أو المعادن المذهبة تشير إلى عقيدة التوحيد عند المسلمين (لا إله الا الله) وغيرها من العبارات الدينية .

وفى الجانب الجنوبى غطى السور المعدنى المشبك بالفضة تشريفا للمكان واحتراما . وتتشابك الحروف الفضية معه . وهذا السياج الذى يصل ما بين الأعمدة ويمنع مرور أى انسان - يمكن مقارنتـه بالمظلات المعدنية فى الكنائس الرومانية baldaccino .

وفى السياج الحديدى المشبك أربع بوابات ، فالتى الى الجنوب هى بوابة المواجهة والى الشرق بوابة فاطمة (الزهراء) والى الغرب بوابة التوبة التى تفتح فى الروضة (الشريفة) والى الشمال بوابة الشامى . وهـذه البوابات دائما مغلقة ما عدا بوابة الشامى التى يسمح - من خلال الممر الضيق المظلم آنف الذكر - للعاملين فى المسجد بالدخول لمراقبة التحف والنفائس المودعة ، كما يسـمح للأغوات (الطواشية) بالدخول لكنس الأرضية واضاءة المصـابيح ، وحمل الهـدايا التى يلقيها أحيـانا بعض الزائرين (٢٢) .

وفى الجانب الجنوبى من السياج توجد نوافذ ثلاث كل نافذة منها يبلغ اتساعها نصف قدم مربع ، وترتفع عن سطح الأرض من أربعة أقدام الى خمسة ، ويقال إن هذه النوافذ (الطاقات) تبعد عن رأس النبى (صلى الله عليه وسلم) من ثلاثة أذرع الى أربعة . ويفترض الناس هنا أن أكثر هذه الطاقات اتجاها نحو الغرب تواجه قبر محمد (صلى الله عليه وسلم) لذا فهم يسمونها شباك النبى والطاقة (الشباك) التالية في اتجاه يدك اليمنى وأنت مواجه للقبر تطل على قبر أبى بكر (رضي الله عنه) أما الطـاقة التى الى أقصى الشرق من الطاقات الثـلاث ، فتواجـه قبر عمر (رضى الله عنه) .

---

(٢٢) يجلس حراس (الحجرة) او القبر الشريف ويتسامرون على دكة الأغوات وتقع هذه الدكة الى الشمال من الحجرة ، ويفصل بين المتبقى من هذا الجانب وسائر المسجد جدار منخفض حيث يجلس الفقهاء لقراءة (الختمة) اى يختمون القرآن الكريم ويهبون قراءتهم (ختمتهم للقـرآن الكريم) للسـلطان الحـاكم .
(موجز تعليق بيرتون) .

وفوق الحجرة قبة خضراء عليها هلال مذهب ضخم يرتكز على سلسلة من الكرات • ان الخيال المتوهج للمسلمين جعلهم يتصورون أن هذا الجزء من المبنى (جوهرة المبنى) يخرج منه ضوء ربانى يهدى خطوات الحجاج على بعد مسيرة ثلاثة أيام الى المدينة المنورة) • لكن وأسفاه ، لا أحد ينقد ، رجالا طيبين ، قد يساعدهم تكوينهم الجسمانى واشتياقهم الروحى (وجدهم الدينى) على التمتع بمزايا رؤية هذا السناء الشعرى (٢٣) ولما وصلنا لشباك النبى وقف حامد على بعد ستة أقدام أو نحوها من السور وواجه (الحضرة) ورفع يده كهيئة الصلاة وراح يردد الدعوات والتسبيحات التى سأوردها فيما يلى بصوت خفيض ، وقال لى همسا أن أرددها خلفه بخشية من الله (سبحانه) ورهبة منه (جل جلاله) وحب له (سبحانه) •

السلام عليك يا رسول الله

Peace be upon Thee O Apostle of Allah

ورحمة الله وبركاته

and the Mercy of Allah and His Blessings !

السلام عليك	Peace be upon Thee
يارسول الله	O Apostle of Allah
السلام عليك	peace be upon Thee
يا حبيب الله	O Friend of Allah
السلام عليك	peace be upon Thee
يا أفضل خلق الله	O best of Allah's Creation
السلام عليك	peace be upon Thee
يا أطهر خلق الله	O pure creature of Allah
السلام عليك	
يا امام الأنبياء	
السلام عليك	

(٢٣) تعبير مهذب من بيرتون لا نجده عند رحالة آخرين سبقوه ، ففارتيما الرحالة الايطالى الاصل ، الذى كان يعمل لحساب البرتغال زار المدينة المنورة ومكة المكرمة فى مطلع القرن السادس عشر وأفاض فى سخريته عندما سمع ذلك وادعى أن العرب يوقدون نارا خلف القبة لتبعث نورا في الظلام فيدلسون على الحجاج • (انظر رحلة فارتيما او الحاج يونس المصرى فى سلسلة الالف كتاب الثانى •• ترجمة د• عبد الرحمن عبد الله الشيخ • الهيئة المصرية العامة للكتاب) ـ (المترجم) •

O Seal of the Prophets — يا خاتم الأنبياء
Peace be upon you — السلام عليك
O prince of the Piou's — يا أمير الأتقياء
Peace be upon Thee — السلام عليك

يا رسول اله العالمين (٢٤)
O Apostle of the Lord of the (three) worlds

Peace be upon Thee — السلام عليك
and upon Thy Family — وعلى آلك
and upon Thy pure Wives — وزوجاتك الأطهار
Peace be upon Thee — السلام عليك
and upon all Thy Companions — وعلى صحابتك أجمعين
Peace be upon Thee — السلام عليك
and upon all the Prophets — وعلى كل الأنبياء
and upon those sent to preech Allah's World — والرسل
Peace be upon Thee — السلام عليك

أشهد ألا اله الا الله
I bear witness that there is no god but Allah

and I testify that Thou art His Servant — وأشهد أنك عبده
and His Apostle — ورسوله
and His faithful follower — وصفيه
and Best Creature — وأفضل خلقه

واشهد أنك يارسول الله
And I bear witness O Apostle of Allah

that thou hast delivered thy Message — قد أبلغت الرسالة
and discharged Thy Trust — وأديت الأمانة
and advised Thy faith — ونصحت
and opened Grief
and published Proof — وأظهرت البرهان

---

(٢٤) دعاء طويل مكرر ومعاد .. وقد حذفنا جانبا منه تجنبا للاطالة ـ (المترجم) .

and fought valiantly Thy Lord وجاهدت فى سبيل الله

وعبدت الله حتى اتاك اليقين

and Worshipped Thy God till certainty came to Thee

and we Thy friends ونحن احبابك

O Apostle of Allah ! يا رسول الله

apear before Thee قد حضرنا اليك

Travellers from distant lands, قادمين من أرض بعيدة

and far countries, ومن بلاد بعيدة

through Dangers & difficulties متجشمين عناء الأخطار والصعاب

in the times of Darkness & in the Hours of Day ليلا ونهارا

Longing to give Thee the Rights لأداء حقك علينا

and to obtain the Blessings of Thine Intercession

فخطايانا ناءت ظهورنا بحملها

for our sins have broken our backs

and Thou intercedest with the Healer.

And Allah Said وقد قال الله سبحانه وتعالى :

« ومن يعمل سوءاً ويظلم نفسه

and though they have injured themselves

ثم يستغفر الله

they came to Thee & begged Thee to Secure Pardon

found God يجد الله

غفورا رحيما » (٢٥) ٠

« An Accepor of Pencitence & full of Compassion »

O Apostle of Allah, Intercession ! الشفاعة يا رسول الله

Intercession ! الشفاعة

Intercession ! الشفاعة

O Allah, bless Mohammed اللهم صل على محمد

and Mohammad's Family وعلى آل سيدنا محمد

وآته الدرجة الرفيعة

and give Hime Superiority & high Rank

---

(٢٥) سورة النساء ، آية رقم ١١٠ ـ (المترجم) ٠

even as Thou didst promise Him	التى وعدته
and graciously allow us	وتكرم علينا
to Conclude this Visitation	باتمام هذه الزيارة
I deposit on this Spot,	اننى أسجل فى هذه البقعة
and near Thee,	بالقرب منك
O Apostle of God,	يا رسول الله
my everlasting prefession	عقيدتى الأبدية
from this our Day	من يومنا هذا
to the day of judgement	الى يوم يبعثون
that there is no God but Allah	هى : لا اله الا الله
and that our lord Mohammad	وأن محمدا
is His Servant & His Apostle	عبد الله ورسوله
Amen !	آمين
O Lord of the (three) Worlds. !	يا اله العالمين ·

وبعد أدائنا للزيارة قرأنا الفاتحة ، وهذه كلماتها :

بسم الله الرحمن الرحيم · الحمد لله رب العالمين

Praise be to Allah (٢٦) who the (three) worlds made

الى قوله « ولا الضالين » (٢٧) ·

وبعد قراءة الفاتحة فى قلوبنا سرا ونحن رافعون أيدينا للسماء بحيث يكون اصبع السبابة لليد اليمنى ممتدا لآخر مداه ، ثم سحبنا أكفنا الى وجوهنا ثم وزعنا الصدقات وهى جزء حيوى من هذه الشعيرة · وهكذا انتهى الجزء الأول من شعيرة ceremony زيارة قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) (٢٨) ·

---

(٢٦) لا ندرى من الذى لقن بيرتون حكاية العوالم الثلاثة هذه : ربما كان المقصود رب الرجال والنساء والجان أو رب الانس والجن والملائكة لكن النص القرآنى على اية حال هو (العالمين) دون تحديد لعدد العوالم ـ (المترجم) ·

(٢٧) اضاف بيرتون لسورة الفاتحة اية من عنده بحسن نيه على ما نظن وهى : امين يارب الملائكة والجن والناس ·"Amen ! O Lord of Angels, Jinni·, man".

واثرنا عدم اثبات ذلك فى المتن وربما لم تكن اضافة وانما عبارة تقال بعد اتمام قراءة الفاتحة ـ (المترجم) ·

(٢٨) زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم نوع من الادب واظهارا للوجد والحب لكنها ليست من فرائض الحج ـ (المترجم) ·

ثم خطا حامد حوالى خطوة ونصف الخطوة الى جهة اليمين ، فحذوت حذوه لأكون فى مواجهة الشباك (الطاقة) الثانى بالضبط المسمى بشباك أبى بكر وأدينا التحية للضريح وخاطبنا ساكنه كالتالى :

Peace be upon Thee,	السلام عليك
O Abu Bakr,	يا أبا بكر
O Thou Truthful one !	أيها الصديق
Peace be upon Thee,	السلام عليك
O Caliph of Allah's Apostle over his people	يا خليفة رسول الله لعباده
Peace be upon Thee,	السلام عليك
O Companion of the Cave	يا صاحب الغـار
and a Friend in Travel !	ورفيق الهجرة
Peace be upon Thee,	السلام عليك
O Thou Banner of the Fugitives	يا لواء المهاجرين
and Auxiliaries !	والأنصـــــار
I testify Thou didst ever stand firm	أشهد بثباتك
in the right way	فى الطريق القويم
and wast a smiter of the Infidal,	وجهادك ضد الكافرين
and a Benefactor to Thine own people	وبرك بالمسلمين
Allah grant Thee through His Apostle Weal !	وقد أكرمك الله ببركة النبى
We pray Almighty God to Cause us	ندعو الله القدير أن نموت
to die in Thy Friendship,	على محبتك
and to raise us up in Company	وان نحشر
with His Apostle & Theyself,	مع رسول الله ومعك
even as He hath mercifully	انه (الله) كان برا رحيما
Vouchsafed to us this visitation	أن يسر لنا هذه الزيارة

وبعد ذلك اقتربنا خطوة أخرى فى اتجاه اليمين وواجهنا شباك قبر عمر (رضى الله عنه) وهو أكثر الشبابيك اتجاها نحو الشرق ، وأشرنا بيدنا (اشارة تحية) ووجهنا حديثنا للخليفة قائلين :

Peace be upon Thee, Omar	السلام عليك يا عمر
O Thou just one !	فانت عادل
Thou prince of True Believers	وأنت أمير المؤمنين
Peace be upon Thee	السلام عليك
Who speakest with Truth,	يا قائل الصدق
and who mades Thy world agree	فقد هديت العالم
with the Strong Book !	الى كتاب الله المتين
O Thou Farouk !	يا أيها الفاروق
O Thou faithful one !	أيها الأمين المؤمن
	وأول المؤمنين
and with them didst make up	اذ كنت أول من أكمل عددهم
the full Number forty	أربعين
and thus causedst to be accomplished	فكنت متمما
the Apostle's prayer,	لصفوف المصلين (لصلاة النبى)
and then didst return to Thy God	ولاقيت ربك
a Martyr leaving the world with praise !	شهيدا ، يغبطك الناس
Allah grant thee,	لقد وهبك الله
through his Apostle &	من خلال نبيه
his Caliph & his followers,	وخلافة نبيه والمؤمنين
the best of Good, and	أفضل البركات
may Allah feel in The Plenary satisfaction !	رضى الله عنك كثيرا

وبعد أن أزاح الشيخ حامد متسولا أو متسولين بعيدا عن كتفى سمح لى بالاقتراب من شباك صغير يسمى شباك النبى وأتاح لى النظر من خلاله فرحت أتمعن بعينين متشككتين • وفى بعض الأحيان كان الفرس (٢٩) يلوثون المواضع القريبة من قبرى أبى بكر وعمر (رضى الله عنهما) بأن يلقوا من خلال الشباكين بشيلان كبيرة كهدية للقبرين •

---

(٢٩) يقصد الشيعة ـ (المترجم) •

وبعد أن أجهدت عينى فى التطلع عبر (الشباك) رأيت ستارة عليها كتابات بأحرف ذهبية طويلة تشير الى أن خلف الستارة يوجد قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وخليفتيه (أبو بكر وعمر رضى الله عنهما) . ويمكن الاستدلال على قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالكوكب الدرى الشهير kaukab al-Durri وهو مجموعة متالقة من اللآلىء معلقة وتتدلى حتى صدر الانسان . وتوصف بأنها نجم لامع مطعم بالماس واللؤلؤ ، وهى معلقة فى موضع مظلم وقد تتمكن عين الانسان من ادراك مدى فخامتها وسنائها . ويعتقد العامة أنها « سيدة جواهر الفردوس maitress of the jewels of paradise » ، أما بالنسبة لى فهى تشبه الى حد كبير السدادات الزجاجية المستديرة التى تستخدم لسد المصافيق (جمع مصفق) من الأنواع المتواضعة ، وان كنت أظن أنها نفس نوع koh-i-Nur وأكثر من هذا فاننى لم أرها عن قرب كاف لأحكم على مدى أصالتها ولم أر من الملائم دفع مبلغ كبير للتمتع بامتياز الولوج الى الممر الداخلى بالقراب من القبر .

والنظرة السريعة نهارا لا تعطى ما هو جدير بالتسجيل ، أما فى الليل عندما تلقى المصابيح المعلقة فى هذا الممر بضوئها الباهت على أعمال الفسيفساء للأرضيات الرخامية وعلى الكتابات المتألقة والمعلقات الضخمة ، فان المنظر يبدو أكثر ايحاء ، وتأثيرا .

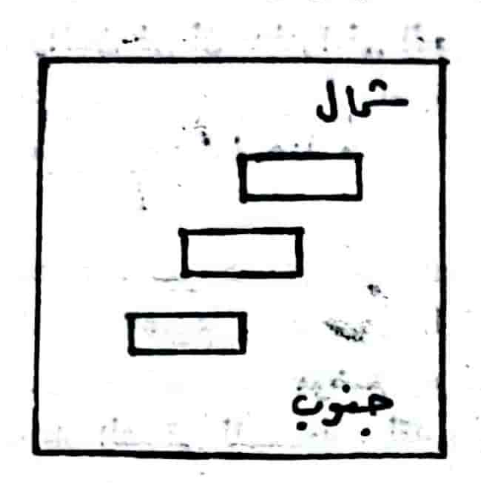
ولأننى لم أر قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) مطلقا ، فلابد أن أن أصفه لكم بالرجوع للكتب فمعظم المؤرخين لم يكتبوا عن شىء بعد وصفهم للجدران الداخلية للحجرة .

فالقلقشندى يتفق مع أصدقائى الفرس الذين يذكرون أن القبر له شاهد رخامى . أما ابن جبير الذى رحل سنة ٥٨٠ هـ فيذكر أن تابوت النبى هو صندوق من الأبنوس ebony مغطى بخشب الصندل ومسطح بالفضة ، ويقول ابن جبير انه موضوع خلف الستارة ومحاط بحاجز حديدى مشبك gratiny . أما السمهودى فيذكر (ننقل قول السمهودى عن بوركهارت) أن الستارة تغطى مبنى مربعا من الأحجار السود داخله قبر محمد (صلى الله عليه وسلم) وصاحبيه وأضاف قائلا ان القبور عبارة عن حفر عميقة ، وأن التابوت الذى يضم جسد الرسول (صلى الله عليه وسلم) موضوع فى صندوق من فضة وفوقه لوح رخام نقش عليه : « بسم الله اللهم صل عليه » .

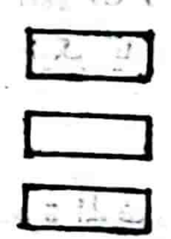
ويجب أن نتذكر أن جسد الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوجد ممددا ، أو يفترض وجوده على طوله على جنبه الأيمن وكفه اليمنى تسند وجنته اليمنى ووجهه صوب مكة ، كما يدفن المسلمون دائما موتاهم .

وعلى هذا فالجسد مع الرأس يقع غالبا صوب الغرب والقدمان صوب الشرق ٠ وبالقرب منه أبو بكر حيث يواجه بوجهه كتف الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأخيرا عمر يتخذ الموضع نفسه وذلك بالنسبة لأبى بكر ٠

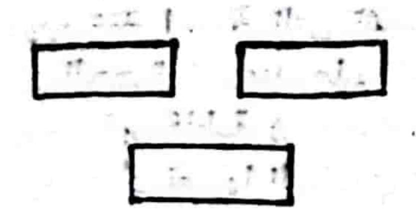
ومواضع القبور كما يفترض دائما كالتالى :



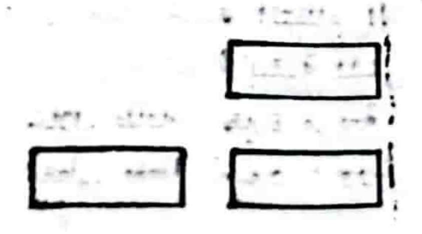
ولكن المؤرخين المسلمين لا يتفقون حتى فى أمر بسيط كهذا فكثيرون منهم يفضلون صف القبور الثلاثة فى صف هكذا :



وبعضهم يجعلها على هيئة وحيد القرن هكذا :



وبعضهم يجعلها على هيئة زاوية يمنى هكذا (١) :



ومن التأكيدات الشائعة أن فى الحجرة موضعا لقبر خال محتجز لعيسى بن مريم (عليه السلام) ليدفن فيه بعد عودته الثانية .

ويفيض المؤرخون المسلمون بحكايات تبرهن على أنه رغم أن كثيرين من الصالحين الأوائل ، كالخليفة عثمان (رضى الله عنه) والامام الحسن (رضى الله عنه) كانوا راغبين فى أن يدفنوا فى الحجرة ، ورغم أن عائشة (رضى الله عنها) التى تمتلك الحجرة لم تعارض رغباتهم ، الا أن ابن الانسان غير قادر على شغل مكان هنا .

وبعد قراءة الفاتحة عند قبر عمر (رضى الله عنه) والنظر نظرة عابرة على الحجرة ، قادنى الشيخ حامد حول الركن الجنوبى الشرقى للضريح واستدار للشمال وتوقفنا عند موضع يعرف بمهبط جبريل . انه نافذة صغيرة فى الجدار الشرقى للمسجد ، لقد وليناه ظهورنا وواجهنا الحجرة ، وتلونا هذه الدعوات :

« السلام عليكم يا ملائكة الله المقربين المشرفين الأنقياء والأطهار الذين شرفهم الله باجلال أهل السماء وقاضى الأرض . يا الهنا الرحيم ياذا الاجلال والاكرام .. يا شفوق يا رحيم أتمم لنا نورنا واغفر خطايانا واقبل توبتنا وأمتنا مع الأبرار . السلام عليكم يا ملائكة الرحمة فرادى وجماعة ، ورحمة الله وبركاته » .

وبعد ذلك أرونى فى الحجرة الموضع الذى سيدفن فيه سيدنا عيسى ابن مريم (عليه السلام) الى جوار محمد (صلى الله عليه وسلم) .

ثم عدنا تجاه الغرب عند النقطة التى تشكل نتوءا فى الحجرة (التى يختل فيها تناسق الحجرة) وعند هذه النقطة نكون قد وصلنا للمحطة السادسة حيث يوجد قبر فاطمة (الزهراء) أو نصبها التذكارى Cenataph . ويقع قبرها (أو نصبها التذكارى) خارج السور المعدنى الذى يحيط بالقبور الثلاثة مع بقاء الستارة التى تحيط قبر أبيها بما يتناسب مع ذوق المسلمين ، ويدعم فكرة عذريتها and so exalted its openion of the « virgin », delicacy ، والجانب الشرقى للحجرة يتجه هنا قليلا نحو الغرب مما يفسد انتظام الشكل الرباعى ، وذلك لتاخذ الحجرة شكلا يجعلها غير مرتبطة ببقية المبنى (المسجد) . ويبدو القبر عند النظر اليه من خلال طاقة صغيرة مربعة ، كالقبور الأخرى آنفة الذكر ، فهو نعش طويل مغطى بغطاء أسود . ورغم وجود شك كبير فيما

اذا كانت فاطمة الزهراء قد دفنت مع أخيها الحسن فى مقبرة البقيع الا أن المسلمين دائما يزورون قبرها هنا ويدعون فى مواجهته بهذه الدعوات :

« السلام عليك يا ابنة نبى الله ! السلام عليك يا ابنة رسول الله ! السلام عليك يا ابنة المصطفى ! السلام عليك يا أم الشرفاء !

السلام عليك يا سيدة النساء ! O lady amongst women

السلام عليك أيتها الزهراء البتول O Zahra and Batul

السلام عليك ، يا ابنة الرسول · السلام عليك ، يا زوجة سيدنا على المرتضى ! السلام عليك يا أم الحسن والحسين القمرين والنورين واللؤلؤتين وسيدى شباب أهل الجنة وقرة عيون المؤمنين حقا · السلام عليك ، وعلى أبيك المصطفى ، وعلى زوجك سيدنا على كرم الله وجهه ، ووجهك ووجه أبيك فى الجنة ، وبارك فى ولديك الحسنين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » ·

ثم انفلتنا بأسرع ما يمكن من جماعات المتسولات اللائى لم يكن يغادرن ظل الجناح الذى دفنت فيه (أو المفترض أنها مدفونة فيه) فاطمة الزهراء ، وكأنهن يقمن بدور الملائكة الحارسة Lares & Penates . ولما تقدمنا خطوات قليلات واجهنا الناحية الشمالية ، وتلونا دعوات لسيدنا حمزة وغيره من الشهداء المدفونين عند سفح جبل أحد · لقد استدرنا عندئذ نحو اليمين وواجهنا الجدار الشرقى ورحنا نترحم على أرواح المدفونين فى مقبرة البقيع ·

ثم عدنا للجدار الشمالى للمسجد النبوى وواجهنا الكعبة (٣٠) (المشرفة) ورحنا نتضرع الى الله (سبحانه) بهذه التضرعات :

يا الله (ثلاثا)

يا رحمن ، يا رحيم

يا مجازى يا معافى

يا ملك ، يا حاكم ، يا ذا النفع القديم (الأزلى) ،

---

(٣٠) فى النص واجهنا مكة وما أوردناه فى المتن هو المقصود – (المترجم) ·

يا عالما بكل شيء

يا معطى من سالك

يا مجيب دعوة الداعى اذا دعاك

اقبل زيارتى هذه

واحفظنا من كل شر

ويسر امورنا

ووسع صدورنا

واقبل سجودى

وجازنا بأعمالنا الطيبة

ونعوذ بك من عمل السوء

ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا

واكتب لنا الأمان والصحة ، وارحمنا وارحم عبيدك الحجاج والمجاهدين فى سبيلك ٠

واستر المقيمين وعابرى السبيل من المسلمين فى البر والبحر

واغفر لأتباع سيدنا محمد أجمعين » ٠

ومن الحائط الجنوبى ، عدنا مرة أخرى لشباك النبى حيث دعونا بهذه الدعوات :

يا مصطفى ، اننى حقا اقف ببابك

انسانا ضعيفا خائفا من خطاياه

فان لم تساعدنى يا رسول الله

لمت فمن لى سواك !

ان الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ٠

يا الله انى حقا وصدقا ألتمس عفوك ، والتمس عونك فى الدنيا والآخرة ٠

يا الله ! يا الله ! لا تدعنا نغادر هذا المكان الا وقد غفرت خطايانا وأزلت أحزاننا ، وفرجت كروبنا ٠

والصلاة والسلام عليك يا امير الأنبياء

والحمد لله رب العالمين » .

ثم انصرفنا عن الحجرة وولينا وجوهنا شطر الجنوب ، وراعينا ألا تكون ظهورنا فى خط مع وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ووقفنا فى مواجهة محراب عثمان (رضى الله عنه) ، وذلك بعد أن أرضينا متسولا هنديا ذا منظر خانع ، لكنه لحوح غاية الالحاح - راح يحفزنى على دفع صدقة له بتلاوة سورة يس . وأمام محراب سيدنا عثمان راح الشيخ حامد يتلو بعض التضرعات الأخرى :

« يا الله (ثلاث مرات)

يا منجى من المخاوف

يا من تدافع عن المؤمنين

يا شفوق بالضعفاء والفقراء والمساكين ، اقبلنا يا رحيم واغفر لنا برحمتك واقبل توبتنا

وارحمنا يا أرحم الراحمين

وباركنا يا غفار فليس سواك غفار الخطايا

فانت وحدك علام الغيوب ، ومطهر الصدور

واختم لنا بقول : لا اله الا الله ، محمد رسول الله

يا الله اجعلنا نعيش فى ظل الشهادتين ، يا واهب الحياة

وامتنا على الاسلام ، فحياتنا بيديك وموتنا بيديك

وصل اللهم وسلم وبارك على الشفيع محمد وعلى آله وصحابته اجمعين .

وأخيرا عدنا للروضة وأدينا ركعتين أخريين ، وهكذا انتهينا كما بدأنا بتوجيه تعبدنا لله (سبحانه) .

★ ★ ★

ومن سوء حظى أن الولد محمدا كان قد وهب (لأحدهم) المعطف الكبير المطرز . وفى نهاية الزيارة تجمع أغوات (طواشية) المسجد النبوى

فى الروضة لتهنئتى باتمام الزيارة قائلين : «زيارتك مباركة» وليطلبوا الأعطيات fees ، والأغوات أناس محترمون بحكم عملهم فى المسجد ، كما أنهم يميلون الى فرض احترامهم على الناس باستخدام القوة والعنف فى اصدار الأوامر المتعلقة بالانضباط فى المسجد ٠

ثم أتى السقا Sakka وهو حامل الماء من بئر المسجد زمزم (٣١) وقدم آنية من صفيح مليئة بماء البئر المقدسة the holy source وأخيرا حاصرنى المتسولون ٠ لقد كان بعضهم متسولين غير لحوحين يدعون للتأمل ، ويثيرون العطف اذ جلسوا على الأرض وغرقوا فى تأمل مناديلهم (المبسوطة) (٣٢) وآخرون متسولون غاضبون اذ يسبون ويلعنون اذا لم يعطوا ، وآخرون مزعجون وقحون ويندرج تحت هذا النوع على نحو خاص تلك الزمرة من الشحاذات القابعات قرب قبر فاطمة (الزهراء) اذ أمسكن بى من الجزء الأسفل من ثوبى ، فافتديت نفسى (٣٣) ٠ وبالاضافة لهؤلاء ، وأولئك ، هناك شحاذون صغار ظرفاء ، يتمثلون فى الصبية الذين يمدون أيديهم اليمنى بأعداد لا حصر لها ، فيبدو منظرهم ظريفا ، وهناك الشحاذون بشعو المنظر أوغاد « هازلون » بشعورهم الطويلة القذرة ، ونحالتهم التى تدفع المرء للاحسان اليهم ٠ وأخيرا هناك العميان والعرجان وذوو الأسقام يطلبون الاعانة من المسلمين باعتبارهم من أهل المدينة (المنورة) ٠ وقد أجبرنى رفاقى ، أن أبدوا رجلا مهما ذا مرتبة اجتماعية عالية٠وكان ذلك ضد رغبتى٠لذلك فقد كنت مضطرا لأن أدفع ما يتناسب مع ذلك ، وقد كان وكيلى فى دفع الصدقات ــ بمعطفه الفاخر ــ ينفق ببذخ بما تمليه عليه ثيابه التى يباهى بها الآخرين ٠ لقد كلفتنى زيارتى الأولى للمسجد النبوى مبلغا يزيد عما كنت أعتزم انفاقه بمقدار الضعف ــ جنيها استرلينيا كاملا أو أربعة دولارات ، ولم أكن بمستطيع بعد ذلك ان أدفع أقل من نصف هذا المبلغ ٠ والآن ، بعد ان أنهيت كل واجبات زيارة طيبة ، سمح لى الشيخ حامد بالتجول والقاء نظرة ٠

---

(٣١) زمزم فى المسجد الحرام بمكة المكرمة وليس بالمدينة المنورة ، ولعل بيرتون توهم أو اختلط عليه الامر ، ولعل اهل المدينة يطلقون على احدى آبارهم هذا الاسم تشبها باهل مكة ٠ وتعليق بيرتون لا يوضح شيئا فهو يقول : أصبح اسم زمزم اسما عاما للبئر التى تقع بين جدران مسجد (داخل الحرم) ٠ ولا نعرف لهذا أصلا ــ (المترجم) ٠

(٣٢) to ransom myself فافتديت نفسى ، يقصد بدفع الصدقة ــ (المترجم) ٠

(٣٣) المقصود انهم يبسطون مناديلهم التى يضع فيها المتصدقون ما يجودون به ٠ وراح هؤلاء المتسولون ينظرون اليها ــ (المترجم) ٠

وقد بدأنا جولتنا عند باب السلام (٣٤) فى الجنوب الغربى وهو فى جدار المسجد الطويل . وهو باب مقوس بالرخام الجميل الفاخر وقراميد لامعة مصقولة ، كما أن الكتابات الذهبية الكثيرة على جانبيه تعطيه منظرا بالغ الروعة خاصة فى الليل والتحصينات الشعرية portcullis التى تتخذ شكل أبواب خشبية قد دعمت بألواح ومسامير من نحاس . وثمة سبيل ماء خارج هذه البوابة يتيح للناس الوضوء مجانا اذا لم يرغبوا فى شراء الماء من السقا الذى يحتفظ بالماء فى جرار فخارية داخل المسجد النبوى . ويتزاحم هنا المتسولون جالسين على درجات السلم الخارجية وعند مدخل المسجد فى الطريق الذى يتحتم على الزائرين المرور فيه .

وفى منتصف الجدار الغربى للمسجد تقريبا يوجد باب الرحمة ومنه يتم ادخال المسلمين الذين وافتهم منيتهم ، ليؤدى الناس الصلاة عليهم فى المسجد النبوى . وليس هناك ما يلفت النظر فى هذه البوابة فهى بشكل عام كالبوابات الأخرى فيها أبواب ضخمة مدعمة بالحديد وأمامها عدة درجات وتزينها كتابات قليلة محدثة .

أما الباب المجيدى أو بوابة السلطان عبد المجيد ففى وسط الجدار الشمالى وهى كالرواق الذى تفضى اليه ، لم تكتمل ، لكن منظرها الحالى يوحى بأنها ستفوق فى فخامتها كل البوابات خلا باب السلام .

أما باب النسا ففى الجدار الشرقى فى مواجهة باب الرحمة وهو مرتبط به بفرش الحجر Farsh al-Hajar أى بألواح حجرية عريضة ، ومستوى مدخله تحت مستوى الرواق بخطوتين أو ثلاث ويرتفع تدريجيا فوق صحن المسجد the hypaethral portion of the Mosque وأخيرا فى الجانب الجنوبى من الجدار الشرقى نفسه يوجد باب جبريل .

وكل هذه المداخل يمكن الوصول اليها من خلال درجات خارجية قائمة على قاعدة (أساسات) المسجد وتفضى هذه الدرجات الى الشوارع ، وذلك على عكس مسجد الحرم المكى فأساساته أقل ارتفاعا بالنسبة لأساسات المبانى المنشأة حوله .

ويغلق أغوات المسجد النبوى أبوابه بعد أداء صلاة العشاء مباشرة

---

(٣٤) ترجمها بيرتون Gate of Solvation أى باب الخلاص ، وذكر فى تعليقه أن هذه البوابة كانت تسمى قديما « باب العتاقة » — (بيرتون)

الا فى شهر رمضان وفى موسم الحج ، اذ يدفع المؤمنون مبالغ طائلة لقضاء الليل فى الصلاة داخل المسجد ٠

أما مآذن المسجد النبوى فعددها خمس لكن واحدة منها وهى المئذنة الكائنة فى الزاوية الشمالية الغربية للمسجد قد تهدمت ، والعمل فى اعادة بنائها جار ٠ أما منار باب السلام فينتصب بالقرب من الباب الذى يحمل الاسم نفسه ، وهذا المنار (أو المئذنة) طويل وجميل تعلوه كرة ضخمة أو مخروط (٣٥) من نحاس مذهب أو ملمع ٠ أما منار باب الرحمة ففوق منتصف الجدار الغربى تقريبا وهو أكثر بساطة من المنارات الأخرى ، وفيه ممران فى الجزء الدائرى العلوى ويعلوه مخروط من النوع الشائع فى مصر وتركيا ٠ وفى الزاوية الشمالية الشرقية يوجد المنار السليمانى نسبة الى منشئه السلطان سليمان القانونى (الفاخر) وهو مشيد بشكل جيد كبرج حجرى مقسم الى ثلاث طبقات متينة ، والطبقتان السفليتان مضلعتان ، أما الطبقة الثالثة فأسطوانية وكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث لها منصة أو منبسط يحيط به سور دائرى لحماية الصاعدين من السقوط ٠

وأخيرا هناك منار الرياسا Ruiasa (الرؤسا أو الرؤساء) فى الزاوية الشمالية الشرقية للمسجد ، ومن المفترض أنه مشيد فوق البقعة التى كان بلال (رضى الله عنه) يؤذن فيها ليدعو المسلمين الأوائل للصلاة ، وقد سميت بمنار الرؤساء لأنها مخصصة للرؤساء أو شيوخ المؤذنين ٠ وهذا المنار ، كمنار السليمانية مكون من ثلاث طبقات ، الطبقتان : الأولى والثانية ، مضلعتان ، والثالثة أسطوانية ، ولجميع طبقاتها أسوار حول بطاتها (أو منصاتها) ٠ وكلتا المئذنتين (المنارين) تنتهى ببناء بيضى (اهليجى) متين ينبثق منه عدد من المثلثات الخشبية ٠ وبالنسبة لهذين المنارين (المئذنتين) وكذلك الأروقة فانها جميعا تضاء بالمصابيح الزيتية فى المناسبات الاحتفالية كوصول قافلة الحج الدمشقية ، وتبدو محاولة التزيين بالأضواء فى مثل هذه الحالات بائسة ، وقد يفسر ذلك أصل الفكرة الخرافية التى يعتقدها أهل المدينة عن عمود نور يتوج قبر النبى (صلى الله عليه وسلم) ٠ وليس هناك أى تناسق فى أشكال هذه المآذن الأربع ولا فى أحجامها ، فمن النظرة الأولى يبدو عدم التناسق بينها ، وأنها ليست فى مواضعها ، رغم الجمال والعظمة البادين فى كل مئذنة

---

(٣٥) لا ندرى معنى (أو or) هنا ، فان كان بيرتون قد شاهد بنفسه فلم لم يخبرنا بما رأى (كرة أو مخروط) وربما كتب بيرتون هذه الملاحظة فى وقت لاحق وكان لا يتذكر حقيقة ما راه - (المترجم) ٠

على انفراد · لكن بعد عدة أيام وجدت عيني قد ألفت مواضعها ولم أعد أجد صعوبة فى تذوق نسبة عظمتها وشكلها النبيل ·

أما الأروقة التى تحيط بالصحن فلا تقل عن المنارات من حيث عدم الانتظام ، فعلى امتداد الجدار الشمالى سيغدو الرواق جميلا بصفوف أعمدته الجرانيتية المغطاة بالرخام ، وذلك بعد انتهاء العمل فيه · أما الرواق الشرقى ففيه ثلاثة صفوف من الأعمدة ، وفى الرواق الغربى أربعة صفوف ، أما الرواق الجنوبى حيث يوجد قبر الرسول فمن الطبيعى أن يكون به صفوف أعمدة أكثر مما فى الأروقة الأخرى · وهذه الأعمدة التى تحمل السقف وتدعم البناء ، مصنوعة من مواد مختلفة ، فبعضها من الرخام الجميل ، وبعضها من الأحجار الخشنة المجصصة ، والمزينة بزخارف غربية تنم عن ذوق سقيم للغاية ، وبقع وأشرطة من اللونين القرمزى والأسود كوجه المهرج اللندنى فى واجهة المسرح ·

أما عن أحجام هذه الأروقة ، فهى أكثر تباينا فالرواق الجنوبى مكون من أعمدة أضخم ـ بشكل ملموس ـ من الأعمدة فى الأروقة الأخرى · ونادرا ما يكون لجذعى عمودين ، تاجان متماثلان ، وكثير من الأعمدة لا قاعدة لها ، وبعضها قد نحت بطريقة تنم عن جهل محزن بأصول الفن· أنا لا أستطيع أن أمد اعجابى بالمنارات (المآذن) ليشمل هذه الأعمدة بانحطاطها المعمارى · لا وجه للمقارنة ·

ومن بين هذه الأعمدة غير المتقنة ، ثلاثة حازت شهرة فى الحوليات الاسلامية ، لذلك فقد كتبت أسماؤها عليها ، وخمسة قد حازت شرف أن يكون لها كنية · أول هذه الأعمدة اسمه المخلق Al-Mukhallak لأنه عندما تلوث فى بعض المناسبات ، دهن بعطر يسمى خلوق Khaluk وهو بالقرب من المحراب النبوى الى اليمين من الموضع الذى يقف فيه الامام ليؤم الناس فى الصلوات وهو (أى العمود) يميز الموضع الذى كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) متعودا أن يقف فيه مستندا على الاسطوانة الحنانة (٣٦) the Ustuwanat al-Hannanah لالقاء خطبة الجمعة ، وذلك قبل اختراع المنبر ·

أما العمود الثانى فهو الثالث اذا عددنا الأعمدة من ناحية المنبر كما انه الثالث من ناحية الحجرة ويسمى عمود عائشة ويسمى أيضا أسطوانة القرعة أو عمود القرعة Uustwanat al-Kurah or the Column of Lots لأن عائشة رضى الله عنها ذكرت أن رسول الله (صلى الله عليه

---

(٣٦) يطلق العرب احيانا على العمود اسم الاسطوانة ، والمقصود هنا جذع النخلة التى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتكىء عليه عند القائه العظات والخطب - (المترجم)

وسلم) قال : « اذا عرفتم قيمة هذا الموضع ، لاقترعتم على الصلاة فيه » ، وفى بعض الكتب يشار لهذا العمود بعمود المهاجرين وآخرون يشيرون اليه بالمخلق أى المعطر ٠

أما عمود التوبة Repentance أو عمود أبى لبابة فعلى بعد عشرين ذراعا من عمود عائشة (رضى الله عنها) وهو الثانى من الحجرة والرابع من المنبر ٠ واتخذ هذا العمود مسماه من الظروف التى سأرويها ٠ فقد كان أبو لبابة واحدا من أهل المدينة (المنورة) وأحد الأنصار وواحدا من صحابة رسول الله ، يقال انه كان فى الأصل يهوديا ثم أسلم ، وقيل انه من بنى عمرو بن عوف Amr bin Auf من الأوس ، وبينما كان مرسلا لعشيرته أو حلفائه بنى قريظة (فى ذلك الوقت كانوا قد أعلنوا استسلامهم للرسول) تأثر بتوسل رجالهم ونسائهم وأطفالهم الذين ألقوا بأنفسهم عند قدميه وطلبوا منه أن يشـفع لهم عند النبى الآثم (استغفر الله – يقصدون محمدا صلى الله عليه وسلم) وأقسم أبو لبابة وفى الوقت نفسه حذرهم بالاشارة بما معناه دافعوا عن أنفسكم والا هلكتم تماما ، ولكنه بعد ذلك ندم وتاب (٣٧) فربط نفسه الى جذع نخلة كانت فى موضع العمود الذى نتحدث عنه ٠ وأعلن أنه سيظل على هذه الحال حتى يقبل الله ورسوله توبته ، وحتى اليوم العاشر لم تقبل توبته ففقد سمعه ، وبصره أيضا أما الأعمدة الأخرى الأقل فى شهرتها فهى أسطوانة السرير أو الستر Cot وموضعها حيث كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ميالا للجلوس متوسطا سريره (مضجعه) المتواضع من جريدة النخل ٠ واسطوانة على تشير للموضع الذى كان الخليفة الرابع على (كرم الله وجهـه) قد تعود أن يصلى فيه ويتأمل ليلا بالقرب من أبى زوجتـه his father is law ٠ وأسطوانة الوفود وهى تسنجل الموضـع الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستقبل فيه الوفود والبعوث القادمين من الأماكن البعيدة (أو الأجنبية) ٠ واسطوانة التهجد حيث كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقضى الليل على حصيرته مصليا وأخيرا العمود الذى يشير الى مقام جبريل (عليه السلام) ويسمى أيضا مربط البير Mirbat al-Bair ولم أجد من يدلنى على المعنى المقصود ، لكلمة Bair هذه ٠ والأروقة الأربعة للمسجد النبوى تطل على صحن متوازى الأضلاع، والشيء الوحيد الجدير بالملاحظة فيه هو مسـاحة مربعـة مسورة بسور

---

(١٧) ورد فى حياة محمد لمحمد حسين هيكل (النهضة المصرية ١٩٦٨) وهو أدق من بيرتون بطبيعة الحال ان ابا لبابة لم يقل لهم دافعوا عن انفسكم وانما قال لهم انزلوا على حكم محمد والا ٠ وأشار لرقبته بما يفيد انهم سيذبحون ، وقد ندم أبو لبابة لهذه الإشارة واعتبر انه افشى سرا ٠ ص ٣٣٨ – (المترجم) ٠

خشبى وقد رشت بالماء جيدا ، وتسمى هذه المساحة بستان فاطمة الزهراء ، تضم اثنتى عشرة نخلة ، وعلى أيام ابن جبير كانت هناك خمس عشرة نخلة • ويرسل الأغوات ثمارها هدية للسلطان وكبار المسلمين ، وينظر العامة اليها بتقدير شديد أما العلماء فلا يعلقون عليها أهمية كبيرة • وبين النخيل تنمو شجرة سدر Lot tree تباع ثمارها بمبالغ باهظة • ويمكن دخول بستان فاطمة من خلال باب فى السور الجنوبى الشرقى بالقرب من البئر ، ويرى أحد الأغوات دائما داخل البستان ، الذى يشرف عليه مدير الحرم النبوى وهذه البساتين ليست قاصرة على المساجد ، كما يستطيع الرحالة الذين تجولوا بالقاهرة أن يقنعوا أنفسهم بذلك • فالبساتين تشكل ملمحا جميلا وملائما فى المبانى المشيدة لعبادة الله (سبحانه) الذى أخرج بسط الزهور والأشجار الظليلة من الأرض الميتة ، وروى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أيضا : « القبول فى فلاحة الحدائق والبساتين » •

وفى الزاوية الجنوبية الشرقية لسور بستان فاطمة الزهراء وتحت سقف خشبى تحمله أعمدة خشبية أيضا توجد بئر زمزم (٣٨) التى تسمى عادة بئر النبى • وقد قال سلفى ان ما بهذا الماء من ملوحة يرجع الى ما به من قداسة • بل ان رجلا حصل قدرا طيبا من التعليم قال لى انه كان ماء خفيفا صحيا كأى ماء فى المدينة (المنورة) ، الا أنه علل الملوحة التى أصبحت فى ماء البئر بوجود قناة تحت الأرض تصله ببئر زمزم الكبيرة فى مكة (المكرمة) (٣٩) ويعتقد آخرون اعتقادا آخر مؤداه أنه ممتلىء من عرق ماء ينبع من أسفل قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) مباشرة • وعلى أية حال ، وبشكل عام فانها ليست أكثر قداسة من بستان فاطمة ، كما أنها ليست مدرجة ضمن الآبار المباركة (المقدسة) بالمدينة (المنورة) فى الكتب •

---

(٣٨) بئر زمزم فى الحرم المكى الشريف ، وما يذكره بيرتون هنا ـ ربما كان أقوالا سمعها من بعض العامة الجهلاء ، أو ان ذلك كان شائعا من قبيل المنافسة على السياحة الدينية بين أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة ، خاصة وان البترول لم يكن قد ظهر بعد ـ (المترجم) •

(٣٩) الى هذا الحد تعبث المصالح الاقتصادية حتى بالمقدسات الدينية ويذكرنا هذا بقول بيرتون فى الجزء الاول (عن مصر) ان الولد محمد المصاحب له كان حريصا الا ينفق بيرتون نقوده فى مصر او المدينة (المنورة) وكان يحصى عليه حتى انفاسه ، وذلك ليبقى معه مبلغ كبير ينفقه فى مكة المكرمة • يقولون عند كل جريمة فتش عن المرأة ، الا انه لابد من اضافة المصالح الاقتصادية الى مثل هذا المثل (فتش عن المصالح الاقتصادية) وراء كل خرافة او الحاد ـ (المترجم) •

وبين بئر زمزم هذه والرواق الشرقى توجد الأماكن المخصصة لجلسات العلم • ففى الصباح الباكر وفى المساء تمتلىء الأرض فى هذه البقعة بالأساتذة Professors (الشيوخ) الذين يدرسون الأفكار الجديدة حيث تسمع جعجعة ولا ترى طحنا to shout rather than to shoot وعلى بعد خطوات قليلات الى الجنوب من بستان النخيل توجد عوارض خشبية خضراء متحركة يبلغ ارتفاعها حوالى ثلاثة أقدام ، وتستخدم فى فصل الامام عن جموع المصلين • وفى الزاوية الشمالية الشرقية فى داخل السور يوجد شجر قناديل Shajar Kanadil والمقصود ثريا نحاسية ضخمة تكمل تأثيث المكان •

وبعد هذه الجولة بدأت ظلال الليل تلفنا ، فغادرنا المسجد النبوى مراعين الخروج بالقدم اليسرى وألا نعود اليه كما تقضى سنة الرسول عند وداع المسجد الحرام بمكة • ولكى أنهى هذا الفصل الطويل أقول انه رغم أن كل المسلمين ، المتعلمين منهم والبسطاء يعتقدون اعتقادا جازما أن رفات محمد (صلى الله عليه وسلم) مدفون فى الحجرة فى المدينة المنورة ، الا أننى لا أستطيع أن أعزز الشك فى حقيقة ذلك بنفس درجة التشكك بالنسبة للقبر المقدس فى القدس (٤٠) • اذ يجب أن نتذكر أن الفتنة

---

(٤٠) ملحوظة مهمة عن موضع دفن الرسول صلى الله عليه وسلم :

تجمع كتب السيرة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لما مرض تم تمريضه فى منزل زوجه السيدة عائشة وهذا شىء طبيعى يتمشى مع طبيعة حياته فقد كانت السيدة عائشة كما هو معروف أحب زوجاته اليه ، ولما اشتد عليه المرض قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » قال ابن اسحق حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال : « سمعت عائشة رضى الله عنها تقول : مات رسول الله بين سحرى (الرئة) ونحرى (أعلى الصدر) ••• ودخل أبو بكر على رسول الله (وهو متوفى) فى بيت عائشة وكان مسجى فى ناحية البيت عليه برد حبره (ثياب يمنية) ••• وبعد أن تمت بيعة أبى بكر التفت الناس لمسألة دفن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتم غسل رسول الله يوم الثلاثاء ولحد له فى مكان موته ببيت عائشة (أى حفر له قبره) لقول أبى بكر رضى الله عنه انه سمع الرسول يقول : « ما قبض نبى الا دفن حيث قبض • وتم دفنه صلى الله عليه وسلم وورى الثرى يوم الأربعاء (ليلة الأربعاء) الخلاصة **ان المؤرخين والمحدثين لم يختلفوا أبدا فى موضع دفن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو بالتأكيد قد مات فى بيت عائشة ودفن فى بيتها رضى الله عنها ، ولم يقل أحد من المسلمين : سنة أو شيعة أو خوارج ••• الخ غير ذلك •**

لخصنا ما أوردناه فى هذه الحاشية من سيرة ابن هشام (التى نقلها عن ابن اسحق ٨٥ ـ ١٥٢ هـ • ورجعنا للطبعة التى حققها مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى • القاهرة ، مطبعة البابى الحلبى ، ١٩٣٦ م ، ووجدنا ما ذكره ابن اسحق هو نفسه ما ذكره ابن سيد الناس فى سيرته المعروفة ، وما أورده الحلبى فى السيرة الحلبية ، فلا خلاف اذن ـ (المترجم) •

التى أعقبت الاعلان عن وفاة الرسول عندما كان الناس ـ كما يحدث غالبا ـ يعتقدون أنه لا يموت ـ رفضوا تصديق الخبر ، بل حتى عمر (رضى الله عنه) هدد كل من قال بموته ·

وأكثر من هذا ، فقد كان جسده (الشريف) لم يكد يبرد عندما ثارت مشكلة الخلافة بين المهاجرين (أهل مكة) والأنصار (أهل المدينة) : وفى خضم هذا الصراع ـ كما يذكر الشيعة ـ كان منزل على وفاطمة الذى يبعد خطوات قليلة عن البقيع المعروفة الآن والتى دفن فيها الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان مهددا بحريق (٤١) وأنه تم انتخاب أبى بكر للخلافة فى مساء يوم الوفاة نفسه · فاذا وجد أى شخص ما يدعوه للدهشة من أن قبر شخص مهم كالرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يحدد للأبد (٤٢) فانه قد يجد كثيرا من الحالات المشابهة فى المدينة المنورة · فعلى سبيل المثال هناك ثلاثة مواضع ينسب الى كل منها شرف دفن فاطمة الزهراء رغم أن المرء قد يفترض أن ابنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأم الأئمة لا يجب أن يترك قبرها غير معروف (٤٣) · وأسبابى التى تدعونى للتشكك (عدم التثبت) هى أنه منذ الأيام الباكرة للاسلام لم يكن شكل قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) معروفا بشكل عام · ولهذا السبب فان القبور فى بعض البلاد الاسلامية محدبة وفى بعضها الآخر مسطحة واذا كانت هناك سنة فى هذا الشأن ما كان هذا هو الوضع (٤٤) ·

---

(٤١) الشيعة انفسهم يزورون القبر الشريف منذ اقدم العصور حتى الآن ، وهم يفعلون ذلك ايمانا منهم بأن الرفات الشريف موجود هنا ، ولم نسمع حتى من غلاة الشيعة من قال ان جسد المصطفى عليه السلام قد احترق بعد موته ـ (المترجم) ·

(٤٢) قبر الرسول معروف بشكل نهائى وللأبد ولم يختلف مسلمان فى موضعه ، وكتب السيرة المعروفة ابن اسحق ، ابن هشام الذى نقل عن ابن اسحق ، الواقدى ، ابن سيد الناس ·· الخ كلها لم تختلف فى ذلك ، وحتى كتب التاريخ العام على كثرة خلافاتها لم تختلف فى ذلك : ابن خياط ، الطبرى ، ابن الاثير ، ابن كثير ··· الخ · انظر الحاشية السابقة ـ (المترجم) ·

(٤٣) يختلف الوضع بالنسبة لقبر السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها وغيرها من ال البيت · فالذى لا شك فيه ان اهل السنة قد حاولوا صرف الشيعة عن توجيه التوقير الزائد (الذى وصل لدرجة الشرك احيانا لقبور آل البيت ، ومن هنا اتى هذا الخلط ، ومن ناحية اخرى فان الرغبة فى الكسب دفعت البعض الى ادعاء وجود قبر شريف هنا او هناك نظرا لما يجلبه هذا من منعمة ، وقد اشرنا لذلك فى حواش سابقة ـ (المترجم) ·

(٤٤) سبب كل هذا الخلط الذى وقع فيه بيرتون ، هو انه يحمل فى رأسه مفهوم القبر الاوربى الذى يمثل بالضرورة مبنى او مصطبة او ما شابه ذلك ، والواقع ان العرب حتى قبل الاسلام كانوا يحفرون لموتاهم ويوارونهم الثرى وانتهى الامر ، وقد =

فأقوال العلماء متضاربة ، فالمؤرخ السمهودى - وربما كان هو أكثر المؤرخين ثقة فى هذا المجال - يناقض نفسه ففي موضع واحد يصف الكفن وفى موضع آخر يقول انه داخل « الحجرة » (الشريفة) عندما كانت تجدد على عهد قايدباى ، ورأى - أى السمهودى ثلاث حفر عميقة ولم ير أى أثر لأى قبر (!!!) (٤٥) ٠

فرفات النبى (صلى الله عليه وسلم) اما أن يكون قد تحلل (بصرف النظر عن خرافات المسلمين وهو احتمال قائم بعد مرور ما يقرب من تسعمائة سنة من دفنه) (٤٦) أو أن الشيعة الذين كانوا حراسا على القبر لعدة قرون قد نقلوه (٤٧) ٠

= يضعون حجرا دالا أو شاهدا وحتى هذا الشاهد (الجمع شواهد) لم توجد بكثرة الا فى حضارة اليمن ، أما فى بوادى الجزيرة العربية فلم يكن ذلك شائعا ، ولما ظهر الاسلام تأكد هذا المعنى وكره الاسلام فى تعلية القبر أو تمييزه ، وظلت مقبرة البقيع فى المدينة المنورة دون أى بنيان أو حتى شاهد حتى أيامنا هذه وقد زرتها بنفسى مرارا فى الفترة من ١٩٨٠ الى ١٩٩٠ ،و فى الفترة الأخيرة سورتها الدولة ٠ أما ما رآه بيرتون من اختلاف أشكال القبور فى الدول الاسلامية فيمثل تراثا من حضارات مختلفة ، ليست بالضرورة سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تماما كاختلاف الألبسة والأطعمة والأشربة وأدوات الكتابة ٠٠٠ الخ - (المترجم) ٠

(٤٥) القبر هو الحفرة ، وبيرتون رغم علمه يخلط خلطا عجيبا - (المترجم) ٠

(٤٦) هل يتوقع بيرتون أن يرى الجسد الشريف فى صندوق على نسق الدفن الأوربى : حقا أن العلماء الكبار يقعون أحيانا فى أخطاء كبار ! - (المترجم) ٠

(٤٧) مرة أخرى نؤكد على ضرورة عدم الخلط بين التشيع خاصة بمعناه المتطرف والانتساب لآل بيت رسول الله ، فبيرتون يقول ان قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ظل مدة طويلة فى حراسة أسر شيعية ، وهذا غير صحيح ، ونفضل العودة للرحالة الشهير بوركهارت فهو أكثر تفصيلا من بيرتون فى هذا الصدد لننقل عنه ونعلق أيضا على بعض أقواله : يقول بوركهارت : « ٠٠٠ من بين الأشراف العسكريين فى المدينة المنورة قبيلة بنى حسين الصغيرة التى ترجع أصولها للحسين أخى الحسن (هذا لا يعنى أنهم شيعة) ويقال انه كان لقبيلة بنى حسين فيما مضى قوة ونفوذ فائقات فى المدينة المنورة اذ كانوا يحصلون على معظم الدخل المالى لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، أما فى الوقت الحالى (أيام بوركهارت) فقد تقلص عدد الأوصياء على قبر الرسول الى حوالى اثنتى عشرة أسرة لا زالت تعد من بين الأسر النبيلة فى المدينة المنورة ومن بين أكثر سكانها ثراء ، وتشغل هذه الأسر حيا خاصا بها ، وتحقق مكاسب هائلة خاصة من الحجاج الفرس (الشيعة) الذين يفدون الى المدينة المنورة (هذا ما شاهده بوركهارت على أيامه ٠ هانت ذا عزيزى القارىء ترى انه حتى الشيعة يوقنون تماما بأن قبر الرسول صلى الله عليه وسلم موجود حيث نعرفه الآن وحيث نسلم عليه وحيث نزوره ميتا كما زاره غيرنا حيا) ٠٠ ويقول بوركهارت : « ان هذه الأسر متهمة بأنها تمارس عقائد الشيعة سرا وانهم يتظاهرون بأنهم من أهل السنة غير أن فى هذا القول تعميما ، ويتشكك عدد من خبار =

وأخيرا فاننى لا أستطيع الا أن أتشكك فى حكاية النور الذى يحيط بقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمستمر عبر العصور والذى ما زال قائما على ذمة الأغوات الذين يعلمون دون شك أن هذا هراء كبريق كهنوتى يهدف الى منع الناس من الردة ٠

= الناس فى هذا كما أن بنى حسين ذوى النفوذ الفائق فى المدينة المنورة يتبعون ظاهريا عقائد السنة بشكل صارم لذا فان أحدا لا يتعرض لهم بأذى ٠

لكن بوركهارت يعود فيحدثنا عن فئة الزراع الذين يسمون النخاولة وهم مولعون بالحرب – يزعم بوركهارت أنهم شيعة ثم يناقض نفسه ويقول انهم من سلالة أتباع يزيد ابن معاوية ، وقد استقر بعضهم فى المدينة المنورة ويحتكرون مهنة الجزارة ٠٠ وأذكر أن طالبا من النخاولة قد أكد لى – وبدا صادقا – عندما كنت أعمل بالتدريس فى احدى جامعات المملكة السعودية ، أنه سنى أبا عن جد ، وفى أثناء الفتنة الايرانيـة بمكة المكرمة فى أواخر الثمانينات لعب الجزارون (وعدد منهم من النخاولة) دورا بارزا فى احباط الفتنة الفارسية ٠ فتبادل التهم بالتشيع مسألة معروفة تكمن خلفها – أحيانا – دوافع الغيرة الاقتصادية والحساسية القبلية ، وهى فى بعض الأحيان غير صحيحة – (المترجم) ٠

لا ندرى كيف يقرر بيرتون وهو عالم جليل أن الشيعة حكموا المدينة المنورة فترات طويلة ، ثم يتشكك بعد ذلك أنهم ربما سرقوا جسد الرسول عليه السلام ، فلنستعرض بايجاز مراحل التاريخ الاسلامى فبعد وفاة الرسول على الصلاة والسلام ودفنه فى مسكن عائشة رضى الله عنها تولى الخلفاء الراشدون الحكم : ابو بكر فعمر فعثمان فعلى وكانت المدينة المنورة فى هذه الفترة هى عاصمة الدولة الاسلامية السنية ، فكيف يسرق رفات الرسول فى هذه الفترة ، وبعد عام الجماعة استتب الأمر للدولة العثمانية من ٤١ هـ الى ١٣٢ هـ كما هو معروف ، والدولة العباسية ليست دولة شيعية ، ويخلط بعض المستشرقين بين الانتساب للرسول صلى الله عليه وسلم والتشيع فليس كل آل البيت شيعة ، ففى التاريخ الحديث مثلا نجد اكثر من أسرة عربية حاكمة تنتسب (أو تدعى النسب) الى آل البيت وليسوا شيعة ، والدولة السعدية فى المغرب ليست دولة شيعية رغم الانتساب لآل البيت ٠ على أية حال لم يبدأ نفوذ الشيعة يتضح الا فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التـاسع الميـلادى) اى بعد مـرور اكثر من مائتى عام على وفاة الرسول وتحلل جسده تماما فالمدة كافية لذلك ، والزيدية فى اليمن مثلا مع انهم يصنفون كشيعة الا انهم غير غلاة وقريبون تماما من المذهب السنى ، أما حركة القرامطة فسرعان ما اختلفت مع الحركة الفاطمية (الدولة الفاطمية) والدولة البويهية فى العراق وفارس ، وهكذا بدأت الدول الشيعية تختلف اختلافا واضحا وتتصارع صراعا لا هوادة فيه ، وبعد سقوط الدولة الفاطمية وبلاد الحرمين تحت اشراف سنى ابتداء من الدولة الأيوبية فصاعدا ٠ فمتى سرق رفات الرسول ، ولم يشر اى مصدر اسلامى لشىء كهذا ، ولم يكن هناك اى تأثير شيعى فى المدينة المنورة على الأقل حتى بداية العصر العباسى الثانى ، وفى هذه الفترة يكون جسده عليه السلام قد تحلل الا اذا صح ما يقال من أن أجساد الأنبياء لا تتحلل ٠٠٠

لخصنا هذا العرض التاريخى المعروف من اطلس تاريخ الاسلام لحسين مؤنس وكتب التاريخ الاسلامى العام اكثر من ان تدخل تحت حصر – (المترجم) ٠

الفصل السابع عشر

عن تاريخ المسجد النبوى

أخبر ابن عباس العالم أن نوحا (عليه السلام) وأسرته (١) المكونة من ثمانين فردا عندما رست بهم الفلكَ ، استقروا فى موضع يبعد عن بابل عشر خطوات (٢) واثنى عشر فرسخا (٣) (من ستة وثلاثين الى ثمانية وأربعين ميلا) حيث ازدادوا وتضاعفوا وانتشروا فى امبراطورية واسعة . وأخيرا انحرفوا عن عبادة الاله الحقَ فى ظل حكم النمرود بن كنعان ابن حام ، فحدثت معجزة شتتتهم فى شتى أنحاء الأرض ، وانقسمت لغتهم البدائية الى اثنتين وسبعين لهجة .

وقد ألهمت قبيلة أولاد سام بن نوح أو العمالقة والعماليق Amalikah and Amalik نسبة الى جدهم الأعلى عملاق بن أرفخشد سام بن نوح (٤) Amlak bin Arfakhshad bin Sam bin ùuh ـ معرفة اللسان العربى . واستقر أولاد سام فى المدينة المنورة وكانوا أول من زرع الأرض وأول من غرس النخيل (٥) . وبمرور الوقت

(١) لا ندرى سببا لنسبة هذا الكلام لابن عباس (رضى الله عنه) فهو ـ أى الكلام ـ اسرائيليات تعص بها كتب التاريخ . ويذكر بيرتون أن أسرة نوح مكونة من ثمانين شخصا ، ولا ندرى من أين اتى بهذا الكلام ولعله يقصد جماعة المؤمنين معه ، لان ابناء نوح هم سام (شام) وحام ويافث . انظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول (طبع دار المسيرة ببيروت) ص ٨ . (المترجم)

(٢) تذكر الكتب التراثية أن سفينة نوح عليه السلام رست فى موضع يقال له قرد ويعرف بالجودى . ابن العبرى : المرجع نفسه ، ص ٩ .

(٣) يذكر ياقوت الحموى أن قرد أو قردى وبازبدى قريتان قريبتان من جبل الجودى . تعليق محقق ابن العبرى والجودى فى منطقة الجزيرة بالعراق .

(٤) ننقل بايجاز عن ابن العبرى : انجب سام (شام) بن نوح ابنه أرفخشد وعمره مائة سنة وسنة واحدة ، وأنجب أرفخشد ابنه قينان .. ويعرض ابن العبرى كما هو متوقع لخلافات فى النسب ، وينسب محقق الكتاب بعض هذه المعلومات لانجيل لوقا . ص ١٠ ـ (المترجم) .

(٥) يقول ابن العبرى ان أولاد سام (شام) استقروا فى وسط المعمورة : فلسطين والشام وأثور (أشور) وسامر وبابل وفارس والحجاز .

انتشروا فى كل الرقعة بين بحار الحجاز (البحر الأحمر) والقمان (الجزء الشمالى الغربى من المحيط الهندى) ، وأصبحوا هم الأجداد الأعلون (الأسلاف) للجبابرة فى سوريا ، والفراعنة فى مصر (٦) ٠ وفى ظل العمالقة ـ حيث كان عمر الانسان يبلغ أربعمائة سنة ـ لم تشاهد مدنهم جنازة ، ولا سمع فيها نواح ٠

وآخر ملوك العماليق the Amalik وهو الأرقم بن أبى الأرقم Arkam bin Arkam (٦) ٠ كان ـ وفقا لما يقول معظم المؤلفين ـ قد قتل على يد جيش أبناء يعقوب (اسرائيل) الذى أرسله موسى (عليه السلام) بعد الخروج Exodus ، مزودا بتعليمات مشددة بتطهير مكة والمدينة من سكانهما الوثنيين ٠ وقضى جيش موسى على القبيلة كلها (أولاد سام) ما عدا النساء والأطفال ، وشابا واحدا من الأسرة المالكة كانت وسامته غير المعتادة دافعا للفاتحين لاستبقائه ليقضى النبى (موسى عليه السلام) فى أمره (٧) ٠ الا أن الجيش عندما عاد وجد موسى (عليه السلام) قد لاقى ربه أثناء القيام بمهمته ، واستقبل الشعب الجيش باللوم والتوبيخ لانتهاكه وصية موسى الأخيرة ٠ وقد عاد عسكر الجيش ليستقروا فى المدينة (المنورة) تحاشيا لتوبيخ أمتهم ٠

---

(٦) طبعا هناك إختلاف كبير وتناقض فاحش عند تناول هذه الأحداث المعنة فى القدم فابن العبرى يذكر اعتمادا على مصادر إنجيلية وغيرها أن الأراضى قسمت بين أولاد نوح كالتالى :

- بنو سام : فلسطين والشام وأشور وسامره وبابل وفارس والحجاز ٠
- بنو حام : الجناح الأيمن كله (أى الجنوب) ويشمل أفريقية والزنج ومصر والنوبة والحبشة والسند والهند ٠
- بنو يافث : الشمال (الجربيا) : الاندلس واليونان والافرنجة والبلغار والترك والأرمن ... الخ ، ص ١١ ـ ١٢ ـ (المترجم) ٠

(٧) رغم أن ما يذكره بيرتون لا يخرج عن كونه تلخيصا لما فى الاسرائيليات والحوليات الاسلامية ، الا أننا نفضل الرجوع للمصادر العربية لننقل ما بها ٠ ففى كتاب الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة للشيخ محمد بن محمود النجار (٥٧٣ ـ ٦٤٧ هـ) (طبع هذا الكتاب بمكة المكرمة) ـ ما ننقله كالتالى :

كان سبب سكن اليهود بلاد الحجاز أن موسى عليه السلام لما أظهره الله على فرعون وأهلكه وجنوده ، وطىء الشام وأهلك من بها وبعث بعثا من اليهود الى الحجاز وأمرهم الا يستبقوا من العماليق أحدا بلغ الحلم ، فقدموا عليهم فقتلوهم وقتلوا ملكهم نبنما وكان يقال له الأرقم بن أبى الأرقم ، وأصابوا أبنا له شابا من أحسن الناس فضنوا به على القتال وقالوا : نستحييه حتى نقدم على موسى فيرى فيه رأيه ، فاقبلوا وهو معهم وقبض الله موسى قبل قدومهم ؛ فلما سمع الناس بقدومهم تلقوهم فسألوهم عن أمرهم فاخبروهم بفتح الله عليهم وقالوا لم نستبق منهم أحدا الا هذا الفتى فاننا لم نر شابا أحسن منه =

ويوافق المؤرخون المسلمون على أن بنى اسرائيل قد حكموا فى الأراضى المقدسة فى شبه الجزيرة العربية بعد العماليق Amalik لكن علماء التاريخ لا يوافقون على سبب هجرتهم • فوفقا لما يذكره بعضهم ، فانه بينما كان موسى عائدا بعد حجه الى مكة (المكرمة) رأى كثير من أتباعه فى المدينة (المنورة) علامات تشير الى أنها ستشهد دعوة النبى الخاتم ، من خلال ما علموه من التوراة أو أسفار موسى الخمسة (الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم) ، لذلك فقد استقروا بها ، ولحق بهم بدو كثيرون من المناطق المجاورة ، أخذوا بالشريعة الموسوية • وقد أخبرنا ابن شيبة أيضا أنه عندما كان موسى وهارون ينطلقان من مكة (المكرمة) صوب الشمال كانا فى حالة خوف من اليهود المقيمين فى المدينة (المنورة) لذا لم يدخلاها ، وانما نصبا خيمتيهما على جبل أحد • وأصبح هارون على حافة الموت ، فحفر موسى له قبرا ، وقال : « أخى • لقد حان حينك فول وجهك للآخرة » ودخل هارون قبره وتمدد ، وسرعان ما فارق الحياة ، فواراه صاحب الشريعة اليهودية الثرى ، واتخذ طريقه الى أرض الميعاد •

وقد أكد أبو هريرة أن بنى اسرائيل استقروا فى المدينة (المنورة) بعد طول تطواف لأنهم بعد طردهم من فلسطين على يد بختنصر (نبوخذ نصر) وجدوا فى كتبهم أن خاتم النبيين سيظهر فى مدينة مدن شبه الجزيرة العربية (أم المدن) وتسمى « ذات نخل » لذلك فقد احتل بعض أبناء هارون هذه المدينة ، بينما استقرت قبائل (يهودية) أخرى فى

= فاستبقيناه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رايه ، فقالت لهم بنو اسرائيل : ان هذه معصية لمخالفتكم نبيكم •• لا والله لا يدخلون علينا بلادنا ، فحالوا بينهم وبين الشام ، فقال الجيش : ما بلد - اذا منعتم بلدكم - خير من البلد الذى خرجتم منه • قال الراوى : وكانت بلاد الحجاز اكثر بلاد الله شجرا واظهره ماء • قالوا : وكان هذا أول سكن اليهود الحجاز بعد العماليق (وهم يجدون فى التوراة أن نبيا يهاجر من العرب الى بلد فيه تحل بين حرتين فاقبلوا من الشام يطلبون صفة البلد فنزلت طائفة تيماء وتوطنوا نخلا ومضت طائفة فلما رأوا خيبر ظنوا انها البلدة التى يهاجر اليها النبى فاقام بعضهم بها ومضى اكثرهم واشرفهم فلما رأوا يثرب سبخة وحرة ونخلا (كذا) قالوا : هذا البلد الذى يكون له مهاجر النبى اليها فنزلوا فنزل النضير بمن معه بطحان) فنزلوا منها حيث شاءوا وكان جميعهم بزهرة وهى محل بين الحرة والسافلة ••• ونزل جمهورهم بمكان يقال له يثرب ••• وخرجت قريظة واخوانهم بنو هذل وهدل وعمرو ابناء الخزرج بن الصريح بن النوم بن السبط بن اليسع بن العتين بن عيد بن خيبر ابن النجار بن ناحوم بن عازر بن هارون بن عمران ، والنصر بن النجار بن الخزرج ابن الصريح ••• وبنوا الأطم (الحصون) ••• وقد نزل المدينة قبل الأوس والخزرج أحياء من العرب ••• صص ٣٢٤ - ٣٢٥ - (المترجم) •

خيبر ، وبنوا بالقرب منهم قلعة مربعة من الحجر ، سقفها مستو لأغراض السكنى والدفاع « Utum » (٨) .

وقد ترك هؤلاء اليهود لذريتهم وصية بضرورة اتباع محمد خاتم النبيين لكن الله (سبحانه) قسى قلوبهم حتى أهلكهم . فقد كانوا كالحمير يديرون أظهرهم لرحمة الله ، لذا فقد اقتلع جذورهم من الأرض .

ويقرر الطبرى أن بختنصر بعد تخريبه للقدس ، هاجم ملك مصر وذبحه لأنه آوى اليه بقايا بنى اسرائيل ، وقد اتخذ الآبقون المضطهدون طريقهم الى الحجاز ، واستقروا بالقرب من يثرب (المدينة) حيث أسسوا عدة مدن كخيبر وفدك ووادى Wady al-Subu ووادى القرى ، وقريظة وغيرها . ويبدو من خلال الأحداث المتزامنة التى سجلها المؤرخون أن اليهود فى أيامهم الأولى فى الحجاز كانوا اما مستعمرين للعماليق ، أو حالين محلهم ، فى المدينة (المنورة) .

وأخيرا ابتعد اليهود عن عبادة الله الواحد الذى رفع عليهم القبيلتين العربيتين : الأوس والخزرج (٩) ، وهما أصل جماعة الأنصار ، وكلتا القبيلتين تدعيان أصولا واحدة وتدعيان أن بلاد اليمن هى بلادهم الأصلية . أما ظروف هجرتهم فهى أن أبناء يعرب بن قحطان بن Shalik بن أركفخشاد Arkfakhshad بن سام بن نوح ، قريب العماليق Amalik ، قد قطنوا أرض سبأ الخصبة . وامتد نفوذهم مسافة رحلة قوامها شهران من سد مارب ، بالقرب من العاصمة الحالية لليمن وحتى سوريا ، وتروى الأقاصيص المشكوك فى صحتها عن كرمهم وخصوبة أرضهم ، وكما جرت العادة فان النعمة أبطرت قلوبهم فدعوا الله بأن يخلصهم من متاعب امبراطوريتهم الواسعة ، ومن واجبات الضيافة وما يمليه الكرم من مسئوليات ، بتقليص ممتلكاتهم فكان سيل العرم المشهور نتيجة تضرعهم المخلص .

---

(٨) اطم (بفتح الألف والطاء) هو الحصن العالى او القلعة وكان كل حصن من هذه الحصون محاطا بالبساتين – (المرجع السابق – ص ٣٢٥) والجمع : آطام (المرجع نفسه ٣٢٥) – (المترجم) .

(٩) نعود للمصادر العربية تحوطا يقول ابن النجار (المرجع آنف ذكره) : « ...فلم تزل اليهود العالية بها حتى كان من سيل العرم ما قضى الله فى كتابه وذلك أن أهل مارب وهى أرض سبأ كانوا آمنين فى بلادهم ... فقالوا « ربنا باعد بين أسفارنا » فسلط الله عليهم العرم (بكسر الراء) وهو جرذ فنقب عليهم حتى دخل السيل عليهم .. وكان السد فرسخا فى فرسخ .. ويروى أن طريفة بنت ربيعة الكاهنة امرأة عمر بن عامر بن ثعلبة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث قالت : أتيت الليلة فقيل لى : رب أسير ذاب ، شديد الذهاب ، بعد الاياب من واد الى واد .. لكل اجتماع فراق فلا رجوع ولا تلاق ... (المترجم) .

وفى وقت من الأوقات كان زعيم سلالة قحطان بن سبأ وأحد أفراد الأسرة الحاكمة فى اليمن ، هو عمرو بن أمين ماء السماء Amru bin Amin Ma'al-sama ويسمى المزيقية Al-Muzaykyh ، لأنه كان يمزق اربا كل كساء بعد أن يرتديه مرة واحدة ٠ وكانت زوجته طارقة الحميرية Tarikah Himyariah (١٠) بارعة فى العرافة تنبأت بما يخبئه القدر فحذرت زوجها ، الا أنه لم يكن راغبا فى مغادرة قبيلته دون اذن منها ، فافتعل ـ تخلصا من الحرج ـ خدعة ، نوجزها فيما يلى : فقد أوعز سرا لابنه بالتبنى (١١) ، وهو فتى يتيم ـ أن يتنازع معه ، ويلطمه على وجهه أمام جمع من علية القوم فى المملكة ٠ ومثل هذا العار دفعه لبيع ممتلكاته ، وهكذا هاجر عمرو صـوب الشمال وتبعه بنوه الثلاثة عشر من زوجته طارقة (١٢) ، كما تبعه آخرون من أهله ٠ وهكذا نجت هذه المجموعة الصغيرة من السـيل اليمنى (سـيل العرم) Yamanian Deluge بتوفيق من الله لتكون فيما بعد أنصـــارا للنبى (محمد صلى الله عليه وسلم) ٠

وقد انتشر كل أبناء عمرو فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية ٠ وقد اختـــار ابنه الأكبر صـلبة بن عمـرو Salabah bin Amru الحجاز ، واستقر فى المدينة المنورة ، فكان بين ظهرانى الفجار من بنى اسرائيل ، وبين ظهرانيهم تكاثر نسله فكان منهم الأوس والخزرج ٠ وبمرور الوقت ، فان هؤلاء القادمين الجدد ـ بقدرة الله سبحانه ـ أصبحوا أداة انتقـام من هؤلاء اليهود العصـاة ٠ وقد قامت القبيلتـان اليهوديتان بنـو قريظة وبنـو النضير Nazir بادعاء حقوق اقطـاعية feudal rights (معروفة تماما ـ أى هذه الحقوق الاقطاعية ـ فى أوربا) على كل واقعات الزواج العربية ٠ وقد تحمل الأوس والخزرج هذه الاهانة بصبر لفترة من الوقت ، الا أنهما ـ فى خاتمة المطاف ـ لجآ الى احدى عشائرهم التى كانت قد استقرت فى سوريا أثناء فترة الانتشار ، فلبى أبو جبيلة (١٣) النداء فاستدعى جيشه وتوجه للمدينة (المنورة) ليأخذ بثأر أقربائه ، وحطم قوة اليهود الذين أصبحوا منذ هذه اللحظة موالى للعرب ٠

---

(١٠) فى المصادر العربية : طريفة (بالفاء) انظر حاشية سابقة ـ (المترجم) ٠
واسم زوجها كما أورده ابن النجار عمر بن عامر ٠٠٠ الخ ، حاشية سابقة ـ (المترجم) ٠

(١١) ابن أخيه وداعة بن عمرو ، كما يقول ابن النجار ، ص ٣٢٦ ـ (المترجم) ٠

(١٢) طارفة (بالفاء) كما يقول ابن النجار (المترجم) ٠

(١٣) عن ابن النجار : أبو جبيلة من ولد حفنة بن عمرو بن عامر ، وكان قد أصاب ملكا بالشام ٠٠ ص ٣٢٧ ـ (المترجم) ٠

وقد عاش الأوس والخزرج فى سلام ووئام لفترة من الزمن ، طالما كانا يخشيان من الأعداء الذين يهددانهما معا • الا أنهما فى خاتمة المطاف وقعت بينهما الحزازات والعداوات ، وخاضا المعارك ضد بعضهما البعض الآخر ، رغم أن الدماء التى تجرى فى عروق القبيلتين واحدة ، وظلا على هذه الحال الى أن ألف بينهما مقدم النبى (صلى الله عليه وسلم) • وعلى أية حال فان هذا التآلف لم يحدث الا بعد سنة ٦١٥ م بعد أن كانت قد وقعت بين القبيلتين معركة بعاث (يوم بعاث Buas) (١٤) التى انتصر فيها الأوس انتصارا ساحقا •

ويروى أيضا ، للدلالة على أن المدينة (المنورة) كانت مسيرة بقضاء وقدر لا فكاك منهما ـ أنه قبل حصار أبى جبيلة للمدينة بحوالى ثلاثة قرون ، سار تبع الأصغر the Tobba Al-Asghar صوب الشمال بناء على طلب الأوس والخزرج لمعاقبة اليهود ، وثمة رواية أخرى تذكر أنه قدم بناء على طلب اليهود لينصرهم على الأوس والخزرج • وبعد الاستيلاء على المدينة المنورة ، خلف فيها أحد أبنائه لحكمها ، أما هو فقد واصل مسيرته لفتح سوريا والعراق •

وعلى حين غرة ، وصلته أخبار أن أهل المدينة (المنورة) قتلوا أميرهم الجديد غدرا • فعاد تبع Tobba ساخطا ، وهاجم المدينة (المنورة) ، وأقسم ألا يرحل حتى يسوى المدينة بالأرض ، وعندئذ قدم اليه اثنان من الأحبار اليهود هما كعب Ka'ab وأسيد Assayd وقالا له انه ليس فى مقدور انسان أن يخرب المدينة ، فلها رب يحميها ، لأن كتبهم الدينية تؤكد أنها ستكون ملجأ للنبى الخاتم •

واعتقد تبع Tobba الدين اليهودى ، وغادر المدينة المنورة مصطحبا معه أربعمائة حبر يهودى ، وتوجه حاجا للكعبة (المشرفة) فى مكة (المكرمة) وكساها كسوة فاخرة ، وبعد أن شيد دارا للنبى المرتقب ، عاد لحاضرة بلاده فى اليمن ، وأبطل الوثنية واستخدم طريقة التعذيب

---

(١٤) ورد فى « حياة محمد » لهيكل أن وقعة بعاث بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام وقبل الهجرة بالطبع ، وكانت حربا مريرة بين الأوس والخزرج ولما اراد الأوس القضاء على الخزرج تماما قال ابو القيس بن الاسلت : لا ، « فجوارهم افضل من جوار الثعالب » (يقصد اليهود) ، وبعد وقعة بعاث هذه استعاد اليهود مكانتهم فى المدينة ، ورأى المنتصر والمهزوم (الأوس والخزرج) جميعا سوء ما صنعوا ، فاختاروا عبد الله من الخزرج المهزومة ليكون ملكا عليهم ، لكن التطورات التى حدثت بعد ذلك دن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم حالت دون تتويجه •

(موجز عن حياة محمد لهيكل صص ٢٠١ـ٢٠٢) (المترجم) •

بالنار للتأكد من صدق التحول عن الوثنية . وعامل ضيوفه من ... اليهود باحترام بالغ . وكتب وهو على فراش الموت ما يلى :

اشهد بصدق احمد الصادق

أشهد أنه رسول الله خالق الأرواح

واذا امتد أجلى لأشهد ايامه

لكنت له وزيرا وابن عم

وبعد أن ختم الورقة بخاتمة قدمها لرئيس الأحبار اليهود لتكون وديعة عنده ، مع وصية مهيبة بأن يسلم الخطاب - اذا أتيحت الفرصة - للنبى العظيم ، واذا بعد يوم ظهوره (صلى الله عليه وسلم) فلابد أن تتوارث الأجيال هذه الرسالة حتى يتم تسليمها له (صلى الله عليه وسلم) أما المنزل الذى شيده فى المدينة (المنورة) ليكون مقرا للرسول الخاتم ، فقد سلمه تبع للحبر ، الذى كان أبو أيوب الأنصارى أحد أفراد سلالته . وكان أبو أيوب هو أول شخص يمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ببيته بعد أن أنهى رحلة الهجرة . وكان أبو أيوب الأنصارى يحتفظ بخطاب تبع - وهكذا وصل الخطاب الذى كتبه تبع الى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد ثلاثة قرون أو أربعة .

وقد كانت المدينة (المنورة) دائما هى قصد محمد (صلى الله عليه وسلم) وهدفه . وفى الفترة الباكرة من بعثته استقبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفدا من قبيلة بنى عبد الأشهل - التى وصلت المدينة المنورة - لعقد معاهدة مع قبيلة قريش ، وانتهز محمد (صلى الله عليه وسلم) الفرصة ودعاهم للاسلام . وقد لاقت كلمات الرسول تأييدا من أحد شباب قبيلة عبد الأشهل واسمه اياس بن معاذ Ayyas bin Ma'az بينما عارضها بقية الوفد الذى عاد - على أية حال - الى المدينة (المنورة) دون أن يقرروا الى أى الجانبين هم . وبايجاز ، فانه بعد أن أتت جموع الأوس والخزرج الى مكة (المكرمة) قاصدة الحج ، عرفوا فى الرسول (صلى الله عليه وسلم) الشخص الذى طالما بشر به اليهود ، فأقسموا له على الطاعة فيما عرف فى التاريخ الاسـلامى ببيعة العقبة الأولى « First Fealty of the Steep ».

وبعد أن عاد الرجال الستة الذين أعطوا العهود والمواثيق لرسول الله الى المدينة (المنورة) ، انتشر خبرهم بين الناس مما أدى الى قيام اثنى عشر شخصا ، وقيل أربعين(١٥) ، بزعامة أسعد بن زرارة بتقديم

---

(١٥) هيكل : حياة محمد : ١٢ شخصا - (المترجم) .

العهود والمواثيق للرسول فى موسم الحج التالى ، وكان بصحبته المسئولون الأول الذين قدموا للرسول عهدهم فى موسم الحج السابق ـ وهكذا عقد الرسول مع هؤلاء المسلمين الجدد « بيعة العقبة الثانية » فى نفس موضع عقد « بيعة العقبة الأولى » • وقد أذن لهم الرسول بالانصراف بصحبة مصعب بن عمير المكى ليعلمهم (١٦) القرآن (الكريم) وواجبات الدين الاسلامى التى لم تكن تتعدى فى ذلك الوقت أداء الصلاة والاعتقاد فى أن الله واحد • وقد وصل مصعب وصحبه للمدينة (المنورة) يوم جمعة ، وبذلك شهد أهل المدينة أول صلاة جامعة يؤديها المسلمون •

وبعد أن واجه مصعب والمسلمون بعض المضايقات ، نجح مصعب فى أن يهدى للاسلام ابن عم أسعد بن زرارة (١٧) ، وزعيم الأوس سعد ابن معاذ الذى عارض الاسلام بشدة قبل أن يتحول اليه • وقد حث قبيلته بنى عبد الأشهل أن يحطموا أوثانهم وأن يدخلوا فى الاسلام أفواجا ، وفى الموسم التالى نجح مصعب فى تحويل كثيرين للاسلام ، بلغ عددهم سبعين ، وقيل ثلاثمائة ساروا من المدينة (المنورة) لمكة (المكرمة) لأداء الحج ، وهناك دفع مصعب أتباعه لمقابلة النبى (صلى الله عليه وسلم) فى منتصف الليل على عقبة بالقرب من منى (١٨) Muna فعرفهم النبى واجباتهم تجاه الله ورسوله وركز على الجهاد ضد الكفر • وقد أشاروا الى معاهداتهم القديمة مع اليهود فى المدينة وتخوفوا ان حالفوا الرسول أن يتركهم ـ بعد أن يوفقه الله ويسود ـ ويعود لقبيلته قريش ، فقام محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو يبتسم بطمأنتهم وأكد لهم أنه معهم قلبا وقالبا ، بدنا وروحا (١٩) ، الى الأبد فسألوه وما هو جزاؤهم ان قتلوا أثناء محاربة الكفار ، فأجابهم « جنات تجرى من تحتها الأنهار » وهى ما يسمونه « الفردوس » •

---

(١٦) فى حياة محمد لهيكل أن مصعب بن عمير ذهب معهم بعد بيعة العقبة الأولى لا الثانية ، ص ٢٠٢ ـ (المترجم) •

(١٧) فى حياة محمد لهيكل : سعد بن زرارة ـ (المترجم) •

(١٨) واضح أن بيرتون ينطقها كما ينطقها بعض العامة (بضم الميم) والصحيح بكسرها ـ (المترجم) •

(١٩) يورد هيكل فى حياة محمد ما قاله لهم الرسول ليطمئنهم كالتالى : « بل الدم الدم • الهدم الهدم • أنتم منى وأنا منكم • أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » ، ص ٢٠٥ ـ (المترجم) •

ورغم نصيحة العباس عم النبى الذى كان يعارض جهرا (٢٠) ، فانهم دعوا النبى أن يبسط يده وبايعوه ، فيما عرف ببيعة العقبة الكبيرة (العظمى) ، وبعد أن طمأنهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتلاوة بعض الآيات القرآنية التى تعد بالفردوس ، قسم الرسول أتباعه الى اثنتى عشرة جماعة bodies جعل على رأس كل منها قائدا (٢١) وأذن لهم بالعودة لديارهم (المدينة المنورة) . وقد رفض الرسول (صلى الله عليه وسلم) اقتراحا تقدم به أحد المبايعين بقتل كل الكفار الذين يحضرون لمكة للحج قائلا ان الله لم يأمره بذلك . وللسبب ذاته ، رفض الرسول (صلى الله عليه وسلم) دعوتهم له لزيارة المدينة (المنورة) ، وغادرهم فى مشهد عاطفى حنون (٢٢) .

وبعد شهرين ونصف من هذه الأحداث التى فصلناها ، أوحى الى محمد (صلى الله عليه وسلم) أن المدينة (المنورة) فى الحجاز هى ملاذه المقدر له . وقد أرسل النبى (صلى الله عليه وسلم) صحابته ومن بينهم عمر وطلحة وحمزة ، ليسبقوه الى دار الهجرة (المدينة المنورة) واستبقى الى جانبه أبا بكر وعليـــا ، ووقائع الهجرة مشهورة فمن غير الضرورى اعادة ذكرها هنا ، كما أن وقائع الهجرة ألصق بتاريخ الاسلام العام منها بتاريخ المدينة (المنورة) .

ولقد رافق محمدا (صلى الله عليه وسلم) الى المدينة (المنورة) بريدة الأسلمى (٢٣) وثمانون شخصـــا من قبيلته ، وكانت قريش قد عرضت عليه مائة من الابل لمتابعة الهاربين والقبض عليهما ، ولكن بريدة بعد أن استمع الى شروط قريش تناقش مع محمد (صلى الله عليه وسلم) وبمجرد أن عرف محـــدثه اعتنق الاســـلام ، وجهز للنبى علمـــا بربط قماش عمامته الى رمح ، وســأل بقلق عن المنزل الذى سيشرف باقامة عبد الله ورســـوله (عبد الله المختـــار (Allah's Chosen Servant فأجاب الرسول : (أى .. ان هذه الناقة مأمورة بتحديده لى) .

---

(٢١) لم يعارض العباس عم النبى وانما تحرز فقط فقال : « يا معشر الخزرج ان محمدا منا حيث علمتم وقد منعناه من قومنا ... وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده . وقد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم . فان كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه اليكم فمن الآن فدعوه » هيكل : حياة محمد ص ٢٠٤ ـ (المترجم) .

(٢١) عرفوا فى السيرة بالنقباء ، جمع نقيب ـ (هيكل ٢٠٦) ـ (المترجم) .

(٢٢) يقصد أن الوحى لم يأته أمرا بالهجرة بعد ـ (المترجم) .

(٢٣) المقصود أن بريدة رافق الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ـ أى الرسول ـ قد اقترب من المدينة ، فلم يخرج بريدة الأسلمى مع الرسول وصاحبه من مكة . هيكل : حياة محمد ، ص ٢١٥ ـ (المترجم) .

وفى محطة التوقف الأخيرة قابل محمد (صلى الله عليه وسلم) بعض أتباعه العائدين من رحلتهم التجارية فى الشام ، فألبسوه ورفيقه أبا بكر رداءين أبيضين مما جعل أهل قباء لا يتعرفون على أبى بكر • وكان المسلمون من أهل المدينة قد تعودوا تسلق المرتفعات القريبة كل صباح لاستطلاع قدوم الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى اذا ما اشتدت الشمس عادوا الى بيوتهم • وذات يوم ، وفى وقت الظهيرة تقريبا نبه يهودى ـ كان قد رأى الجمع المهاجر على البعد ـ الأنصار المقربين فى المدينة فأسرعوا خارجين من منازلهم حاملين أسلحتهم للقيا الرسول (صلى الله عليه وسلم) • وتقدمت ناقة الرسول الى وسط مدينة قباء التى كانت وقتها مدينة مزدهرة ، ثم بركت الناقة فجأة فى موضع هو الآن أرض لها قداستها ، وكانت وقت أن بركت فيها الناقة باحة مكشوفة يمتلكها أبو أيوب الأنصارى الذى كان يمتلك دارا هنا بالقرب من ديار بنى عمرو بن عوف Amr bin Auf • وقد حدث ذلك فى اليوم الأول من الأسبوع الثانى عشر من شهر ربيع الأول (٢٨ يونية ٦٢٢ م) فى السنة الأولى من الهجرة ، لذا فان يوم الاثنين يوم مبارك ميمون عند المسلمين ، وقد شهد يوم الاثنين أيضا مولد الرسول ، كما أنه يوم بعثه ويوم مماته •

وبعد أن أقام الرسول يومين فى منزل كلثوم بن الهدم (٢٤) Kulsum bin Hadmah فى قباء ، أسس أول مسجد وضع فى الاسلام فى الموضع الذى بركت فيه الناقة • وقد لحق على (رضى الله عنه) بالرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة (٢٥) • وكان على قد تخلف فى مكة (المكرمة) لاعادة الأمانات والودائع التى احتفظ بها الناس لدى محمد (صلى الله عليه وسلم) لذلك فقد تأخر عن الهجرة ثلاثة أيام • وفى صبيحة الجمعة ١٦ ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة (٢ يوليو ٦٢٥ للميلاد) عند شروق الشمس تقريبا ركب النبى الناقة (القصواء) واتخذ طريقه للمدينة بصحبة حشد من الراجلين والفرسان من الأنصار • وعندما حان وقت صلاة الجمعة توقف فى واد بالقرب من قباء فى الموضع الذى فيه الآن مسجد الجمعة وأدى الصلاة مع مرافقيه وخطب خطبة بليغة • ثم امتطى الناقة مرة أخرى ، فتجمع عدد كبير أمامه ، لينزل عليهم ضيفا فباركهم وطلب منهم التنحى عن الطريق قائلا ان الناقة

---

(٢٤) عن ابن النجار : هو كلثوم بن الهدم بن امرىء القيس بن الحارث ، وكان سيد الحى •• ص ٣٣٠ ـ (المترجم) •

(٢٥) فى حياة محمد لهيكل : لحق به فى قباء ـ (المترجم) •

(القصواء) ستبرك به فى البقعة التى حددها الله · عندئذ تقدم حيث نوجد الآن مصلى النبى Apostle's pupit ، حيث بركت الناقة ، فقال : « هذا موضعنا ان شاء الله » وترجل وقال : « رب انزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » (٢٦) وسرعان ما هبت الناقة واقفة دون مساعدة من أحد ، وتقدمت بضع خطوات ثم عادت كرة أخرى فبركت فى موضعها السابق ، وقيل انها بعد أن قامت (الناقة) توجهت الى بيت أبى أيوب الأنصارى فبركت عند بابه ، وكان مقامه فى هذه الأيام بالقرب من موضع مصلى النبى ، وأبو أيوب هذا من سلالة كبير الأحبار اليهود فى أيام تبع Tobba ، وقد حمل أبو أيوب متاع النبى الى داخل منزله ، وأذن له النبى فى ذلك · وعندئذ عمت الأفراح فأقبل الأحباش يلعبون برماحهم ، وراحت عذارى بنى النجار تضربن الدفوف وتغنين ، وزغردت زوجات الأنصار ابتهاجا بالحدث المبارك ، وراح الشيب والشباب يهتفون : « أتى رسول الله · رسول الله هنا » ·

وطلب محمد (صلى الله عليه وسلم) من أبى أيوب وزوجته أن تكون اقامتهما فى الطابق الثانى وجعل لنفسه الغرف الأرضية المتواضعة ، ليتمكن من استقبال زواره دون أن يحملهم مشقة صعود الطابق الثانى ، ودون أن يزعج أسرة أبى أيوب · لكن صاحب الدار كان فى حالة قلق دائم لتنفيذ توجيهات الرسول المختلفة فيما يتعلق بطعامه وعاداته خاصة فيما يخص تجنبه (صلى الله عليه وسلم) أكل الكراث والبصل والثوم ، وهى أمور ركز عليها المؤلفون المسلمون · وبعد انقضاء سبعة شهور ، أو أقل قليلا أو أكثر قليلا فى منزل أبى أيوب الأنصارى ، أصبح محمد (صلى الله عليه وسلم) محاطا بزوجاته وأسرته فبنى بالقرب من المسجد أكواخا لهم · وقد اشترى الرسول الأرض من سهل وسهيل وهما يتيمان من بنى النجار احدى عوائل الخزرج ذات المكانة · وبعد فترة يسيرة ، أهدى الحارث بن النعمان Harisat bin Al-Nu'uman للنبى منازله المقامة قرب المسجد · وفى هذه الأيام كانت مساكن العرب مشيدة من جريد النخل ومغطاة بأردية من أوبار الابل ، ويتدلى من أسقفها ستائر بشكل الأبواب · أما المساكن الأكثر فخامة فجدرانها من الطوب اللبن وسقوفها من جذوع النخل أحكمت فيما بينها بالطين أو الطفل · وعلى هذه الشاكلة كانت مساكن محمد (صلى الله عليه وسلم) وأسرته ومعظم هذه المساكن كانت مشيدة الى الشمال والى الشرق من المسجد النبوى الذى كان يتبعه ساحة

---

(٢٦) « وقل رب انزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » سورة (المؤمنون) اية : ٦٩ ـ (المترجم) ·

مكشوفة فى الناحية الغربية • وكانت المساكن المحيطة تفتح على صحن المسجد (مكان الصلاة) • وقد أمر أصحاب هذه الدور ـ ما عدا أبا بكر وعليا (رضى الله عنهما) أن يغلقوا هذه الأبواب ، وحتى عمر (رضى الله عنه) لم يسمح له بميزة فتح نافذة تطل داخل المسجد •

وبعد فترة وجيزة بدأ يهود المدينة (المنورة) يتآمرون على محمد (صلى الله عليه وسلم) بسبب غيظهم من تصرف عبد الله بن سلام أكثر أحبارهم علما ، وأعلاهم نسبا لكونه من سلالة البطريارك اليهودى يوسف (جوزيف) ، اذ كان عبد الله بن سلام قد تحول للاسلام • وكان على رأس اليهود المتآمرين حاج بن أختاه Hajj bin Akhtah وأخوه ياسر بن أختاه ، وانضم اليهما كثيرون من الأوس والخزرج • وأعقب هذا الحلف ضد محمد (صلى الله عليه وسلم) تحالف المنافقين بزعامة عبد الله (٢٧) مما يتعلق بتاريخ الدولة العربية •

وقد قضى محمد (صلى الله عليه وسلم) السنوات العشر الأخيرة من حياته فى المدينة (المنورة) • ووافته منيته يوم الاثنين ، قيل فى التاسعة صباحا ، وقيل فى وقت الظهيرة ، وقيل بعد الظهيرة بقليل ، فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول فى السنة الحادية عشرة من الهجرة • واقترح على (كرم الله وجهه) أن يدفن النبى فى المدينة (المنورة) واقترح أبو بكر أن يكون دفنه فى غرفة عائشة (رضى الله عنهما) مستشهدين بأقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) المتضمنة أن الأنبياء والشهداء يدفنون ـ دائما ـ حيث توافيهم منيتهم • ويقال ان النبى (صلى الله عليه وسلم) قد دفن تحت سرير كان يتلقى الوحى وهو فوقه ، وقد واراه على (رضى الله عنه) الثرى ، وحفر ابن عباس القبر • ومن حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة (المنورة) اتخذت هذه المدينة أهميتها ، وان شئنا قلنا من تاريخ المسجد النبوى • ومنذ موت الرسول (صلى الله عليه وسلم) حكم المدينة الخلفاء الراشدون وأشراف مكة وسلاطين اسطنبول والوهابيون (الاصلاحيون السلفيون) والمصريون • والمدينة الآن قد عادت للسلطان الذى بدأت حكومته تعتقد أن لقب الخان الكبير « خادم الحرمين الشريفين » يستحق أن ينفق فى سبيله أموال طائلة ، مع أن الهالة الدينية religious prestige فى أيامنا هذه أضحت قليلة القيمة • وكما لوحظ من قبل ، فان الترك يكافحون الآن لابقاء الحجاز فى قبضة جنود تتأخر رواتبهم دائما ، وفى أيدى ضباط وموظفين غير أكفاء لادارة أمور شعب جامح صعب المراس • ولا تدفع الرواتب الا مقسطة

---

(٢٧) عبد الله بن أبى بن سلول ـ (المترجم) •

وليس ثمة زيادة سنوية فيها • ومن المحتمل أن تكون كل مهمتهم منع الناس من القيام بثورة شعبية والمطالبة مجددا بتحرير بلادهم • وقد سمعت من مصادر وثيقة أن الوهابيين (الاصلاليين السلفيين) يتطلعون ليوم تساعدهم فيه الصليبية الجديدة (الناهضة) على تطهير الأرض من دنسها (٢٨) الذى يتخذ شكل الذهب والفضة (٢٩) •

ومسجد النبى يحتل المرتبة الثانية بالنسبة لمساجد الاسلام من حيث الأسبقية كما انه الثانى من حيث القداسة ، وان كان هناك من يراه الأول من حيث القداسة بل وفى مستوى قداسة الكعبة ذاتها • وقد أقيم المسجد حول البقعة التى بركت فيها ناقة النبى (القصواء) بأمر من الله (سبحانه) وكانت أرضه وقتها بستان نخيل ومربدا (٣٠) (المربد هو المكان الذى

---

(٢٨) أو من دنسها (مقت/كراهية abomination) (؟)

(٢٩) السلفيون أنفسهم أو جمهور السلفيين فى شبه جزيرة العرب ، يستبعد تماما أن يطلبوا طلبا كهذا ، وانما هذا غالبا تم على يد قياداتهم السياسية ، وهى قيادات محنكة بالتأكيد ، راجع مقدمة الترجمة ـ (المترجم) •

(٣٠) رغم أن ما ذكره بيرتون لا يخرج عما ذكرته كتب السيرة الا أننا رأينا من الأحوط ايراد ما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية الشهيرة :

« ••• فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجدا ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه • فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبى يعمل

لذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون :

لا عيش الا عيش الآخرة

اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

قال ابن هشام : هذا كلام وليس برجز •

قال ابن اسحاق : فيقول رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا عيش الا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار •

(أخبار الرسول لعمار بقتل الفئة الباغية له) :

قال : فدخل عمار بن ياسر ، وقد أثقلوه باللبن ، فقال : يا رسول الله ، قتلونى ، يحملون على ما لا يحملون ، قالت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض وفرته بيده ، وكان رجلا جعدا ، وهو يقول : ويح ابن سمية ، ليسوا بالذين يقتلونك ، انما تقتلك الفئة الباغية •

(ارتجاز على بن أبى طالب فى بناء المسجد) : ـ

يجفف فيه البلح أو الرطب ليكون تمرا) وقد أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) بتشييد المسجد فيه بعد أن أرسل الى أصحابه وكانوا شبابا ، كما أرسل لبعض الأنصار ، فقدم أصحاب الأرض أرضهم للرسول كهدية بلا ثمن ، لكن الرسول أبى الا أن يدفع فيها ثمنا أكثر من قيمتها ، عندئذ سويت الأرض وقطعت الأشجار وتم انشاء المسجد فى صورته الأولى ٠

وفى هذه الأزمنة التى تتسم بالبساطة ، شيدوا جدران المسجد النبوى من أحجار خام وطوب لبن ، واستخدموا جذوع النخل كدعامات لحمل السقف المعمول من جريد النخل ، وراعوا ما أوحى به الله عن طريق جبريل ألا يزيد ارتفاعه عن سبع أذرع ، وهو ارتفاع المعبد الذى شيده موسى (عليه السلام) ٠ وفى ذلك الوقت كانت كل أنواع الزخارف والزينات ممنوعة بشدة ٠ وقد حمل المهاجرون والأنصار مواد البناء بأيديهم من مقبرة البقيع بالقرب من بئر أيوب شمال البقعة التى فيها ــ الآن ــ مسجد ابراهيم وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يساعدهم فى عملهم وينشد مشجعا :

اللهـم لا عيش الا عيش الآخـــرة   فارحم الأنصـــــار والمهــاجرة

وكان طول هذا المسجد أربعا وخمسين ذراعا من الشمال الى الجنوب وعرضه ثلاث وستون ذراعا ، وكان محاطا بالمساكن من مختلف نواحيه

= وارتجز على بن أبى طالب رضى الله عنه يومئذ :

لا يستوى من يعمر المســـاجدا

يدأب فيه قائمـا وقاعـدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

قال ابن هشام : سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر ، عن هذا الرجز ، فقالوا : بلغنا أن على بن أبى طالب ارتجز به ، فلا يدرى : أهو قائله أم غيره ٠

(ما كان بين عمار واحد الصحابة من مشادة) ٠

قال ابن اسحاق : فأخذها عمار بن ياسر فجعل يرتجز بها ٠

قال ابن هشام : فلما أكثر ، ظن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه انما يعرض به ، فيما حدثنا زياد بن عبد الله البكائى ، عن ابن اسحاق ، وقد سمى ابن اسحاق الرجل ؟ ٠

(وصاة الرسول صلى الله عليه وسلم بعمار) :

قال ابن اسحاق : فقال : قد سمعت ما تقول منذ اليوم يابن سمية ، والله انى لأرانى ساعرض هذه العصا لأنفك ٠ قال : وفى يده عصا ٠ قال : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ما لهم ولعمار ، يدعوهم الى الجنة ، ويدعونه الى النار ، ان عمارا جلدة ما بين عينى وأنفى ، فاذا بلغ ذلك من الرجل فلم يستبق فاجتنبوه ٠

(المترجم)

عدا الناحية الغربية . وطوال عشرين شهرا فى هذه الحقبة الجديدة كانت جماعة المصلين تولى وجهها صوب الحائط الشمالى . ثم تحولوا بوجوههم - بأمر الوحى - صوب الجنوب أى صوب مكة (المكرمة) ، وبهذه المناسبة هبط جبريل وفتح بشكل اعجازى بين التلال والقفار فتحة تظهر الكعبة حتى لا يصعب معرفة الاتجاه اليها اتجاها صحيحا .

وبعد فتح خيبر فى السنة السابعة للهجرة قام النبى وخلفاؤه الثلاثة الأول بترميم المسجد ، لكن المؤرخين المسلمين لا يعتبرون هذا الترميم اعادة بناء أو لا يعتبرونه البناء الثانى . لقد وضع محمد (صلى الله عليه وسلم) الطوبة الأولى وقال أبو هريرة انه رأى النبى (صلى الله عليه وسلم) يحمل أكواما من مواد البناء يسندها بيديه الى صدره . وقام كل واحد من الخلفاء الثلاثة بوضع طوبة الى جوار طوبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وفقا لأسبقيته فى تولى الخلافة ، وقاموا بمساعدة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى رفع جدران المسجد . وأخبرنا الطبرى أن أحد الأنصار كان يمتلك منزلا مجاورا للمسجد ورغب محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يضمه للمسجد ووعد مالكه بأن له الجنة ان هو تنازل عنه ، لكن المالك اعتذر برقة متعللا بفقره ، مما دفع عثمان (رضى الله عنه) الى شراء هذا المنزل بعشرة آلاف درهم ، وقدمه للرسول على أن يكون له الجنة .

وكان المسجد على مساحة مربعة ضلعها مائة ذراع ، وكان له ثلاثة أبواب ، أحدهما صوب الجنوب حيث المحراب النبوى ، ولا زال موجودا فى وضعه الآن ، أما الباب الثانى فكان يوجد فى موضع باب الرحمة الآن ، والباب الثالث كان باب عثمان الذى يسمى الآن باب جبريل . وبدلا من المحراب وضعت كتلة حجرية لتوجيه المصلين صوب الكعبة (المشرفة) . وفى بداية الأمر كان هذا الحجر مواجها للجدار الشمالى للمسجد ، ثم حرك الى الجدار الجنوبى عندما أصبحت مكة هى قبلة المسلمين .

وكان النبى (صلى الله عليه وسلم) فى بداية الأمر ، يتكىء على دعامة اذا أصابه التعب أثناء القائه خطبة الجمعة . وقد اخترع رجل من أهل المدينة من بنى النجار ، المنبر . وهو هيكل خشبى طوله ذراعان وعرضه ذراع واحدة ، وبه ثلاث درجات ، ارتفاع كل منها شبر واحد ، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يجلس على الدرجة الثالثة اذا أحس بحاجته للراحة أثناء الخطبة . واتخذ المنبر شكله الحالى منذ حوالى سنة ٩٠ للهجرة ، فى عهد الوليد الذى شهد نهضة فنية .

وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) يقضى معظم اليوم فى هذا المسجد مع صحابته يتناقش ، ويعلم ويعطف على الفقراء ٠ وكانت منازل زوجات النبى وصحابته بالقرب من المسجد حيث كان يصلى ويدعو للأذان ٠ وفى المسجد كان يستقبل الوفود الأجانب والسفراء ، كما كان يأتيه الوحى من الله عن طريق جبريل (عليه السلام) ، وضمن حدود ياردات قليلا فى هذه البقعة المقدسة ، مات الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وفيها قبر ٠

ومسرح الأحداث بالغة الأهمية فى الاسلام لا يمكن أن يبقى بشكله المتواضع محتفظا بنقائه الأصلى ، خاصة اذا لم يكن هناك سبب شرعى يمنع التغيير ٠ فقد قام الخليفة الأول باعادة بضعة جذوع نخل كانت قد سقطت ٠ وهذا كل ما قام به ازاء المسجد النبوى ٠ أما عمر الخليفة الثانى فقد أحاط حجرة عائشة التى دفن فيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) بجدار من طين ، وفى سنة ١٧ هـ وسع المسجد فغدا ١٤٠ × ١٢٠ ذراعا ٠ وشملت التوسعة سائر الجهات ماعدا الجهة الشرقية حيث بيوت أمهات المؤمنين ٠ وخارج الجدار الشمالى أقام صفة Suffah تسمى البطحاء Al-Batha من خشب أو تراب أو حجارة حيث كان الناس يجلسون فوقها يتسامرون ويستشهدون بالأشعار ، لأن المسجد قد غدا الآن مكانا يحظى بتبجيل خاص ٠

أما اعادة تشييد المسجد النبوى للمرة الثانية فكانت سنة ٢٩ هـ وكان ذلك على يد الخليفة الثالث عثمان (رضى الله عنه) الذى لم يصخ السمع لاعتراضات الناس ، وهدم الجدران القديمة ووسع المبنى كثيرا صوب الشمال ، كما وسعه قليلا صوب الغرب ، لكنه لم يوسعه من الناحية الشرقية لوجود منازل خاصة ٠ وجعل السقف من خشب الساج الهندى ، وجعل الجدران من أحجار مقطعة ومنحوتة ٠ وقد أثارت هذه التجديدات بعض الاستغراب لكن عثمان أزال كل اعتراض بقبس من أقوال الرسول ومؤدى هذا القول ان مسجد النبى اذا ما اتسع حتى وصل للصفا فى مكة (المكرمة) ، فإنه يظل مسجد محمد (صلى الله عليه وسلم) وفى رواية أخرى اذا ما اتسع حتى وصل ذا الحليفة ٠ لكن مهارة عثمان (رضى الله عنه) فى الاستشهاد بأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم تمنع من أن تكون هذه التجديدات أحد أسباب مقتل عثمان (رضى الله عنه) ٠ ولقد تم الانتهاء من هذا البناء الثانى للمسجد فى أول محرم سنة ٣٠ هـ ٠

وأخيرا ، فان الاسلام ، وقد غدا منتعشا وقويا ، أبى أتباعه الا أن يبزوا الأمم الأخرى فى عظمة المبانى العامة وفخامتها ٠ ففى سنة ٨٨ هـ أصر

الوليد الأول الخليفة الثانى عشر (الأموى) أن يظهر سخاءه فى المدينة المنورة ــ بعد أن شيد ، أو بمعنى أدق أعاد تشييد ، الجامع الأموى العريق فى دمشق • فأرسل توجيها لحاكم المدينة عمر بن عبد العزيز (رضى الله عنه) ليشترى بسبعة آلاف دينار (دوكات) كل المساكن المشيدة بالطوب اللبن التى تلاصق المسجد النبوى القديم من الناحية الشرقية • وكان يقطن هذه المساكن أناس من سلامة النبى (صلى الله عليه وسلم) وسلالة الخلفاء (الأربعة) الأول ، وفى أكثر من حالة ، كان طرد هؤلاء المستأجرين يواجه بصعوبات فائقة لما لهم من مكانة بحكم انتسابهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلفائه • ففى عهد عمر (رضى الله عنه) رفضت بعض النسوة ــ حتى اللاتى اشتهرن بالعناد فى مواقف أخرى ــ أن يأخذن مالا ــ واضطر عمر (رضى الله عنه) لاتخاذ اجراء مثير للاعتراض فأخرجهن كاشفات الوجوه فى رائعة النهار (٣١) • وقد أرسل الامبراطور البيزنطى Greek Emperor مجاملة للخليفة العظيم هدايا قيمة منها سلاسل فضية لتعليق المصابيح وتحف نادرة وأربعون حملا من الأحجار الصغيرة المقطعة for pietra-dura (؟) ومبلغ ثمانين الف دينار ، وقيل أربعة آلاف مشكال Miskals ذهبا • وأرسل أيضا أربعين فنانا قبطيا وأربعين فنانا اغريقيا لنحت الأعمدة الرخامية وتغطية الجدران والاشراف على أعمال التذهيب والفسيفساء mosaic وأحد هؤلاء المسيحيين قطعت رقبته لأنه نحت صورة خنزير على جدار القبلة ، وآخر سقط على الأرض وتناثر مخه عندما كان يحاول تلويث السقف • أما الفنانون الباقون فقد أسلموا ، لكن هذا لم يمنع العرب كبار السن من التذمر قائلين ان المسجد النبوى قد تحول الى كنيسة •

أما الحجرة التى فصل فيها ملك الموت عزرائيل روح محمد عن جسده باذن منه (صلى الله عليه وسلم) (*) ، بينما كانت رأسه الشريفة فى حجر عائشة (رضى الله عنها) زوجته الأثيرة ــ فقد أصبحت الآن ــ أى الحجرة ــ جزءا من المسجد النبوى • أما السور المبنى من الطوب اللبن ، والذى يحيط بالقبور الثلاثة فقد استبدل بسور من حجر منحوت وأحيط ــ أى السور بسياج آخر ، مع وجود ممر ضيق بينهما • وهذان السوران كانا بلا باب يمكن الدخول عبره للمقابر ، أو كانت بهما كوة صغيرة صوب الشمال • ومنذ سنة ٩٠ هـ ــ كما ذكر السمهودى Samanhudi ــ لم يكن أحد يقدر على الاقتراب من هذه القبور • وأقيم على كل ركن من

---

(٣١) عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يفعل هذا ، وهذا القول ــ غالبا ــ من اكاذيب الشيعة ــ (المترجم) •

(*) المثقفون المسلمون يعلمون أن رسول الله بشر ، لم يكن يدرى ما يكسب غدا ولا متى يموت ، ولا باى أرض يموت ــ (المترجم) •

أركان المسجد مئذنة • وزيد اتساع المسجد ليصبح ٢٠٠ × ١٦٧ ذراعا وانتهى العمل فيه سنة ٩١ هـ • وعندما زار الخليفة الوليد المسجد بوصفه هذا قال لمساعده : « لم لم تشيدوه بشكل أكثر فخامة ؟ » ، فقال عمر (بن عبد العزيز) حاكم المدينة مندهشا ان جدران المسجد وحدها اكلفت خمسة وأربعين ألف دوكات •

أما اعادة بناء المسجد للمرة الرابعة فكانت سنة ١٩١ هـ على يد المهدى الخليفة العباسى الثالث الذى اشتهر فى التاريخ الاسلامى بانفاق مبالغ طائلة على الحج • لقد وسع مبنى المسجد باضافة عشرة أعمدة جميلة من الرخام المنحوت لها تيجان مذهبة فى الجانب الشمالى من المسجد • وفى سنة ٢٠٢ زاد المأمون فى الاضافات • وقد حدث أن الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى الثالث فى مصر ، واله الدروز ، صمم على سرقة جثة الرسول وصاحبيه (أبى بكر وعمر) ، فأرسل حوالى سنة ٤١٢ هـ جواسيس للمدينة (المنورة) لهذا الغرض ، وقد فشلت المهمة على أية حال وأعدم القائمون على محاولة تدنيس القبر الشريف • ويمكن استنتاج أن هدف الحاكم الفاطمى من ذلك تحويل جموع الزائرين لقبر الرسول وصاحبيه الى عاصمته ، وعلى أية حال فانه بالنسبة لشخص ظاهر الجنون كالحاكم ، من الصعب تبين دوافع هذا العمل • وفى سنة ٥٥٠ هـ تنكر اثنان من المسيحيين فى ثياب الحجاج المغاربة ، وحفرا نفقا من منزل مجاور للمسجد النبوى الى المسجد ، وتم اكتشاف قصدهما فأعدما وأحرقا حتى صارا رمادا • ويخلط المؤرخون المسلمون فيما يتعلق بهذه الحوادث بين الخرافات الغبية والأمور الصحيحة • ولمنع تكرار محاولات تدنيس هذه المقدسات ، قام - أخيرا - الملك العادل نور الدين (من سلاطين المماليك البحرية) باحاطة قبر الرسول وصاحبيه بخندق عميق وصبوا فيه رصاصا مصهورا ، وفى رواية أخرى ان الآمر بهذا العمل هو السلطان نور الدين شاهد محمود بن زنكى الذى رأى رؤيا منامية يحذره فيها النبى (صلى الله عليه وسلم) مما يعتزمه المسيحيان الآنف ذكرهما • وبهذه الطريقة تمت المحافظة على قبرى أبى بكر وعمر (رضى الله عنهما) من التدمير فقد قاما (رحمهما الله) بأعمال واصلاحات كانت تلاقى بعض الاعتراضات (٣٢) •

وفى سنة ٦٥٤ هـ كانت الاعادة الخامسة لبناء المسجد النبوى نتيجة الحريق الذى أصابه بسبب بركان انفجر بالقرب من المدينة (المنورة) • وقال آخرون - وهو قول أكثر تعصبا وأقل احتمالا - ان الحريق كان

---

(٣٢) النص : Who had run risks of their own.
واثرنا الترجمة الواردة فى المتن ليكون المعنى مفهوما - (المترجم) •

بفعل بنى حسين الشيعة (٣٣) الذين كانوا يتولون حراسة المقبرة ، وفى هذا الحريق نجت الحجرة ونسخ المصاحف القديمة المودعة بها خاصة النسخة الكوفية Cufic MSS التى كتبها الخليفة الراشد الثالث عثمان (رضى الله عنه) • وقد قام خلفاء وسلاطين بعد ذلك بالبناء والتحسين ، كالمستعصم الخليفة العباسى ، والمظفر شمس الدين يوسف حاكم اليمن ، والظاهر بيبرس سلطان مصر المملوكى البحرى (من المماليك البحرية) حتى تم البناء سنة ٦٨٨ هـ • وقام أمراء مصر بتوسعة المسجد وتجميله طوال مائتى سنة •

وتمت اعادة بناء المسجد للمرة السادسة - حيث يتخذ شكله الحالى - على يد قايدباى Kaid-Bey سلطان مصر المملوكى التاسع عشر (وهو جركسى الأصل) سنة ٨٨٨ هـ ، وعمرت بناية قايد باى أكثر من أربعمائة سنة • وكانت بناية المستعصم العباسى قد أصابتها صاعقة أثناء هبوب عاصفة ، فقتلت ثلاثة عشر من المصلين ولحق التدمير كل شىء خلا ما بداخل الحجرة (قبور الرسول وصاحبيه) • وقد أعيدت القبة والسياج الحديدى فى موضعيهما ، أما المحرب والمنبر فقد أرسلا للمسجد من القاهرة ، أما البوابات والمآذن فكانت مواضعها هى ذات المواضع الحالية ولم يكتف قايد باى بذلك وانما رتب وقفا ومعاشات لخدم القبر • وفى القرن العاشر رصف السلطان سليمان الفاخر الروضة بالرخام الأبيض الجميل ، وكان السلطان قايد باى لم يجرؤ على تغيير أرضيتها وتركها متربة كما كانت ، وأقام سليمان الفاخر مئذنة حملت اسمه •

وفى فترة حكم السلاطين (العثمانيين) المتأخرين ، وأثناء حكم محمد على قدمت للمسجد النبوى هدايا قليلة متفرقة كالمصابيح والسجاجيد والشموع والثريات ، كما أجريت فيه بعض الاصلاحات غير المهمة • وقد بنى شيخ الاسلام الحالى - كما سبق أن ذكرت احدى المآذن وأقام الرواق الشمالى للمسجد • هذا فيما يتعلق بفترات ازدهار المسجد •

وخلال حصار الوهابيين (الاصلاحيين السلفيين) للمدينة (المنورة) اقتسم قادة الحصار فيما بينهم كنوز القبر (تحفه) وكانت تقدر بمبالغ كبيرة • وعندما استسلمت المدينة (المنورة) للسلفيين (الوهابيين) دخل سعود وضباطه الى (الحجرة) لكنه لم يتجاوز الستارة المدلاة حول القبر ، بل ولم يحاول رؤية القبر ، بسبب رؤيا رآها فأخافته • وعلى أية حال فقد قام سعود بسلب التحف الموجودة فى الممر ، والكوكب الدرى وهو

---

(٣٣) النص Schismatic اى المنشقين أو المخالفين ، والمقصود الشيعة كما تعود المؤلف استخدام هذا اللفظ للدلالة عليهم - (المترجم) •

نجمة لؤلؤية وغير ذلك من الزينات والهدايا المرسلة كهدايا للمسجد من مختلف أنحاء العالم الاسلامى (٣٤) ٠ وقد باع سعود جزءا منها - كما يقال - بمبلغ ١٥٠٫٠٠٠ ريال (دولار) لغالب شريف مكة ، أما البقيـة الباقية فحملها معه الى عاصمته الدرعية وقد حدثت واقعة منعت مزيدا من انتهاك قدسية المكان ، فقد حاول الوهابيون (السلفيون) الجشعون greedy (٣٥) - وقد بهرهم منظر الكرات الذهبية أو المطلية بالذهب والأهلة المثبتة عليها فوق القبة الخضراء فحاولوا اسقاط الأهلة ، الا أن اثنين منهم قد لاقيا حتفهما بالسـقوط من السـقف الزلق أما الآخرون من المشتركين فى المحاولة فقد ملأهم الرعب فتوقفوا عن أعمال الهدم ٠ وعلى أية حال ، فقـد ألحق السلفيون (الوهابيون) الضرر بازدهـار المدينة ورخائها بفرض الضرائب على السكان ومنع الزائرين من الاقتراب من قبر الرسول ، وتعويق التحويلات المالية ٠ وكان الناس يتحدثون عنهم بمقت ، ويركزون على الأمور السيئة فى شخصيتهم بمعنى أنهم يطلبون مقابل أى عـون قليـل قدموه فى الصـلاة أو التـلاوة ، قليلا من البـارود ، أو شـيئا فى قيمتهـا ، بدلا من طلب قـرش حجـر أو ريال حجـر (Stone dolar) Kirsh or Riyal Hajar

وبعد أن قام عبد الله بن سعود سنة ١٨١٥ بتوقيع معاهدة سلام مع طوسون باشا ، قام القائد المصرى بشراء كل التحف الذهبية التى لم تكن قد صهرت بعد ، من أهل المدينة (المنورة) وأعادها الى مواضعها فى المسجد النبوى ، بعد أن دفع فيها مبلغ ١٠٫٠٠٠ ريال ٠ وسمعت أن هذا غير صحيح (٣٦) ، وفى الوقت نفسه فان رواية اعادة الجنرال المصرى للتحف الى المسجد النبوى تبدو رواية ترتكز على أساس صحيح ٠ وبين الشرقيين نجد أن أحداث الجيل الأخير غير محفورة فى الذاكرة كما يقال عادة ، بينما يحيط العلماء بتقلبات الأحداث طوال ١٢٠٠ سنة خلت دون فهم لما شهده أجدادهم ٠ وقد سمعت كثيرا من الروايات غير الموثقة عن

---

(٣٤) ذكر بوركهارت أن الاشراف كانوا لا يكفون عن سلب مقتنيات المسجد النبوى وما فعله سعود - على أية حال - كان له غطاء من العقيدة السلفية التى لا توافق على تزيين القبور أو رفعها عن الأرض أو اتخاذها محطا للعبادة - (المترجم) ٠

(٣٥) ليس جشعا وانما يعتبر السلفيون أن ذلك من قبيل البدع - (المترجم) ٠

(٣٦) من المؤكد أن طوسون باشا اشترى ما سلبه الأشراف من الحجرة الشريفة وأعاده اليها كما يؤكد ذلك بوركهارت القريب من الاحداث - (المترجم) وقـد أكد بوركهارت أيضا حادثة السقوط من فوق القبة هذه ص ٣١٢ الترجمة العربية - (المترجم)٠

الثروة الحالية للمسجد النبوى فى المدينة (المنورة) ٠ وتمثل هذا القصص مبالغات يتوقعها السامع خاصة اذا كانت تحقق فخرا وزهوا للراوى ٠

وقد تغيرت التقاليد والأعراف المرتبطة بالمسجد النبوى كثيرا منذ أيام بوركهارت نتيجة زيادة تأثير المولدين (المهجنين) الأتراك ٠ ولازالت هذه الأعراف والقوانين منتشرة لأنها – فى المقام الأول – تتضمن مبدأ العمل المقسم (المجزأ) وهو مبدأ أثير فى بلاد الشرق ، كما أن أبناء المدن المقدسة يرغبون فى استنزاف أموال أهل المدن الأخرى مقابل أقل جهد يقدمونه ٠

ولم يعد شيخ الحرم طواشيا a neuter ، فشيخ الحرم الحالى تركى هو عثمان باشا عينته استانبول Constantinpole براتب شهرى يصل الى حوالى ٣٠٫٠٠٠ قرش شهريا ٠ ونائب شيخ الحرم طواشى أسود ، وهو رئيس الأغوات ، يتقاضى راتبا قدره ٥٠٠٠ قرش ٠ والموظفون الأساسيون فى هيئة مسجد الحرم النبوى هم تايفور أغا Tayfur Agha عبد اسما سلطانة Esma Sultana أخت السلطان السابق محمود ٠ والمسئول الأول عن الأموال هو مدير الحرم (٣٧) الذى يتعين عليه أن يراقب الخازندار الذى يتقاضى راتباقدره ٢٠٠٠ قرش ٠ والمستسلم هو رئيس الكتبة ويقوم بتدوين أموال المسجد وراتبه ١٥٠٠ قرش ويخضع لرئاسته النقيب وهو مساعد له وراتبه ١٠٠٠ قرش ٠ وهناك ثلاثة شيوخ أغوات (طواشية) يتلقى الواحد منهم مبلغا يتراوح بين ٧٠٠ و١٠٠٠ قرش شهريا ٠ ويبلغ عدد الأغوات (الطواشية) حوالى ١٢٠ أغا وهم مقسمون الى فئات ثلاث : البوابون ومهمتهم فتح أبواب المسجد النبوى ، والخبزية Khubziyah وهم يكنسون أكثر المواضع فى المسجد قداسة ، أما أدنى فئات الأغوات درجة فهم البطالون Battalin ينظفون المكان من القاذورات ، ويضربون النائمين فى المسجد ، وعملهم يشبه عمل الشماسين فى الكنائس ، وهم يستخدمون العصى فى تنفيذ واجباتهم هذه٠ وهم يتلقون هدايا مفروضة من كل زائر بمجرد أن يقدموا له التحية المعتادة أو مقابل امتيازات بسيطة كالسماح للغرباء باضاءة المصابيح أو كنس الأرضية ٠ وراتب الواحد منهم (البطال) يتراوح بين ٢٥٠ و٥٠٠ قرش فى الشهر ٠ وينظر الناس اليهم باعتبارهم أمناء شرفاء ، ويقال بشكل عام انهم متزوجون ويحتفظ بعض منهم بثلاث زوجات أو أربعة ، وقد يكون

---

(٣٧) مصطلح العصر شيخ الحرم او اغا الحرم – (المترجم) ٠

تعاملهم مع زواجاتهم بشكل شاذ أو غير طبيعي (٣٨) Would have aroused juvenal's bile وشخصية الأغا غريبة وغير عادية ، تماما كتكوينه الخارجي ، فالأغا شخصية غير مرتبطة بالانسانية ، فهو قاس وشرس وشجاع وقادر على ارتكاب أية جريمة • وتركيبه غير طبيعي فهو طويل ونحيل ، خاصة ساعديه وساقيه ، وأكتافه مرتفعة ، ومفاصله ناتئة ، ووجهه ـ على العكس من ذلك ـ ضخم بشكل غير عادى • وهو عادة خبير فى استخدام السلاح ويجيد الركوب بطريقة تثير الاعجاب وصوته أجش يستثمره فى كل مهمة يدعى اليها •

والى جانب الأغوات ، هناك عدد من الخدم ، يقال لهم « الفراشون » مرتبطون بالخدمة فى المسجد النبوى ، وهم من الطبقات الوسطى والدنيا من أهل المدينة (المنورة) • وهم مقسمون الى ثلاثين جماعة ، ويتم تغييرهم كل أسبوع ويتلقى الواحد منهم ٢٢ قرشا لقاء خدماته وعمل هؤلاء الفراشين هو نفض الغبار عن السجاجيد ونشرها ووضع الزيت والفتائل فى المصابيح التى يثبتها الأغوات فى السقف وهم بشكل عام يتسامرون ويتهربون من العمل •

وأخيرا هناك شيخ السقائين ويعمل تحت رئاسته ما بين خمسة وأربعين الى خمسين رجلا ، يقومون برش الأرض ورى الحديقة ، ويقدمون أكوابا مليئة بسائل به ملوحة للزوار •

فاذا ما انتقلنا الى النظم ، وجدنا أن النظم (الوظائف) الأدبية أكثر من النظم (السلطات) التنفيذية ونظم الخدم • فهناك القاضى الذى يرسل كل عام من استانبول Constantinpole ، وبعد أن يمكث فى المدينة (المنورة) اثنى عشر شهرا يتخذ طريقه الى مكة (المكرمة) حيث يقضى اثنى عشر شهرا أخرى ، ثم يعود الى استانبول ويعمل تحت رئاسته ثلاثة مفتين : المفتى الحنفى ، والمفتى الشافعى ، والمفتى المالكى ، أما المفتى الحنبلى فليس موجودا هنا أو فى القاهرة • وكل مفت من هؤلاء المفتين يتقاضى راتبا يبلغ حوالى مائتين وخمسين قرشا شهريا • أما الرؤساء Ruasa وهو المسمى الذى يطلقه المؤذنون على أنفسهم فهم منتشرون ويبلغ عددهم ثمانية وأربعين مؤذنا أو تسعة وأربعين ، يرأسهم ستة من الكبار أو رؤساء المؤذنين ، ويرأس هؤلاء الستة شيخ الرؤساء (شيخ المؤذنين)وله وحده

---

(٣٨) فى رحلة العياشى للمدينة المنورة يقول عن الاغوات : « ... بل ولبعضهم ازواج وسرار اتخذوها للتلذذ بما سوى الجماع » المدينة المنورة فى رحلة العياشى • تاليف محمد امحزون ـ الكويت ، دار الارقم ، ١٩٨٨ ، ص ٢٣٥ ـ (المترجم) •

حق الأذان من فوق المئذنة الرئيسية ، وراتب شيخ الرؤساء مائة وخمسون قرشا شهريا ، أما الكبار (رؤساء المؤذنين)فراتب الواحد منهم حوالى مائة قرش ، أما المؤذن العادى فراتبه ستون قرشا • وهناك خمسة وأربعون خطيبا يتقاضى الواحد منهم مائة قرش وعشرين قرشا شهريا ، وهم جميعا يخضعون لرئاسة شيخ الخطباء • وهناك الأئمة الذين يؤمون الناس فى الصلوات الخمس كل يوم ويتقاضى الواحد منهم مثل راتب الخطيب تقريبا ، ويبلغ عددهم خمسة وسبعين اماما ، ويرأسهم شيخ الأئمة •

وعظم أهل المدينة (المنورة) الذين لا يشغلون وظيفة من وظائف المسجد آنفة الذكر يؤهلون أنفسهم للعمل كمزورين Muzawwirs فهم يبدءون منذ مرحلة الصبا فى تعلم صيغ الدعوات ، ومناقشة الزائرين ومساومتهم وشىء من فن الاستجداء ، وبعض من الالحاج أو الصفاقة وغالبا ما يكونون قادرين على تحصيل تكاليف معيشتهم فى سن مبكرة • والمزور غالبا ما يستقبل الزائرين فى بيته ، كما حدث معى ، ويظل يتلو الدعوات لهم وهم يرددون خلفه طوال فترة اقامتهم • ومقابل هذه الخدمات، يطلب مبلغا من المال يتناسب مع حال ضيوفه ، لكن المبالغ المدفوعة ليست نهاية الارتباط بين المزور والزائرين • فاذا زار المزور محل اقامة الزائر توقع أن يحظى بكرم بالغ وأن يخرج محملا بالهدايا القيمة • والزائر المتدين غالبا ما يرسل لمزوره فى مكة أو المدينة مبلغا سنويا ليضمن لنفسه الدعاء عند الكعبة المشرفة وعند قبر النبى (صلى الله عليه وسلم) • وعادة ما كانت تلف الأموال المحولة من الخارج فى ورقة وتوضع فى حقيبة جلدية مختومة ، ويكتب عليها اسم المرسل اليه ، وتعطى لحاج موثوق به أو للمسئول المالى للقافلة •

وليس لدى معلومات دقيقة عن المبالغ التى تصل للمدينة (المنورة) كل عام من استانبول والقاهرة ، ويبدو أن الناس يوافقون على استقطاع نصف دخولهم (جمع دخل) لهذا الغرض • وعندما تصل الصدقات والأوقاف للمدينة (المنورة) مع حامل الصرة (المسئول المالى للقافلة) تسلم للمفتين وشيخ الخطباء وكاتب القاضى • فيشكلون لجنة وبعد حصر الأسر المستحقة للمعاشات (الرواتب) Pansions تقسم الأموال بينهم ، بنسبة عدد أفراد كل بيت (أسرة) ، أما رتب المستحقين للرواتب pensionars فيقسمون الى الفئات التالية :

- العلماء والمدرسون (الذين يقومون بالتدريس فى الحرم) .

- الأشراف (سلالة النبى صلى الله عليه وسلم) .

- الفقراء ومحفظو القرآن .

- العوام (من أهل المدينة) والمجاورون (الوافدون الذين استقروا قرب الحرم) .

وينتمى عمر أفندى للفئة الثانية وقد أخبرنى أن نصيبه من الصرة يتراوح بين ثلاثة وخمسة عشر ريالا كل سنة .

الفصل الثامن عشر

المدينـــة المنـــورة

حدود الحجاز ـ اسماء المدينة المنورة ـ الموارد المالية ـ امراض المدينة ـ الطاعون ـ العرق المدينى (دودة الساق) ـ الفصول عند البدو ثلاثة ـ العرب لم يعودوا افضل الأطباء ـ الأرواح الشريرة ـ الحاميان العسكرياز ـ وصف المساكن ٠٠٠

من الصعوبة بمكان أن نحدد حدود الحجاز ، ســـواء من الناحية السياسية أو الجغرافية • فبينما نجد بعض المؤلفين ، كأبى الفداء (١) ، يحدد حده الشمالى عند ايلات Aalynt (قلعة العقبة) وحده الجنوبى عند الصحراء اليمنية ، نجد مؤلفين آخرين يجعلون الحجاز لا يتعدى الأراضى الواقعة بين مكة (المكرمة) والمدينة المنورة • وليس للحجاز حدود طبيعية ، أما حدوده السياسية فتتغير من جيل الى جيل • وربما كان أفضل تحديد لحدود الحجاز هو ذلك التحديد الذى يجعله يضم كل الأرض المقدسة بحيث تكون ينبع حده الشمالى وجـدة حده الجنوبى ، بينما يشكل الخط بين المدينة (المنورة) والشـــويرقية وجبل قرى Jabal Kora ـ جبل الطائف The mountain of Taif ، حده الشرقى • وعلى هذا ، فالحجاز أشبه ما يكون بمتوازى أضلاع غير منتظم يبلغ طول ضلعه مائتين وخمسين ميلا ، واقصى عرض له مائة ميل وخمسين ميلا •

---

(١) جعل ابو الفداء الحد الشرقى للحجاز عند اليمامة (نجد) وجعـل جـزءا من اليمامة تابعا للحجاز ، كما جعل الصحراء السورية جزءا شماليا ، اما حد الحجاز الغربى فهو البحر الأحمر • اما الاغريق فكان لديهم من الأسباب ما جعلهم يعتبرون الحجاز ضمن بلاد العرب الصخرية (البتراء العربية) Arabia Petraea • اما نيبور Nebuhr فجعل الحد الجنوبى للحجاز عند حلى Hali وهى مدينة صـغيرة جنوب القنفذة Kunfudeh • اما الكابتن هيد Head (الذى قام برحلة من الهند الى أوربا) فقد جعل قرية القصر Al-Kasr المواجهة لجزيرة Kutambul هو الحد الجنوبى للحجاز •

وثم تفسيران لاسم الحجاز ، هذا الاقليم المقدس ، فمعظم المؤلفين يرون أن اسم الحجاز يعنى الحاجز بين نجد وتهامة أو بين اليمن وسوريا ٠ ومؤلفون آخرون يرون أن اســم الحجاز يعنى المنطقة التى تحجزها أو تجمعها الجبال ٠ ويلاحظ أن أهل البلاد ، خاصة من كان منهم من البدو يميزون بين الأراضى المنخفضة والمناطق المرتفعة ، اذ يســمون المناطق المنخفضة تهامة الحجاز ويقصد بها الشريط الساحلى للحجاز (٢) ، على نحو ما نقول فى الهند « أسفل الجات below the Ghats أما المنـاطق المرتفعة فتعرف على نحو خاص باسم الحجاز ٠

وتقـع مدينة النبى (٣) (صـلى الله عليه وسلم) كمـا يسميها المؤمنون على حدود نجد فوق الهضبة الواسعة التى تشكل وسط شبه

---

(٢) اذا سالت بدويا بالقرب من مكة (المكرمة) من أين تاتيه فاكهة فانه سيجيب قائلا (من الحجاز) وهو يعنى بذلك المناطق الجبلية القريبة من الطائف وربما كان فى هذا دليل يؤكد قول القائلين بأن الحجاز كلمة تعنى الأماكن المرتبطة معا بواسـطة الجبال ، a place tied together by mountains ٠ والجدير بالذكر أن البدو هم أفضل من يستخدم الكلمات القديمة والتى يثور الجدل حول معانيها ٠

(٣) اطلاق أسماء كثيرة على الشىء أو الشخص دليل على عظمته ووقاره خاصة عند بعض الشعوب كالعرب والاسبان ، لذا فالمدينة اسمها طيبة (بكسر الطاء) وطيبة (بفتح الطاء وتسكين الياء) والمطيبة (لأن قبر الرسول طيبها) وطابه (من طاب الشىء)، وكانت تسمى قبل هجرة الرسول اليها يثرب ٠٠ وينقل بيرتون نصا طويلا من كتب التراث عن أسماء المدينة رأينا من الوضوح بمكان أن نرجع نحن مباشرة لكتب التراث ، ومن ذلك ما ننقله عن « الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة » للمؤرخ ابن النجار (٥٧٣ ــ ٦٤٧ هـ): « وتسمى أيضا طابه والمسكينة وجابرة والمجبورة والمرحومة والعذراء والمحبة والمحببة والقاصمة » وزرعم بعض الرواة عن كعب انه قال : « نجد فى كتاب الله الذى نزل على موسى عليه السلام : يا طيبة يا طابة يا مسكينة لا تقبلى الكنوز ارفعى اجاجيرك (المفرد أجار ويعنى السطح) على اجاجير القرى » وفى صحيح مسلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن « الله سمى المدينة طابه » وفى البخارى ومسلم « هى المدينة يثرب » وكانت يثرب اهم قرية فى المدينة ٠ قال أبو عبيـدة بن المثنى : « يثرب اسـم أرض ومدينـة النبى صلى الله عليه وسلم فى ناحية منها » ٠ وقال ابن زبالة : « كانت يثرب أم قرى المدينة وهى ما بين طرف « قناة » الى طرف « الجرف » ٠٠ وكانت « زهرة » من أعظم قرى المدينة ٠٠ وقيل ان تبعا لما قدم المدينة أتاه من قال له : أما قناة (قرية من ضواحى المدينة فحب ولا تبن ، وأما الحرار (جمع حرة وهى الصخرة السوداء) فلا حب بها ولا تبن ، وأما الجرف فالحب والتبن ٠ قال أهل السير : ان أول من نزل المدينة بعد الطوفان هم صعل وفالج فغزاهم داود النبى فأخذ منهم مائة الف عـذراء ٠٠ وقالوا كانت العمـاليق قد انتشروا فى البلاد فسكنوا مكة والمدينة والحجاز ٠٠ الخ.

(مختصر عن الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة لابن النجار)

(ولا يخرج ما ذكره بيرتون فى تعليقه عن ذلك) ــ (المترجم) ٠

الجزيرة العربية (٤) · وحدود هذه المنطقة المقدسة المسماه حدود الحرم، هى كما حددها الرسول (صلى الله عليه وسلم) لازالت كما هى تحدد سهل المدينة (المنورة) ، فهى تمتد (أى حدود الحرم) الى الشمال على بعد ثلاثة أميال حيث يقع جبل أحد (أو جبل ثور Sour وفقا لما يقوله البعض) وجبل ثور تل يقع خلف جبل أحد بمسافة غير بعيدة (٥) (وتلك هى آخر ضلوع سلسلة القمم الجبلية التى تمتد من الطور الى قرب عدن ثم تتجه الى مسقط لتحف بذلك شبه الجزيرة العربية التى تتخذ شكل شبه منحرف) أما من ناحية الجنوب الغربى فيحد سهل المدينة (المنورة) حيود من بازلت شكله خبث البراكين ونتوء صخرى يطلق عليه جبل عير Ayr يقع على بعد حوالى ثلاثة أميال من المدينة (المنورة) ، مثله فى ذلك مثل جبل أحد · أما الحد الغربى ـ وفقا لما يقوله بعض الباحثين ـ فمسجد ذو الحليفة · أما من ناحية الشرق فليس هناك حد طبيعى ، ولا حتى حد صناعى ، كحد العلمين فى مكة (المكرمة) ، وانما هناك خط وهمى ، هو جزء من دائرة غير منتظمة تقع المدينة (المنورة) فى مركزها ، ويتراوح قطر هذه الدائرة ما بين عشرة أميال واثنى عشر ميلا · وكل ما هو داخل فى نطاق هذه الدائرة منطقة حرام · أما من الناحية الجغرافية ، فيعتبر الحد الشرقى للسهل هو الخط الذى تمثله التلال الداكنة والمنخفضة التى يقطعها الدرب الشرقى عبر نجد الى مكة (المكرمة) · والى الجنوب نجد الهضبة مكشوفة مستوية ـ فى غالبها ـ على مدى البصر ·

ويعود أصل المدينة (المنورة) بدون شك لأزمنة قديمة ، ويرجع سبب رخائها الى وفرة امدادات المياه بها ، فالمياه ـ رغم ضرورتها ـ الا أنها نادرة فى بلاد العرب بشكل عام · أما عن تكوين الهضبة فهى فى بعض المواضع رمال ملحية ، لكنها عادة (أى الهضبة) من طباشير أبيض ورمال اختلطت بطفل أو طين يصنع منه طوب من نوعية غير ممتازة رغم المعالجة اليدوية العنيفة لخليط الطين والطفلة · ويتوفر الجير أيضا فى الهضبة ·

---

(٤) هضبة نجد ـ (المترجم) ·

(٥) ورد فى كتاب الدرة الثمينة فى تاريخ المدينة لابن النجار عن أبو داود السجستانى فى السنن من حديث على بن أبى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم : « المدينة حرام ما بين عير الى ثور ، فمن أحدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس ، لا يقبل الله منه صدقا ولا عدلا ، ولا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ، ولا تلتقط لقطتها الا لمن انشدها ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح الا لقتال ولا يصلح أن تقطع منها شجرة الا أن يعلف رجل « بعيره » وفى الصحيحين (البخارى ومسلم) « المدينة حرم ما بين عير الى ثور ·· » (المترجم) ·

وتقع المدينة (المنـــورة) على رصيف منحدر انحدارا هينا من الســـهل gently-Shelving part of the plain ، جانبه المنخفض عند القاعدة الجنوبية لجبل أحد ، وتسمى هذه الناحية بالمسفلة أو السافلة بينما تسمى الناحية الأخرى المرتفعة بالعوالى ، وهى السهول المحيطة بقباء والمناطق الشرقية ٠

وفى بعض الأحيان يجتاح الســيل الأســوار الجنوبية والجنوبية الشرقية للضاحية ، فالسيول المتجمعة بعد هطول الأمطار تجرف المرتفعات الغربية والشرقية على سواء ٠ وينساب الماء صوب منطقة الغابة وهى أرض منخفضة فى التلال الشمالية والغربية وتقع خلف جبل أحد ، على مسافة يسيرة ٠ ويتلقى هذا الحوض ما تصرفه اليه الجبال والسهل من مياه ، سواء بامتصاصها (تسربها اليه من باطن الأرض) أو بتجميعها ، فاذا ما زادت كمية المياه انسابت الى البحر ٠ ورغم أن المياه متوفرة الا أنه من النادر أن تكون طيبة ٠ وفى أيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان أهل المدينة يستخدمون مياه الآبار ، ولازال سبع منها مشهورة بين أهل المدينة (٦) ٠ ويذكر المؤرخون أن الخليفة الثانى ، عمر بن الخطـــاب (رضى الله عنه) قد أمد المدينة (المنورة) بالمياه عن طريق قناة تمتد من الأنحاء الشمالية للسهول ٠ أما المدينة المنورة الحالية ، فيأتيها ماؤها من العين الزرقاء (٧) التى يذكر بعضهم أنها عند سفح جبل عير Ayr ويذكر آخرون ـ وهو القول الأكثر احتمالا ـ أنها تقع فى بساتين النخيل فى قباء ٠ وقد جلب ماء هذه العين للمدينة (المنورة) للمرة الأولى فى أيام الخليفة الأموى مروان ٠ ومياهها الآن تنساب فى قناة تحت الأرض (قناة مغطـاة a Subterraneous Canal) بمسافة ثلاثين قدما ، وفى المواضع التى تكون فيها المياه مكشوفة (معرضة للهواء) يمكن الوصول اليها بالنزول على درجات (أو سلالم) أعدت للتيسير على الناس فى الوصول الى الماء ٠ وهذه القناة التى تجرى تحت الأرض ، تم انجازها فى عهد السلطان سليمان الفاخر ٠ وتجرى هذه القناة عبر المدينة المنورة ثم تتجه شمالا بغرب ، ويحدد مجراها بجدران دائرية تنتصب عالية مثلها فى ذلك مثل القاريز Kariz فى أفغانستان ، فهذه القواريز (جمع قاريز) تقع على مسافات متفاوتة ، وتبدو للرائى كأنها آبار ٠ وتتلاشى قناة المدينة المنورة هذه فى بساتين النخيل ٠ وأثناء اقامتى فى المدينة (المنورة) كنت أشرب دائما

---

(٦) ذكرنا شيئا عنها فى الفصل (التاسع عشر) ـ (بيرتون) ٠

(٧) يذكر بيرتون أن العرب يستخرجون من هذه العين مادة يضيفونها للكحل ويقول انه سمع بعض العرب يقولون انها قد وضعت فى عينيها اسمد Ismid وهى مادة صفراء ، ويقول انه لا يعرف تكوينها ـ (موجز تعليق بيرتون) ٠

من هذا الماء الذى بدا لى حلو المذاق صحيا ، كما يقول الناس هنا (٨) ٠ وفى المدينة (المنورة) آبار كثيرة ، فالمياه توجد تحت سطح التربة على عمق حوالى عشرين قدما ، الا أن الآبار التى يستخرج منها مياه تصلح للشرب قليلة ، فبعضها مياهها مالحة ، وبعضها الآخر فى مياهها مرارة ٠ وفى مناطق التلال شرق المدينة (المنورة) من المالوف أن تمد القيعان العريضة الواقعة بين التلال ، المسافرين بمياه وفيرة ليوم أو يومين ، حتى فى موسم الجفاف ، حيث وجد المياه بين الرمال ، بل وأحيانا نجدها تجرى تحتها ٠ ومناخ السهل مشهور بشتائه الطويل والقارس ، فالقول الشائع بين الناس يسجل رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن « من صبر على برد المدينة وحر مكة يستحق الجنة » ٠ ولم أر جليدا بالمدينة (المنورة) وان كان من المحتمل أن يكون مألوفا فوق جبل أحد ، كما يقولون ، ويشعل الناس النار داخل بيوتهم خلال فصل الشتاء ، فالشلل يصيب كل من أقدم على الاستحمام بماء غير دافيء ـ طيشا منه ورعونة ٠ وطبيعة أهل المدينة المعتدلة تجعلنا لا نستبعد ما يقولونه عن الشلل الذى يسببه البرد ٠ والرياح الباردة والعاصفة التى تهب من الصحراء الشرقية تحدث فى المدينة (المنورة) أذى وازعاجا ٠ ورغم أن جبل أحد يحمى المدينة المنورة من ناحية الشمال والشمال الشرقى ، الا أن الفجوات بين الجبال الى الشمال الغربى تملأ الهواء فى أحيان بالزوابع الفجة والباعثة على الضيق ٠ وتبدأ الأمطار فى شهر أكتوبر ، وتستمر ستة أشهر ، تتخللها فترات انقطاع للمطر ـ غير قليلة ، وتمطر السحب المتجمعة بالقرب من قمم التلال والأشجار القريبة من المدينة (المنورة) بعنف ، وفى فترة الاعتدالين تصبح العواصف البرقية أمرا مألوفا ٠ وفى هـذه الأوقات يكون بر المنـاخة ـ وهو المساحة المكشوفة بين المدينة المنورة وضواحيها ـ صفحة مغطاة بالمياه ، أما الأراضى القريبة من السور الجنوبى والجنوبى الشرقى للضاحية فتغدو بركة ٠ وعلى أية حال ، فلا أحد هنا ينظر للأمطار نظرة كارهة ، فهم يتوقعونها بسرور ، على عكس أهل مكة والقاهرة ، فأهل المدينة ينتظرون الأمطار التى تجعل محصول التمور والفاكهة طيبا وفيرا ٠ وعادة ما يهطل المطر ليلا فى موسم الشتاء ، أما فى الربيع فيكون هطوله صباحا ، أما فى الصيف فيهطل مساء ٠ هذا بالنسبة لمنطقة الحجاز ، وقد وضح الشاعر لبيد (٩) ذلك فى هذه الأبيات الشعرية التى تصف طللا :

---

(٨) خلط بوركهارت بين العين الزرقاء من ناحية وبير الخاتم من ناحية اخرى (او بئر قباء) وشكا من طعم ماء المدينة غير المستساغ ٠ والحقيقة ان بيرتون كان مريضا فى ذلك الوقت ٠٠٠ الخ ـ (موجز تعليق بيرتون) ٠

(٩) أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامرى من هوازن قيس ٠ ومعلقته هى رابعة المعلقات ـ (المترجم) ٠

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع (١٠) الريان (١١) عرى (١٢) رسمها
خلقا كما ضمن الوحى سلامها
دمن تجرم بعد عهد أنيمها
حجاج (١٣) خلون حلالها وحرامها (١٤)
رزقت مرابيع (١٥) النجوم وصابها (١٦)
ودق(١٧) الرواعد(١٨)جودها فرهامها (١٩)
من كل سارية (٢٠) وغاد مدجن (٢١)
وعشية متجاوب ارزامها (٢٢)

وسيلاحظ القارىء الأوربى أن العرب ـ بشكل عام ـ ينظرون للفصول على أنها ثلاثة اذ يدمجون فصل الخريف عندنا فى فصل الصيف عندهم • والطقس الحار فى المدينة (المنورة) بدا لى متطرفا كبرد الشتاء كما وصفته آنفا ، الا أن الهواء كان جافا ، ولأن السهل مكشوف فقد جنب المدينة الجو الراكد الخانق المشبع بالرطوبة الذى يعد من خصائص مناخ

---

(١٠) اماكن يندفع منها الماء من الربى •
(١١) جبل معروف •
(١٢) اى عرتها السيول •
(١٣) جمع (حجة) وهى السنة •
(١٤) اشارة للأشهر الحرم •
(١٥) مرابيع النجوم : الانوار الربيعية وهى المنازل التى تحل فيها الشمس فى فصل الربيع ، والواحد) مرباع •
(١٦) الصوب : الاصابة •
(١٧) الودق هو المطر •
(١٨) ذات الرعد •
(٣٩) الرهام : المطر الذى فيه لين •
(٢٠) السحابة الممطرة ـ (المترجم) •
(٢١) الملبس آفاق لاسماء ـ (المترجم) •
(٢٢) الارزام : التصويت ـ (المترجم) •

مكة (المكرمة) . بل وأكثر من هذا ، فرغم أن فترات ما بعد الظهيرة كانت راكدة ، الا أن فترات الليل والصباح كانت باردة ومنعشة . وفى هذا الفصل ينام أهل المدينة على الأسطح أو أمام منازلهم على الأرض . ويحذو الغرباء حذو أهل المدينة مع قدر كبير من الحذر ، فان كان النوم فى الجو المكشوف فى الصحراء ، آمنا لا خوف منه ، فان النوم فى الهواء المكشوف داخل المدن يسبب للشخص الذى لم يتعود عليه نزلة والتهابات حادة فى الأغشية المخاطية ، وحمى .

وقد جمعت الملاحظات التالية عن الأمراض وعلاجها فى شمال الحجاز . فقد أصيبت المدينة المنورة أربع مرات بالكوليرا الآسيوية أو « الريح الأصفر » التى يقال انها ألحقت أضرارا بالغة ، فقد قضت فى بعض الأحيان على أسر بأكملها . ففى « الرحمة الكبيرة » وهو التعبير الذى يطلقونه — من باب التقوى والرضا بالقضاء والقدر — على حالة المصاب عندما يتقيأ ، فمعنى تقيؤه أن عليه أن يرضى بقدره ، وقبل ذلك فانهم يعالجونه بالنعناع وعصير الليمون وجرعات كثيرة من القهوة . ولازال أهل المدينة المنورة يتباهون بأن الطاعون ، أو التون كما يسمونه ، لم يصب المدينة فى أى وقت من الأوقات . أما الجدرى فيبدو متوطنا على سواحل البحر الأحمر ، وانا لنقرأ عنه فى الكتب التراثية العربية . وحتى فى أيامنا هذه فان الجدرى يهاجم سكان الجزيرة العربية والصومال بعنف مدمر . وفى المدينة (المنورة) يبدو الجدرى قدرا محتوما للأطفال ، الا أن كثيرا منهم بدءوا يتلقون تطعيما ضده فى هذه الأيام . ويموت كبار السن من البدو من هذا المرض ، أما البالغون من البدو فقلما يصابون به فى الصحراء أو المدينة على سواء . وتقوم الممرضة باغلاق غرفة المريض أثناء طلوع الشمس ، ويتحاشون بعناية فائقة هواء الليل ، لاعتقادهم أنه مادام المرض (حارا) فان تنفس هذا الهواء سيؤدى الى ايراد المريض موارد التهلكة . وفى الليل توضع دائما شمعة موقدة أو مصباح الى جانب سرير المريض . والا مات المريض بالجنون الذى تسببه له الأرواح الشريرة أو الخوف . ويحرقون صوف الأغنام فى غرفة المريض لأن الموت قد يتبع رائحة الدخان . والعلاج الوحيد الذى سمعت به للجدرى هو الكحل المسحوق يشرب بعد وضعه فى الماء ، وتكحيل جفون العين اتقاء للعمى ، وتناول وجبات من العدس وتمور البرنى ، وفى اليوم الواحد والعشرين يستحم المريض بالملح والماء الفاتر .

أما مرض الرمد فنادر . وفى الصيف تنتشر الحمى المعاودة (أو حمى الورد Quotidian & tertian fever) . واذا كانت مصحوبة بقىء أو تسمم emetis كان لها ضحاياها . ويبدأ هذا المرض عادة بنوبة

برد وتعقبه الحمى • والعلاج الأساسى لهذا المرض هو الأشربة الباردة وعصير الفاكهة (٢٣) • وبعد الحمى يتورم الوجه والبطن ، وتظهر على السيقان والبطن نتوءات قاسية • وهناك نوع آخر من الحمى الخفيفة يطلق عليها ببساطة اللفظ المعتاد : حمى ، وعلاجها المعتاد هو احراق البخور وقراء التعويذات (٢٤) فى غرفة المريض • والشكوى من اليرقان jaundice واختلال وظائف الكبد من الأمور الشائعة ، ويعالجون اليرقان بطريقة خاصة ، اذ يجعلون المريض ينظر فى آنية مليئة بالماء بينما يقوم طارد الأرواح الشريرة (الشيخ أو المشعوذ) بتلاوة الرقى ، ويسحب رأسى ابرتين من أذنى المريض على طول عينيه وأسفل وجهه ، ثم يغمس الدبوسين فى الماء فيغدو — أى الماء — مصفرا • وآخرون يجعلون المريض ينظر فى مرآة سحرية (٢٥) فيشفى المريض • والدوسنتاريا من الأمراض المألوفة فى موسم الفاكهة عندما يقوم العرب النهمون بالتهام كل أنواع الفاكهة التى لم تنضج بعد ، كالخوخ والعنب والرمان • والعلاج الشائع للدوسنتاريا هو الكى • وفى محاولة لتوخى الخطى العلمية فهم يستخدمون المسهلات والقوابض البسيطة ، كما يستخدمون بذور القطن بعد تحميصها وطحنها ووضعها فى الماء الدافىء ليشربها المريض • ويعانى كل الناس هنا ، كما فى مصر ، من النزيف بدرجات متفاوتة Haemorrhoids ويعالجونه بتناول وجبات من البيض والكراث وبعقاقير مختلفة كلسان الحمل وهو الاسم المحلى لنبات الأملج Myrobalar •• الخ لكن المريض ينظر بفزع للمقصات والسكاكين فنادرا ما يشفى شفاء تاما (٢٦) • أما فيلاريا العرق المدنى ويسمى هذا المرض محليا باسم فارانتيت فلم يعد شائها فى المواضع التى أسمته (أى هذا المرض) باسمه الأوروبى • وعلى أية حال ففى ينبع يعانى الناس من ظهور الأوردة فى سيقانهم ، ويعالج المريض بهذا المرض ، بالطريقة نفسها المعروفة فى الهند والحبشة ، فعندما يبرز الورم للعيان ، ويمكن رؤية الدودة فانه يتم استخراجها شيئا فشيئا بلفها على عود خشبى رقيق • أما داء الكلب (رهبة الماء أو الهيدروفوبيا) فنادر ، ولدى

---

(٢٣) ضرب بيرتون مثلا بالأشربة الباردة مشروب Sikanjabtn "such as sikanjabin" ولم يستطع المترجم التعرف على هذا المشروب • ولعل المقصود شرش الجبن — (المترجم) •

(٢٤) النص احراق التعويذات burning charms لكننا آثرنا ما أوردناه فى النص لقربه من المعنى — (المعنى) •

(٢٥) كذا فى النص •

(٢٦) المعنى غير واضح تماما — (المترجم) •

الناس كثير من الخرافات عنه ، فهم يرون قطعة لحم تسقط من السماء فاذا أكلها كلب غدا مجنونا • وقد أكد لى أناس محترمون أنه اذا عض كلب مسعور انسانا حبسوه بمفرده فى غرفة فيها طعامه لمدة أربعة أيام ، واذا استمر ينبح كالكلب بعد هذه المدة فانهم يطردون الغول (أو الشيطان) من داخله بأن يسكبوا عليه ماء مغليا مخلوطا برماد الخرائب • ومن اليسير على أن أصدق هذا العـلاج الناجع • ويعرف الحجازيون البرص الذى يظهر على شكل بقع بيضاء على الجلد ، ونادرا ما يصيب أحدا من غير الطبقات البائسة ، ويعتبرونه مرضا غير قابل للشفاء ، ويعالجون الجروح بالمراهم خاصة البلسم المكى ، ويلفون حول الجرح قطعة قمـاش ولا ينزعونها حتى يلتئم • والبلسم المكى هو أول دواء يفكر فيه هؤلاء الناس ذوو الحياة البسيطة • والقرحة Ulcers شائعة فى الحجاز ، وفى كل شبه جزيرة العرب • ونقرأ عنها منذ العصر الجاهلى ، ففى سنة ٥٠٤ للميلاد مات الشاعر المحارب عمرو القيس بهذا المرض المخيف ، ويقال ان محمدا أبو سى محمد عندما فتح اليمن بجيش من الحجاز سنة ١٣٢ هـ وجد أهل اليمن يعانون من قرحات غائرات غنغرينية ، وكان منظرها بشعا جدا لدرجة أن هذا القائد أمر باحراق المصابين أحياء الا أنه من حسن حظ هؤلاء المرضى ، أن المنية قد وافت هذا القائد قبل تنفيذ أوامره التى لا تتسم بالانسانية •

وهذه القرح هنا ـ كما فى اليمن ـ تغدو فى أسوأ حالاتها عندما تكون على عظمة الذقن ، وتتغلغل هذه القرح عميقا فى ساق المريض ، فيصاب بالحمى والغنغرينة فتوافيه المنية • ويعالجون القرحة عند بداية ظهورها بالكى الشديد • وعندما يقطعون العضو المصاب ، فان العقاقير التى يشيع استخدامها بينهم فى هذه الحالة هى التوتيا والزنجار (صـدأ النحاس) • وليس من علاج سـوى الراحة والوجبات الجيدة وتغيير الهـواء •

ومن خلال ما ذكرناه آنفا بايجاز يصبح من الواضح أن العرب لم يعودوا أبرع الأطباء فى العالم • وعلى أية حال ، فان لديهم ميزة واحـدة عظيمة فى ممارستهم ، كما أن لديهم حسا ووعيا كافيين ، فأطفال غالب أهل المدينة المحترمين ، يرسلون الى الصحراء ليقيموا فى خيام تصبح بالنسبة لهم قريتهم الوطنية ، وفى حالات الجروح القاسية أو الأمـراض المزمنة يؤمر المرضى بالانعزال فى خيام سود حيث يعيشون كبدو ، ويشربون حليب النوق (والوجبة من حليب النوق تسبب اسهالا شديدا فى الأيام الثلاثة أو الأربعة الأولى) ولا يؤدون أى عمل • وقد وجدت هذه الممارسات فى شبه الجزيرة العربية منذ أزمنة سحيقة ، بينما لم تبدأ أوروبا الا قريبا ،

فى تنظيم رحلات تغيير الهواء ، والتدريبات الرياضية ، وممارسة الحياة البسيطة . وحتى الآن فاننا فى أوروبا مضطرون لحجب أهمية كل ذلك تحت ستار من الدجل والشعوذة كتبنى فكرة العلاج باللبن فى سويسرا ، والعلاج بالماء فى سيليزيا ، والعلاج بالعنب فى فرنسا ، والعلاج بالجوع (الرجيم) فى ألمانيا وغير ذلك من المسميات التى لها فعل ذر الرماد فى العيـــون .

وتتكون المدينة المنورة من ثلاثة أجـزاء : المـدينة ذاتها ، والقلعة وضاحية ، مساحتها أصغر بقليل من اجمالى مساحة الأجزاء الثلاثة . والمدينة ذاتها أكبر من السويس بحوالى الثلث ، أو نصف مساحة مكة تقريبا . وللمدينة سور بيضاوى غير منتظم ، به أربع بوابات . فالباب الشامى فى الجانب الشمالى الغربى للسور يفضى الى جبل أحد وقبر حمزة (رضى الله عنه) والجبال . وباب الجمعة فى السور الشرقى يفضى الى الدرب النجدى (الطريق المؤدى لنجد) ومقبرة البقيع . وبين الباب الشامى وباب الجمعة تجاه الشمال ، يوجد باب الضيافة . أما الباب المصرى فيقع الى الغرب ويفضى الى سهل يسمونه بر المناخة . والبابان الشرقى (باب الجمعة) والمصرى قد شيد عليهما مبنيان ضخمان جميلان ، لكل منهما برجان متقاربان دهنا على شكل أشرطة عريضة حمراء وصفراء وألوان أخرى ، وهذان البابان لا يبعدان فى شكلهما عن المدخل القديم لقلعة (صلاح الدين) فى مصر التى تفضى (أى القلعة) الى سهل الرميلة (٢٧) . ويمكن مقارنة هذه البوابات بأبواب القلاع النورماندية ذوات الأبراج ، كبوابة قلعة أركز على سبيل المثال . ويقيم العسكر داخل هذه الأبراج حيث الظل والماء الوافر ، وداخل هذه الأبراج أيضا يتســـامر الجمالة (قادة الجمال) ويتجمع الذين لا عمل لهم ليستمتعوا بالجو البارد والصحبة الأنيسة . وخلف هذه البوابة توجد سوق كبيرة فى الشارع المؤدى للمسجد (النبوى) . وخارج هذا الشارع توجد سوق الخضرية (باعة الخضروات) وسوق الحبابة (باعة الحبوب) ، وتتناثر المقاهى الجميلة . وهذه الأسواق عبارة عن صفوف طويلة من أكواخ شادوها من الجريد وقد اسودت لطول تعرضها للشمس والريح ، ولها منظر حقير وقذر ، ويشكل منظرها تناقضا حادا مع منظر البوابات . وبين هذه الأكواخ يوجد مبان مقببة (لها قباب) ومطلية باللون الأبيض أخبرونى أنها سبل ماء . وفى أيام الرســـول (صلى الله عليه وسلم) لم تكن المدينة (المنورة) مسورة . وحتى فى أيام الادريسى (القـرن الثــانى عشر للميـــلاد) بل وحتى أيام بارتيما

---

(٢٧) ميدان الرميلة أو صلاح الدين الآن – (المترجم) .

Bartema (٢٨) (القرن الثامن عشر للميلاد) كانت التحصينات والأســوار من الطين وكان قد أقامها قاسم الدولة الغورى الذى أعاد تسكينها واعمارها • والآن ، فان السور فى حال ممتازة اذ هو مبنى من الجرانيت والكتل الصخرية البركانية قد صف بضها فوق بعضها الآخر باحكام ، وثبتت بالجبس وقد زود السور بعدد من المزاغل Mazaghel أو المتاريس والمزغل أو المتراس عبارة عن كوة أو فتحة طولية ، والشراريف Shararif فتحات تتخذ الواحدة منها شكل ثلاث من أوراق الشجر ، لاستخدامها فى اطلاق النار ، وأبراج نصف دائرية قد زودت أيضا بفتحات طولية وكوات (مزاغل وشراريف) منظمة بحيث تكون المسافات بينها قصيرة ، وغير متساوية • وفي الداخل ، نجد الشوارع ـ كما هو متوقع دائما فى هذه البلاد الحارة ـ مظلمة وضيقة ، وليست مرصوفة الا فى مواضع قليلة ـ وهو أمر يبعث على الاستنكار ـ وهى مغطاة ـ بشكل عام ـ بأتربة سوداء قد رشت بالماء جيدا ودكت بعناية لتكون صلبة ، وأفضل الطرقات وأكثرها تلألؤا هى التى تؤدى للمسجد (النبوى) • ولا يوجد الا القليل من المبانى العامة • والوكالات الرئيسية أربع ، احداها وكالة باب السلام بالقرب من الحرم النبوى ، والأخرى هى وكالة جبرتى وكلتاهما داخل الباب المصرى ويمتلكهما غرب من أهل المدينة • وخانات القوافل هذه تستخدم بشكل أساسى كمخازن ، ونادرا ما تستخدم كمقر للاقامة كما فى خانات القاهرة لذلك ، فلابد أن يستأجر المسافرون منازل بمبالغ باهظة أو ينصبوا خياما ويتحملوا عناء الارهاق والازعاج البالغ • والمبانى العامة الأخرى عباة عن مقاه قليلة بائسة ، وحمام رائع فى حرة زروان داخل المدينة (المنورة) يتفوق كثيرا على منشآت القاهرة غير النظيفة ، ففيها من فخامة وترف منشآت اسطنبول بعض الشىء • والمنازل فى الناحية الشرقية حسنة البناء مسقوفة بسقوف مستوية ، ومن طابقين ، والمواد المستخدمة فى البناء عادة هى خام البازلت والطوب الأحمر وجذوع النخل • وأفضل المنازل تلك التى تحيط بها باحات وحدائق صغيرة بها آبار ، حيث تسر عيون ملاكها بمناظر احواض الماء والنخيل • والمشربيات (الشرفات المقفلة بخشب مثقب) التى وقعت عليها عيون سكان البر الأوروبى لأول مرة فى مالطة ـ شائعة هنا ، أما النوافذ فمجرد فتحات فى الجدران مزخرفة بالزخارف العربية المعتادة في المدن العربية ، ولها (ضلف) خشبية لاغلاقها • وسرعان ما سقطت المدينة المنورة فى أيدى

---

(٢٨) المقصود فارتيما (الحاج يونس المصرى) وقد نشرت الترجمة الكاملة لرحلته في سلسلة الالف كتاب الثانى ـ (المترجم) •

الوهابيين (السعوديين) وبعد استعادتها ، سرعان ما ازدهرت ، أما الآن ، فمن المحتمل أن تكون مدينة صغيرة مريحة ومنتعشة كأية مدينة على شاكلتها فى الشرق • فيها ما بين خمسين الى ستين شارعا بما فيها المجازات الضيقة alleys • وفى المدينة (المنورة) حوالى هذا العدد نفسه من الأحياء ، الا أننى لم أدون أسماءها • ويوجد داخل المدينة (المنورة) قليل من المنازل المتهدمة (الخربة) • وتقدر أفضل المصادر تعداد سكان المدينة (المنورة) بحوالى ١٥٠٠ (ألف وخمسمائة) نفس داخل السور ، وحوالى ألف نفس خارج السور • وأظن أن كلا التقديرين مبالغ فيه ، فالرقم الأول قد يكون ٨٠٠ (ثمانمائة) ، أما خارج السور (فى المناخة) فربما كان الرقم المقبول هو ٥٠٠ (خمسمائة) ، وفى الوقت نفسه لابد أن أعترف أننى لم أحصهم ، وقد ذكر الكابتن سدلر Sadlier (فى سنة ١٨١٩) أن الأتراك الذين كانوا قد أجروا نوعا من الاحصاء قد قدروا عدد المنازل بستة آلاف منزل ، وعدد السكان بثمانية عشر ألفا • واذا افترضنا أن عدد السكان ١٦٫٠٠٠ (رفع بوركهارت عدد السكان ليصل بهم الى ٢٠٫٠٠٠) منهم ٩٠٠٠ يقطنون المدينة ذاتها ، و ٧٠٠٠ فى الضواحى والقلعة ، فمعنى هذا أن فى كل منزل ما يزيد قليلا عن ١٢ نفسا وهو تقدير مقبول بالنسبة لمدينة عربية حيث المساكن واسعة والعبيد كثيرون (٢٩) •

وتصل القلعة ضلعى الزاوية الشمالية الغربية للمدينة (المنورة) ، وجدارها الذى يمثل تحصيناتها الشرقية قد ثقب ليمكن الوصول لساحة قد تناثرت فيها المدافع والأدوات الحربية بين ضاحية المناخة والباب الشامى • وقد رفضوا ادخالى للحصن ، لذا فليس بامكانى أن أصفها الا من الخارج • فجدار الحصن الخارجى يشبه جدران السور ، غير أن أبراجه أكثر قوة وصلابة ، ويبدو الجدار الواصل بين البرجين قد أعد بطريقة أفضل • وقد أقيم البرج المحصن على صخرة داخل الحصن ، ويرفرف عليه بخيلاء علم عليه هلال ونجمة ، وجدران الحصن المطلية باللون الأبيض تجعله هدفا واضحا ، وقد صوبت مدافع الحصن الى كل اتجاه خاصة ناحية المدينة

---

(٢٩) تلقيت بعد ذلك من شارلز كول مساعد القنصل فى جدة هذه المعلومات : عدد سكان المدينة يتراوح بين ١٦٫٠٠٠ و ١٨٫٠٠٠ ، عدد افراد الكتائب النظامية : ٤٠٠ ، عدد سكان مكة حوالى : ٤٥٫٠٠٠ ، عدد سكان ينبع حوالى : من ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ • عدد سكان جده حوالى ٢٥٠٠ (واظن أن التقدير منخفض جدا) والطائف : ٨٠٠٠ ومعظم الحاميات العسكرية فى مكة وجدة • وفى الحجاز كله خمس كتائب تضم كل كتيبة حوالى ٨٠٠ ، وبذلك يبلغ عدد الرجال المقاتلين حوالى ٣٥٠٠ مزودين بخمسمائة مدفع و ٤٥٠٠ جندى غير نظامى ٠٠٠ الخ ـ (موجز تعليق بيرتون) •

(المنورة) ، وقد برزت مواسيرها من الفتحات (الكوات) التى أعدت لهذا الغرض • ويقال ان فى القلعة آبارا ، ومصـــدات للقنـــابل bomb-proof وإمدادات وذخيرة ، واذا كان الأمر كذلك فلابد أنها حصن مهم ــ بالنسبة للبدو وللوهابيين (السلفيين) ــ لا يقل أهمية عن حصن جبل طارق بالنسبة لنا • وتتكون حامية الحصن من نصف أورطة (٤٠٠ رجل) من الجند المشاة ، بقيادة باشا تمتد سلطته أيضا الى السنجق المكون من حوالى خمسمائة من الأكراد والألبان الباشبوزوق الذين تتركز مهامهم فى حماية القوافل وتوصيل الأموال والأرزاق • وأهل المدينة المنورة ــ مثلهم فى ذلك مثل الشرقيين عامة ــ يحس الواحد منهم بفخر شخصى لوجود هذه القلعة • فأهل المدينة يتحدثون عن قلعتهم هذه بكثير من المبالغة ولأن هذه القلعة يمكن التحكم فيها عن طريق خط الصخور المرتفعة الواقعة الى شمالها الغربى ، ولأن مبناها ــ كما هو الحال فى معظم المبانى ــ بدون خندق مائى حولها ، ولا تفضى الى منحدرات ، وليس حولها تحصينات ترابية أو متاريس خارجية ، لذا فان قليلا من القذائف وبطارية واحدة من مدافع الحصار كافية لشل دفاعاتها • وفى أزمنة قديمة وقعت عدة معارك تافهة فى بر المنـــاخة ، الذى كان ميدانا مناسبا لهذه المعـــارك نظرا لبساطتها (تفاهتها) • والى الشمال من الحصن فى الطريق الى جبل أحد ، وان كان فى موقع تطوله قذائف القلعة (الحصن) يوجد مبنى مستطيل متعدد النوافذ ، كان فيما مضى قصرا لداود باشا • وعلى أيامى اشتراه عبـــاس باشا المصرى • وتقع الضواحى الى الجنوب من المدينة (المنورة) والى الغرب منها • فالى الجنوب يفصل الضواحى عن السور طريق عريض يطلقون عليه درب الجنازة ، وقد سمى بهذا الاسم لأن جثث المنشقين أو الخارجين على القانون التى يتحتم عدم مرور موكبها فى شوارع المدينة (المنورة) تتخذ هذا الطريق حيث تدفن فى المقابر المخصصة لها بالقرب من باب الجمعة (الباب الشرقى) • أما ناحية الغرب بين المدينة (المنورة) وضاحيتها فيقع سهل المناخة بطول ثلاثة أرباع الميل تقريبا ، بعرض يقرب من ثلاثمائة ياردة • والضواحى الممتدة تشغل مساحة من الأرض أكثر من تلك المساحة التى تشغلها المدينة (المنورة) ذاتها ، وتحيط بالسور ، وليس للضواحى أسوار ، الا أنه صوب الغرب حيث المنطقة مكشوفة (مفتوحة) فقد سوروها بطين أو متاريس من طوب غير مثبت بجبس أو أسمنت ، وأقاموا أبراجا صغيرة مستديرة ، وكلها قد اعتراها الخراب ، وثمة عدد من البوابات الصغيرة تفضى من الضاحية الى المنطقة ، والبوابة الوحيدة الكبيرة نسخة بائسة من باب النصر فى القاهرة وتسمى مدخل العنبرية أو المدخل الغربى ومن خلال هذا المدخل عبرنا الى المدينة (المنورة) • ولا تشـــتمل هذه الضاحية على أية مبان لها قيمة ماعدا الخاصكية أو المقر الرسمى للمحافظ

(الحاكم) وهى مبنى مقام على سهل قريب من بر المناخة ، والمساجد الخمسة التى يتوقع من كل زائر زيارتها ، وهى : مسجد الرسول (٣٠) فى المناخة ، ومسجد أبى بكر بالقرب من العين الزرقاء ومسجد على فى زقاق الطيار فى المناخة ، وبعض المؤلفين يسمونه مصلى العيد لأن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى العيد فيه ، ومسجد عمر بالقرب من باب قباء فى المناخة ويقع بالقرب من سيل صغير يسمى السيح Al-Sayh ، ومسجد بلال الشهير ، ولم أر هذا المسجد لكن بعضا من أهل المدينة أكدوا لى أنه مازال قائما • وان وصف مسجد واحد من هذه المساجد يكفى عن وصف سائرها ، لأنها جميعا متشابهة ، فمسجد الرسول فى المناخة يقع فوق بقعة كان يشغلها قبل ذلك فيما يقول بعض أهل المدينة ـ مسجد الغمامة ، ويعتقد آخرون أنه أقيم فوق مصلى النبى وهو المكان الذى كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد صلى فيه أول صلاة عيد ، بعد وصوله للمدينة (المنورة) ثم تعود بعد ذلك أن يصلى فيه وأن يوجه أتباعه الذين يعيشون بعيدا عن الحرم (النبوى) • وهذا المسجد عبارة عن مبنى حديث حسن الترتيب مشيد من حجارة مقطوعة وجبس وجير ، وقد صنعت حجارته بشكل منتظم ، ويتخذ المسجد شكل متوازى الأضلاع ، ويحيط به قبب منها قبة كبيرة وأربع صغار ، وقد طليت جميعا بالطلاء الأبيض وفوق القبة الأساسية هلال كبير أو هو أقرب الى الشكل الثلاثى فوق سلسلة من الكرات المذهبة ، والقباب الأخرى تتوج الأركان الأخرى • أما المئذنة فلها شكل المآذن التركية المعتاد ، وذؤابتها مخروطية الشكل ، وبها دهليز واحد للمؤذن • وفى جانبه الشرقى شجرة سنط أو شجرتان ، وخلف المسجد منازل من الطين فى خط يعطيها شكل السور عند النظرة الخاطفة • وداخل المسجد بسيط يمثل بساطة منظره الخارجى • ولابد من التنويه هنا الى أن العرب ليس لديهم الا فكرة بسيطة عن الفخامة والأبهة فى مجال العمارة سواء بالنسبة للمبانى العامة أو الخاصة • فما يستلفت نظر المسافر فى الحجاز هو دائما اما مستورد أو من عمل فنانين أجانب • ويبدو هذا من ذوق الناس الذى تتجلى فيه البساطة بالاضافة الى تميزهم ـ بدون شك ـ بالتدبير والتوفير • فاذا طلب منهم الغرباء أن يشيدوا لهم المبانى ، جادلوا قائلين : ولم لا نبنى نحن لأنفسنا ؟ وأكثر من هذا ، فان وازع الشح يجعلهم يبددون أموالهم التى أنفقوها على القصور الكبيرة ، اذ سرعان ما يلحق بها الخراب ، فالمناخ غير ملائم لبقائها ، فالتربة فى المدينة (المنورة) ـ كما فى مكة (المكرمة) ـ رطبة وحاوية على النترات nitrous فى الشتاء ، وجافة وملتهبة صيفا ،

---

(٣٠) غير المسجد النبوى (الحرم النبوى) ـ (المترجم) •

والكلس من نوع غير جيد ، وجذوع النخل المستخدمة فى البناء يعتريها الفساد بسرعة ، وحتى الأخشاب المستوردة تعانى من التعرض للتلف • وبذلك تصبح عدة سنوات قلائل من الاهمال كافية لجعل المبنى الشامخ فى مستوى التراب •

والأحياء الى جنوب المدينة (المنورة) عبارة عن تجمعات من القرى المسورة تتخللها المزارع والبساتين • وقد خططت هذه القرى على شكل أحواش (جمع حوش) وهو الاسم نفسه الذى يطلق فى مصر - ويضم الحوش عدة شقق (مساكن) من طابق واحد تفتح على ساحة مكشوفة • وتضم هذه الأحواش جماعات من السكان • ولكل حوش باب خشبى متين يغلق ليلا لمنع السرقة ولتمكين سكان الحوش من الدفاع ببسالة • ومعظم سكان هذه الأحواش من البدو المستقرين ومن المنشقين (٣١) Schismatics الذين سنتحدث عنهم فى فصل آخر • وخلف هذه الأحياء الى الجنوب والى الشمال والشمال الشرقى توجد البساتين ومزارع نخيل واسعة •

---

(٣١) يقصد الشيعة - (المترجم) •

الفصل التاسع عشر

الركــوب الى قبــاء

المواضع التى يزورها الحجـاج فى المدينـة وضواحيهـا ـ الطريق الى قباء ـ صوت السواقى فى حضارات مختلفـة ـ النخيل ـ أنواع التمر ـ خرافة حديث النخلة للرسول كخرافة حديث الصليب لتوما الأكوينى ـ القلادات ـ موسم الحصاد ـ الخضروات والنباتات الحلقية ـ أنواع العنب ـ أطفال البدو ـ البقشيش ـ نسوة من قباء ـ الفلاحون العرب ـ تاريخ مسجد قباء ـ وصف المسجد ـ مسجد عرفات ـ مسجد على ـ مقارنة بمساجد الهنـد (باكستان) ـ بئر أريس ـ خاتم النبى ـ تفل الرسول صلى الله عليه وسلم فى آبار المدينة ـ آبار المدينة ـ بستان المدشونية ـ الداء الأخضر (الكلوروز) ـ الطمى كعلاج للنساء ٠

المواضع الرئيسية الواقعة بالقرب من المدينة المنورة والتى يتوجه اليها الزوار بهدف التبرك هى : مسجد قباء ومقبرة البقيع وقبر الشهيد حمزة عند سفح جبل أحد ٠ فالعلماء ينصحون الزائر بالتوجـه الى هذه المواضـع ليحظى بالدعاء فوق أرض طاهرة طالبا من الله ـ عز وجـل ـ البركة لنفسه ولاخوانه فى العقيدة ٠

وفى الصباح الباكر من يوم السبت شددت رحالى صوب قباء مع جمع غفير من المسلمين المتحمسين ٠ وكان الشيخ حامد ـ دليلى فى الزيارة (مزورى) ـ يمتطى الى جوارى حمارا هزيلا لم أر أكثر منه هزالا وبؤسا من قبل ٠ وكان الولد محمد قد جلب لى جملا مكيا له جل (١) فاخر اذ كان عليه سرج مرتفـع من الأمام ومن الخلف بنتوءين من المعـدن ، وقد غطى السرج بفروة خـروف كبيرة صبغت باللـون القرمـزى ، وربطت فـوق

---

(١) الجل (بضم الجيم) trapping غطاء مزركش للدابة ٠ وعن ابن منظور : الجل هو ما تلبسه الدابة لتصان به ٠ الجمع جلال (بكسر الجيم) وأجلال ، وجلال كل شىء غطاؤه ـ (المترجم) ٠

(خرجين) جميلين (٢) كانت شراباتهما الطويلة تكاد تصل للأرض ٠ أما الشاب نفسه فقد كان من الاعتزاز بالنفس بحيث لم يكن ليرضى ركوب حمار ، ولم يكن قادرا فى الوقت ذاته على استئجار حصان ٠ ولذا فقد فضل المشى ٠ لقد كان هذا الشاب مغرورا كطاووس وكان لباسه يشبه على نحو ما ريش ذلك الطائر البهى ، فقد اندس فى معطف ذى ألوان عديدة : صفراء وحمراء وقد حلى بورود ذهبية قد حبكت بوضوح على مساحة كأنها حقل من الحرير الأخضر المتألق فتنة وسحرا - وقد كلفنى مبلغا باهظا فى الحرم ، وكان هذا الشاب مسلحا مثلنا جميعا - فى حقيقة الأمر - تحسبا لعدوان البدو ، كما كان قلقا فى انتظار الفرصة لاطلاق النار من مسدسه ٠ ان طريقنا يمتد من منزل الشيخ حامد فى المناخة Manakhah ثم صاعدين على طول الطريق فوق السيح Al-Sayh ومن ثم عبر باب قباء وهو بوابة صغيرة فى سور الضاحية (ضاحية قباء) وفى هذا الموضع - والشىء بالشىء يذكر - كاد رفاقى يوطؤون بمناسم الجمال المندفعة الهائجة نصف المتوحشة ٠ وخارج البلدة وفى هذا الاتجاه الى جهة الجنوب يوجد سهل طينى اختلط طينه بالحجر الكلسى الطباشيرى ٠ وتناثرت عليه الرمال هنا وهناك ، وقد نتأت فيه جروف (حيود) ridges صغيرة وكتل من البازلت ٠ ومثل المسافة بين قباء وحرف (حيد) الحرة فى اتجاه الغرب نجد الأرض الى الشرق غير مالحة ، وتقرقر منها المياه العذبة فتصنع منها البراديات الممتازة (٣) (القلل والأزيار) وقد رأيت خارج البوابة مباشرة قمينا كانوا يحرقون فيه طوبا من نوعية لا بأس بها ٠ وبعد مغادرة الضاحية بوقت يسير أشار الهندى الذى كان قد انضم لقافلتنا أثناء مسيرتها - الى يسار الطريق معلنا أن موضع الخندق الشهير يقع فى هذا المكان ، وهذا الخندق المائى يحتل فى التاريخ العربى (الاسلامى) مكانا مشابها لخندق تور Torrors Verdas فى التاريخ الأوروبى (٤) ٠

وسرعان ما بدأت بساتين النخيل تتجلى ، فلا شىء أكثر بهجة للعين التى أرهقها الوهج الأحمر الحار من الزروع الخضراء المتمايلة والريانة

---

(٢) Saddle-bags المقصود هنا الوعاءان الموضوعان على جانبى الدابة - (المترجم) ٠

(٣) البرادية أو قلل المدينة ضخمة وسميكة ولونها رمادى محمر ، ولا تصنع فى مكة - (بيرتون) ٠

(٤) وجدت بعد ذلك من الأسباب ما يدعونى للشك فى تحديد ذلك الموضع فابن جبير (القرن ١٢ م) يجعل الخندق على بعد مرمى سهم من السور الغربى للمدينة ٠٠٠ الا أن علماء الدين يوافقون بشكل عام على أن كل آثار هذا الخندق قد اختفت قبل القرن الخامس عشر الميلادى - (موجز تعليق بيرتون) ٠

ومن الظل الظليل ، فهما ـ الزروع والظل ـ طعام العين على حد قول العرب اذ هما بمثابة الماء القراح للحناجر الظمأى ٠

وقد كنت لساعات قادرا على الجلوس والنظر الى هذه النخيل الخضر ٠ لقد كان الهواء عليلا معطرا ، فالنسيم المشبع بشذا العطر يعد رفاهية غير مألوفة فى الحجاز ٠ لقد كان النسيم الذى استمتعت به قد مر عبر بساتين النخيل حيث الأزاهير الغضة والأوراق الخضر للنباتات الوارفة ٠ لقد اعترانى فى عز الصيف ـ الاحساس بكل المعالم الجميلة لفصل الربيع ٠ ولا شيء أكثر بهجة للأذن من تغريد الطيور الصغيرة وتلحينها ـ فألحانها الجميلة مألوفة للأذن ألفة حلوة ـ أو صوت رشرشة الشلالات الصغيرة المنسابة من العيون عندما تتلقاها (تجمعها) فى الأوانى الخشبية أو الموسيقا التى تعزفها السواقى ٠ ويحدثنا الرحالة الشبان فى الشرق عن « الحواجز الكئيبة القابضة للصدر » وعن « الرتابة الحزينة » وعن « الصرير الحزين » لهذه الآلات الحزينة (السواقى) ٠ أما الرحالة المحنك فان أصوات هذه السواقى تثير فيه البهجة فهى تذكره بالحقول ومجارى المياه والقرى المضيافة والمحاصيل الوفير ٠ والنوبى المغترب ـ على سبيل المثال ـ يصغى الى أصوات السواقى بعاطفة عميقة فتبعث فيه الشجن تماما ، كما يصغى الجندى السويسرى المرتزق للحن Ranz des Vachos وهو قابع فى نابلى فيثير فيه اللحن فيض الذكريات ، أو كما تصغى جماعة من سكان مرتفعات جزر الهند الغربية لمقطوعة Lochaber no more .

ونخيل المدينة (المنورة) جديرة بما حظيت به من شهرة فسيقانها عمودية وغليظة وتبدو أكثر ارتفاعا منها فى أى مكان آخر ، كما أن سعفها وجريدها يسمحان للنسيم بمداعبتهما دون الحاق أذى بسوقها (٥) وكانت هذه النخيل الجليلة محملة بالثمار الناضجة (الرطب) وكانت أسباطها ملتصقة (ملتحمة) باتقان ، وأظن أن ما تحمله النخلة الواحدة من ثمار لا يقل عن ثمانين رطلا ، وتتدلى أسباط النخلة (٦) بين جريدها السفلى ،

---

(٥) فى شمال مصر يشذبون (يقلمون) الأفرع الدنيا أى الأفرع التى تتدلى أسفل الأسباط (الأعذاق) فى فترة أعياد الميلاد تقريبا ، لزيادة الحلاوة فى التمر ، أما فى صعيد مصر فتترك دون تقليم وكذلك الحال فى المدينة المنورة ـ (بيرتون) ٠

(٦) ترجمة للكلمة الانجليزية Clusters والتى تعنى حرفيا العنقود والمعنى المقصود هنا هو (الأعذاق) جمع عذق (بكسر العين) وتسكين ما بعدها أو العذوف بضم العين ٠ وفى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا قطع فى عذق، لأنه ليس فى حرز ، ويقال للعذق أيضا القنو (بكسر القاف) والكباسة (بكسر الكاف) وهى الأفرع التى تحمل الثمر ٠ وقد استخدمنا فى المتن لفظ (الأسباط) وهى جمع سبط لشيوعها فى مصر ، والكلمة تعنى الذرية ، وصرف المعنى لذرية البلح أو التمر أمر لا غبار عليه ـ (المترجم) ٠

وتتجلى أذرع الأسباط المبهجة ملتصقة بالنخلة وهى ـ اى اذرع الاسباط ـ فى سمك كاحل قدم الرجل • وتعـدد الكتب مائة وثـلاثين وتسعة أنواع مختلفة من النخيل ، من بينها ما يتراوح بين ستين وسبعين نوعا يعرفها القاصى والدانى ، ويعرف كل نوع منها بين العرب باسم خاص به ، فأفضل أنواع البـلح (٧) هو الشلبى والعرب يجمعونه فى جلود أو صناديـق اسطوانية مستويـة مغطاة بالورق ـ بطريقة تشبه على نحو ما طريقـة الفرنسيين فى جمع البرقوق • ويرسل المسلمون هدايا من هـذه التمور الشلبية الى مختلف أنحاء العالم الاسلامى (٨) ويبلغ طول التمرة من هذا النوع (الشلبى) حوالى بوصتين ونواتها صغيرة ولها مذاق خاص ورائحة مميزة • ونادرا ما يحظى أهل البلاد بتناول هذا النوع بسبب غلاء سعره اذ يتراوح سعر الرطل الواحد بين قرشين وعشرة قروش • وأكثر من هذا فان هذه النخلة الشلبية نادرة ، ويقال انها ليست كثيرة الثمر مثل أنواع النخيل الأخرى • أما بلح العجوة (٩) Ajwah date فيؤكل ولا يباع لقول روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) مؤداه أن من أفطر يوميا بست تمرات أو سبع من هذا النوع (بلح العجوة) أمن السم والسحر (١٠)• والنوع الثالث هو « الحلوة Al-Hilwah » والبلحـة من هـذا النـوع تتميز أيضا بكبر حجمها ، وترجع تسميتها بهذا الاسـم لفرط حـلاوتها وينسب المسلمون لنخيل العجوة أن النبى (صلى الله عليه وسلم) زرع نواة منه فنمت فى غضـــون دقائق قليلة نخـلة سوية وأثمـرت فى الحال (١١) • ويأتى فى المقام التالى بلح البرنى Al-Birni الذى قيل عنه « انه يطرد المرض » أما نخيل الوحشى Wahshi فقد عصب رأسه

---

(٧) استخدم المؤلف لفظ date وقد آثرنا ترجمتها بلحا الا أن سكان الجزيرة العربية ـ كما لاحظت ـ يفضلون أكل الرطب والتمر ، وهما مرحلتان من مراحل نضج الثمرة ، فأول ثمار النخيل طلع (بفتح الطاء وتسكين اللام) فخلال (بفتح الخاء) فبسر (بضم الباء) فرطب فتمر • والكمة الانجليزية date لا تعبر عن ذلك كله ـ (المترجم)•

(٨) اذا لم يحضر القادم من المدينة المنورة معه بعض صناديق التمر وبعض الأعذاق (الفروع) لم تحسن نسوة بيته ـ غالبا ـ استقباله ، ولابد أن يحضر معه أيضا كيسا جلديا مليئا بالحناء • ويمنع علماء الدين نقل الحجارة أو الرمل من المدينة المنورة على سبيل التذكار ـ (برتون) •

(٩) رغم أن عرب الجزيرة يقولون ان عجوة مصر لا تصلح الا للابقار غير أن الحقيقة أن عجوة سيوة ممتازة غاية الامتياز ـ (بيرتون) •

(١٠) لعله من الأحاديث الموضوعة ـ (المترجم) •

(١١) يقول بيرتون : وبالمثل ففى سنة ١٢٧٢ تكلم الصليب مع القديس توما الاكوينى الا أن هذه الخرافة لم تحدد التاريخ الذى حدث فيه ذلك ولا المكان (قول بيرتون) •

ذات مرة وألقى السلام على محمد (صلى الله عليه وسلم) أثناء تناوله بعض ثمرات منه · ولهذا السبب فان هذا النوع من النخيل لازال – حتى الآن – يتجه بخوصه وجريده نحو الأرض (أى لازال مائلا) · أما الصيحانى فسمى بهذا الاسم لأنه بينما كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يمسك بيد الامام على ويتجولان بين هذا النوع من النخيل صاحت احدى النخلات قائلة (١٢) : « هذا محمد صلى الله عليه وسلم أمير الأنبياء وهذا الامام على أمير المؤمنين وجد الأئمة الأطهار » (١٣) وبطبيعة الحال فان سلالة هؤلاء العباقرة تحتل لديهم الخضر مكانا عاليا فى مملكة النخيل (؟) ، واعتاد الدهماء والعامة منهم أن يأكلوا الصيحانى ويقذفون الحريم بنواه · أما نخيل الخضيرية (بضم الخاء وفتح ما بعدها) فسمى بلحه بهذا الاسم لأنه يحتفظ بخضرته حتى بعد نضوجه · ويجفف هذا النوع من البلح ويتم الاحتفاظ به كشىء نادر · أما الجبلى فهو شائع بين الناس ، على أن أردأ الأنواع أو أكثرها بؤسا هو اللوان والحلية Hilayah ويبلغ سعر المد Mudd (١٤) من هذين النوعين مبلغا يتراوح بين أربعة قروش وسبعة ولا أستطيع القول ان تمور المدينة أفضل من تمور مكة رغم أن تمور المدينة ارتبطت ارتباطا كبيرا بأمور العقيدة الدينية عند المسلمين ، فقد كان تمر المدينة (المنورة) هو الطعام المفضل لرسول الله الذى كان دائما يفطر عليه · وقد ساعدت الظروف البيئية على انتشار زراعة النخيل بالاضافة – الى حد ما – الى اعتباره أثرا مقدسا يجب الحفاظ عليه · ويجد أهل البلاد بهجة فى الحديث عن التمور ، على نحو ما يجد الايرلندى البهجة ذاتها عند الحديث عن البطاطس ، فالحديث فى الحالتين مفعم بالشغف · والمسلمون يأكلون التمور كدواء وكطعام ، فالرطب – وهو البلح الناضج الرطب – يحفظ حتى لا يفسد ، ويعدون الرطب علاجا ناجعا بالاضافة لطعمه اللذيذ ورائحته الطيبة · ويعدون الأبلاح والتمور بطرائق مختلفة اختلافا كبيرا ·

---

(١٢) ما ذكره بيرتون فى الحاشية السابقة من أن حديث الصليب لتوما الاكوينى خرافة يمكن ان نقوله أيضا عن حديث النخلة للرسول ، فليس فى السنة الصحيحة ما يؤكد هذا – (المترجم) ·

(١٣) من الواضح أن ذلك من وضع الشيعة – (المترجم) ·

(١٤) فى المدينة المنورة : ١٢ درهما = أوقية واحدة · و ٢٠ أوقية = رطلا واحدا ، و ٣٣ أوقية و ٣ دراهم = أقة واحدة (والأقة أقل من رطلين انجليزيين lbs) و٤ أوقيات = مدا واحدا و ٢٤ مدا = اردبا واحدا · ويعد الرطل اكبر وحدة وزن بالنسبة لبعض البضائع كاللحم والخضروات والسمن والبن والارز والصابون ، ورطل مكة اصغر اذ يساوى ١٤٠ درهما · أما فى مصر فالرطل = ١٤٤ درهما أو (١٢) اوقية – (بيرتون) ·

فالطبق المفضل منه هو التمر المقلى مع الزبد النقى ، وهو طبق لا يمكن أن يقبله ذوق أوروبى • ويترك البلح أيضا على النخيل حتى يجف وعندئذ يسمى تمرا ، ويؤكل بعد الطعام للتحلية (١٥) ، وهو بذلك يحل محل وجبة الحلوى التى يتناولها الفرس بعد الطعام « النقليات Nukliyat »

ومن بين ما يقدمونه من التمور يجب أن نذكر هنا قلادات الشام (١٦) Kulladat-al-Sham فثمار البلح غير الناضجة تغلى فى الماء للاحتفاظ بلونها الطبيعى وتدرج (تلضم) فى خيط سميك (دبارة) وتعلق فى الهواء حتى تجف • ويلبسها الأطفال فى سائر أنحاء الحجاز كقلادات ، ونادرا ما لا يتمكن الأطفال من جرش هذه القلادات عندما يأمنون الصفعات ، ويرسل أهل البلاد هذه القلادات كهدايا للبلدان النائية •

وشهرا يناير وفبراير هما وقت تذكير (تلقيح) النخيل ، فيقوم النخلوى (بفتح النون وتسكين الخاء) أو النخيلى (بكسر النون وتشديدها) Nakhawali بفتح الزهور المؤنثة ويضع فيها البذور المذكرة ويربطهما معا ويتم ذلك فى كل سباطة (عذق) ويقوم الحجازيون بعملية التلقيح(١٧) هذه بالطريقة نفسها التى تتم بها فى مصر (١٨) • وينضج محصول النخيل فى حوالى منتصف مايو ويعد جنيه (حصاده) بمثابة عيد ، فالناس فى هذه المناسبة يبدو عليهم الفرح لأن محصولهم المفضل نجا مما كان يتعرض له من أضرار ، فالجفاف يضر النخيل والجراد يدمر المحاصيل ، ومحصول التمر – مثل غيره من المحاصيل – قد يكون عرضة للدمار •

وأحد أسباب تميز تمور المدينة المنورة ، هو توفر المياه ، فلكل بستان أو حقل ، بئر خاصة به • وحتى فى أكثر الأجواء حرارة ، فان السواقى Persian wheels تروى التربة كل ثلاثة أيام ويلاحظ أن النخيل يمكنها النمو فى البقاع الجافة والمجدبة الا أنها تزدهر فى مجارى المياه وحيث تتوفر الرطوبة • وينتشر النخيل فى المواضع الأخرى من هذا

---

(١٥) يقال لما يؤكل بعد الطعام للتحلية « عقبة » (بضم العين) • وهى كلمة دارجة وفصيحة أيضا •

(١٦) قلادات (أو قلائد) الشام • وهناك من أخبرنى أن هذا الاسم (الشام) نسبة الى مكان صنع هذه القلائد وهو قرية (الصفراء) فى طريق مكة وتسمى أيضا الصفراء – (بيرتون) •

(١٧) الكلمة العربية هى (التذكير) وهى اكثر ملاءمة من Caprification – (بيرتون)

(١٨) النخلة المذكرة معروف انها عقيم ••• – (بيرتون) •

السهل ، معتمدة على المطر فحسب ، الا أن انتاجها من التمور أقل من حيث الكم والجودة .

والنباتات الخضراء لا تخلو من فائدة للصحة فى شبه الجزيرة العربية ، فالمرضى يتركون جو المدينة المكتوم ليبحثوا عن الصحة فى ظلال بساتين قباء الظليلة .

وتفصل الممرات الضيقة Lenes المتسمة بالطول والمحفوفة من الجانبين بسياجين من البومى – بين البساتين . وترى فروع أشجار الطرفاء Tamarisk (١٩) البهيجة تشكل قطرات من المن Manna (٢٠) ، وأوراق الخروع العريضة تتلألأ فى ضوء الشمس ، مقدمة الحماية لنا من أشعة الصباح . وكانت الأرض على جانبى الطريق غائرة ، والتربة تشكل أكواما عند أسافل الأسوار (التى تفصل بين البساتين) ، وتعد طريقة تكويم الأتربة فى أكوام عند الأسوار طريقة لتسهيل عملية الرى لتهيئة مساقط للمياه ، وفى بعض الحالات تعد هذه الأكوام تربة أكثر خصوبة من التربة المسطحة aricher soil than the surface . وهذا الجانب من سهل المدينة (المنورة) أكثر ارتفاعا – على أية حال – من باقى السهل ، كما أنه أقل تشبعا بالملح والنترات (نترات الصوديوم أو نترات البوتاسيوم) . وعلى طول الطريق ، هنا وهناك ، كانت الأرض متفتتة ، وبدت سوداء تحت ندى الصباح ، الا أنه لا يبرز فى أى موضع ازدهار واضح متألق يشير الى المرحلة الأخيرة من الاثمار .

وتقسم البساتين والحقول الى مستطيلات صغيرات ، يفصل بعضها عن بعضها الآخر حواش طينية صغيرة تشكل فيما بينها قنوات مائية شديدة الضيق . ومن نباتات الحبوب النجيلية Cereals يوجد هنا الذرة وافر النمو ، والقمح والشعير وان كان القمح والشعير لا يوجدان الا بكميات قليلة . ويوجد هنا بعض المساحات منزرعة برسيما مصريا ،

---

(١٩) الطرفاء Tamarkisk وهى من جنس الطرفاء والاثل . واحدة الطرفاء : طرفة وطرفاءة . وهناك الطرفاء اللاورقية تنمو فى الصحارى وهناك الطرفاء العقداء أو المفصلية (ولعلها المقصودة هنا) وكلمة الاثل من أصل سام قديم . وموطن هذا النوع من الطرفاء أو الأثل هو جزيرة العرب (عن معجم الشهابى) – (المترجم) .

(٢٠) مادة سكرية تفرزها بعض النباتات كالندى المنعقد ، اما طبيعيا أو بتأثير قملة المن . عن معجم الشهابى – (المترجم) .

تتلألأ زهوره جميلة بهية تحت أشعة الشمس · أما أهم الخضروات ، فهى الباذنجان والبامية (وهى نوع من نباتات الفصيلة الخبازية تصلح للأكل esculent hibiscus وتسمى بندى Bhendi فى بلاد الهند) والملوخية وهى كالسبانخ الا أنها لزجة a mucilaginous Spinage يشيع تناولها فى هذا الجزء من بلاد الشرق · ويتنـاول أفراد مختلف الطبقات من أهل البـلاد البطاطس وسائر خضر شبه الجزيرة العربية · وقد لاحظت أيضـا وجود البصل والكرات بكميات كبيرة كما توجد قلة من سلال الجزر والفاصوليا الخضراء ، وبعض الفجل واللفت والقرع gourd والخيـار ، وخضروات أخرى شبيهة · أما أشجار الفاكهة فكثيرة ، فهناك خمسة أنواع من العنب ، أفضلها هو النوع المعروف باسم « الشريفى » وحبته بيضاء طويلة ، وله مذاق يشبه الى حد ما مذاق عنب تسكانيا Tuscany (٢١) ، ويلى الشريفى فى الجودة « البرنى Al-Birni » وهو شبيه شبها كبيرا « بالشريفى » ، أما العنب من النوع المعروف « بالحجازى » فكروى ، وحلو ، ولكنه خال من النكهة insipid ، وهذا ينطبق أيضا على العنب السوادى Sawadi ذى الحبات السود· وأخيرا هناك الرزيقى the Raziki وحباته صغيرة بيضاء وبذورها متناهية فى الصغر · وتوجد هنا أشجار النبق وأشجار العناب Lote or jujube trees · وشجرة العناب شجرة رقيقة وضخمة وورقها أخضر داكن ومستدير ويلمع كالزيتون ، وهى مسلحة بأشواك قصيـرة ومقوسة وحادة (٢٢) وتثمر هذه الشجرة ثمرة توت الأرض الشـاحبة a pale straw-coloured berry وهى ـ أى الثمرة ـ فى حجم ثمرة عنب الثعلب Joos berry (٢٣) ولها حز أحمر فى جانبها المواجه للشمس · وليس لدى الا قليل يمكن قوله عن مزايا هذه الفاكهة التى يمكن مقارنتها من قبل آكلى اللوطس Lotus eaters بالبرقوق الردىء a bad plum ، والكرز غير الناضج an unripe cherry والتفاح الماسخ عديم النكهة insipid apple ، الا أنها على أية حال فاكهة مقبـولة لدى أهـل المدينة (المنورة) الذين يعـددون أنواعـا مختلفة منهـا ، فهناك النوع الهندى ، والنوع البلدى

---

(٢١) ربما كان التشابه ناتجا عن أن أسلوب صنعه واحد فى الحالتين · ففى المدينة (المنورة) كما فى ايطاليا يزاوج الكرم ببعض الأشجار الطويلة التى تعد شريكا انانيا ، فهى تحوز لنفسها الأفضل من كل شيء ـ من الشمس ، ومن الهواء ، ومن المطر ـ (المؤلف) ·

(٢٢) اسمه العلمى Zizyphus Vulgaris وهو شجر مثمر له ثمرة صغيرة حلوة تؤكل · انظر معجم الشهابى ـ (المترجم) ·

(٢٣) اسمه العلمى Ribes uva-Crispa وترجمة معجم الشهابي كشمش شائك ـ (المترجم) ·

والنوع التمرى (شبيه التمر) ، بالاضافة لأنواع أخرى • ويوجد قليل من الخوخ (الدراق) وهو يابس كالخوخ المصرى ، وهو بلا طعم تقريبا ولا يصبح ملائما للأكل الا بطهيه فى ماء ساخن ، الا أنهم يأكلونه بنهم نصف ناضج • ويوجد أيضا موز كبير الحجم ولكنه ردىء ، وأشجار الليمون وقليل من البطيخ والتين والتفاح ، ولا يوجد المشمش ولا الكمثرى (الأجاصى) • ويوجد ثلاثة أنواع من الرمان ، أفضلها هو الشامى وقشرته حمراء ، وهو فائق الحلاوة ، ويصل سعر الواحدة الى قرش ، والنوع التركى وحبته كبيرة ، وحبوبه بيضاء ، والنوع المصرى وقشرته خضراء وهو مز (٢٤) (حمضى الى حد ما) ومذاقه غير مستساغ ، وثمنه ربع ثمن الرمان الشامى • ولم أر أبدا فى الشرق باستثناء مكة ـ أفضل من الفاكهة الشامية ، فهى غالبا بلا بذور تماما كفاكهة مسقط ، فرائحتها زكية ، ويبلغ حجم الواحدة منها حجم رأس الطفل • وتحظى المدينة المنورة ـ مثلها مثل الطائف ـ بشهرة بسبب رب الرمان Rubb Rumman وشراب الرمان المركز الذى يشرب مع الماء خلال الصيف، ويعد شرابا مبردا ومفيدا للصحة •

وبعد أن شققنا طريقنا عبر البساتين فى فترة وجيزة لا تستحق أن أتوقف هنا لوصفها ـ لاحت لنا من خلال الأشجار مئذنة مسجد قباء البسيطة • ثم مالبثنا أن أصبحنا على مشارف أعداد كبيرة من الأكواخ (العشش) والمساكن ، والمصليات (المساجد الصغيرة) والأبراج تتخللها الأشجار ، والأزقة العفنة وأكوام القمامة والكلاب النابحة ـ وهى كلها مظاهر مادية معتادة للقرية الحجازية •

ولما ترجلنا عن دوابنا تركناها (أى الدواب) فى رعاية اثنى عشر طفلا بدويا من العاملين كزارعين فى البساتين ، وقد صاحوا طالبين البقشيش بمجرد رؤيتنا • وقد دفعتهم أمهاتهم الى هذا الطلب ، وقد قدمت لهم لهؤلاء الأطفال البدو ـ عن طيب خاطر ـ قليلا من البارات Paras بهدف تكوين علاقة مع هذه المخلوقات المذعورة والعجيبة والشبيهة بقرود القزدح التى لا ذيل لها (٢٥) • وأجساد هؤلاء الأطفال

---

(٢٤) المز بضم الميم ما كان عوانا بين الحمض وغير الحمض ـ (المترجم) •

(٢٥) baboon قزدح أو قزدوح قرود من فصيلة كلبيات الراس (عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية) ، والقرد من هذا النوع قصير الذيل بشع المنظر ، وقد ترجم منير البعلبكى صاحب قاموس المورد الكلمة بقرد الرباح أو السعدان الأفريقى والاسيوى ـ (المترجم) •

البدو لا تشبه أجساد الأطفال المصريين ، فقد كانوا - أى أطفال البدو - يتسمون بالهزال واستقامة العود ، الا أن ضلوعهم بارزة بشكل نافر . أما ألوان جلودهم فتميل الى سواد كهباب المصابيح الزيتية ، ذلك اللون الذى نراه على وجه منظف المداخن الأوروبى European Sweep ويكسو رءوسهم شعر جعد كشعر لحاء جوز الهند - قد أصبح بفعل الشمس والهواء والأمطار بنيا يميل للحمرة ، مما جعل رءوسهم تشبه رءوس المردة الأسطورية التى يتخيلها الرومانسيون الهنود ويطلقون عليها راكشاسا Rakshasa . وقد صحبت كل أم نحيلة على ذراعيها ، طفلا عاريا بشعا يمثل صورة مصغرة مخيفة منها . فهؤلاء الأطفال ذوو مناظر مخيفة تملأ عيونهم كل وجوههم ، وكان هؤلاء البائسون الأقوياء لايزالون قادرين على مد أيامنهم ، واجهاد رئاتهم باصدار صخب وجلبة مفزعة . وكانت أمهاتهم جديرات بأن يكون هؤلاء الأطفال أبناءهن ، فقد كن طويلات هزيلات ذوات أطراف ناحلة كأنهن الخشب المسندة أو جوانب الجدران ، وأكتافهن مرتفعة وظهورهن مستقيمة ، أما أثداؤهن فمتأرجحة متذبذبة (غير ممتلئة) وأذرعهن كأذرع العناكب ، وأقدامهن مفلطحة . وشعورهن المتشابكة الطويلة ، ووجوههن المتغضنة ، وعظام خدودهن المرتفعة ، وشفاههن الأكثر دكانة من بشراتهن ، وعيونهن الفارغة اللامعة ، تقدح الشرر كأنما ليشعن جولهن أقصي درجات البشاعة والقبح وصراخهن كأنه غضب مكتوم انفجر فلا مسكت له ، مما يجعلهن جديرات بأن يكن تعويذات أو رقى لاخافة العفاريت Charms of Sycorax . وقد تعود هؤلاء النساء اللائى يمكن أن نطلق عليهن وصف حارسات جهنم أن يرتدين عباءات طويلة كالليلة السوداء ، وقد صبغنها باللون الأزرق ، لاخفاء قذارتها ولتقليل حاجتها للغسل ، وقد لففن خصر كل طفل من أطفالهن بحوالى ياردة من القماش نفسه لاستخدامها فى مسح براز الطفل وبوله .

ان الصورة التي رسمتها آنفا للفلاحين العرب ليس فيها مبالغة ، فهم الأكثر استحقاقا للازدراء من بين أهل البلاد ، وهم الأقسى أخلاقا ومنظرا من بين كل بنى جنسهم .



وقبل دخول مسجد قباء نجد من الضرورى أن نتذكر جانبا من تاريخه . فعندما بركت القصواء ناقة النبى (صلى الله عليه وسلم) بعد هجرته من مكة المكرمة ، ووصل الى قرب المدينة المنورة ، كان مبركها (أى

ناقة النبى صلى الله عليه وسلم) فى هذا الموضع (٢٦) · وقد رغب النبى الى أصحابه فى ركوبها · وقد حاول أبو بكر (رضى الله عنه) وعمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) ركوبها ولكنها ظلت باركة متشبثة بالأرض وعندما أطاع على بن أبى طالب (رضى الله عنه) أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بركوبها هبت واقفة ، وعندئذ أمر الرسول عليا بارخاء رسنها لتكون حرة الحركة فهى مأمورة من الله سبحانه وتعالى · وقد شيدت جدران

---

(٢٦) رغم أن ما ذكره بيرتون لا يخرج عما ذكرته كتب السيرة المعروفة ، فقد وجدنا من الأحوط أن نذكر فى هذه الحاشية ما ذكره ابن هشام نقلا عن ابن اسحق فى سيرته الشهيرة ·

(بناء مسجد قباء) :

قال ابن اسحاق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء ، فى بنى عمرو بن عوف ، يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس ، وأسس مسجده ·

(خروجه صلى الله عليه وسلم من قباء وسفره الى المدينة) :

ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة · وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك ، فالله أعلم أى ذلك كان · فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وادى رانوناء ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة ·

(اعتراض القبائل له صلى الله عليه وسلم تبغى نزوله عندها) :

فأتاه عتبان بن مالك · وعباس بن عبادة بن نضلة فى رجال من بنى سالم ابن عوف ، فقالوا : يا رسول الله · اقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة ؛ قال : خلوا سبيلها· فانها مأمورة ، لناقته : فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى اذا وازنت دار بنى بياضة . تلقاه زياد بن لبيد ، وفروة بن عمرو ، فى رجال من بنى بياضة فقالوا : يا رسول الله : هلم الينا ، الى العدد والعدة والمنعة ؛ خلوا سبيلها فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها فانطلقت · حتى اذا مرت بدار بنى ساعدة ، اعترضه سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو ، فى رجال من بنى سعادة ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم الينا الى العدد والعدة والمنعة : قال : خلوا سبيلها ، فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ، حتى اذا وازنت دار بنى الحارس بن الخزرج · اعترضه سعد بن الربيع ، وخارجة بن زيد ، وعبد الله بن رواحة ، فى رجال من بنى الحارث بن الخزرج فقالوا : يا رسول الله هلم الينا الى العدد والمنعة قال : خلوا سبيلها ، فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها · فانطلقت ، حتى اذا مرت بدار بنى عدى بن النجار ، وهم أخواله دنيا ــ أم عبد المطلب ، سلمى بنت عمرو ، احدى نسائهم ــ اعترضه سليط بن قيس ، وأبو سليط ، أسيرة بن أبى خارجة ، فى رجال من بنى عدى بن النجار ، وهم أخواله دنيا ــ أم عبد المطلب ، سلمى بنت عمرو ، احدى نسائهم ــ اعترضه سليط بن قيس ، وأبو سليط ، أسيرة بن أبى خارجة ، فى رجال من بنى عدى بن النجار ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم الى أخوالك ، الى العدد والعدة والمنعة ؛ قال : خلوا سبيلها فانها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت ·

مسجد قباء على مواطىء خطوها · وكان مسجد قباء أول مسجد للصلاة الجامعة فى تاريخ الاسلام · وقد وضع محمد صلى الله عليه وسلم فيه أول حجر ، كما قام بتحديد الاتجاه أثناء الصلاة برمح حديدى ، وقد حذا خلفاؤه حذوه · ووفقا لما يذكره بعض المؤرخين فان الأرض التى أقام الرسول عليها مسجد قباء ، كانت لأبى أيوب الأنصارى ، الذى استضاف الرسول عنده ، ولهذا السبب فلازالت سلالة أبى أيوب تقوم على خدمة مسجد قباء ، وتحتفظ بمفتاحه ، وتشترك مع بوابى المسجد فى الصدقات التى يقدمها المؤمنون · وثمة مؤرخون آخرون يعلنون أن الأرض المقام عليها مسجد قباء كانت ملكا لامرأة يقال لها لينه Linah كانت قد اعتادت ربط حمارها بحبل طويل فيها ليرعى· وقد اعتاد الرسول صلى الله عليه وسلم زيارة مسجد قباء كل يوم سبت سيرا على الأقدام ، وكان صلى الله عليه وسلم أحرص ما يكون على أداء صلاة الفجر فى هذا المسجد فى اليوم السابع عشر من رمضان ! وثمة عدد من أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) تشير الى المنزلة الدينية الرفيعة لهذا المسجد ، ومن بين هذه الأحاديث حديثان لهما أهمية خاصة · وأول هذين الحديثين يؤكد لكل المسلمين أن صلاة فى مسجد قباء تساوى ثواب عمرة a lesser pilgrimage ، والحديث الثانى يفيد أن العبادة فى هذا المسجد أقرب الى الله وأحب من الصلاة فى المسجد الأقصى وأكثر من هذا فان معجزات عدة حدثت هنا ، كما نزلت هنا آيات من القرآن (الكريم) · لكل أولئك الأسباب فان مسجد قباء كان يحظى باحترام كبير من قبل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) الذى كنسه بنفسه بمكنسة من فروع أشجار شائكة ، وعبر عن دهشته واستغرابه لفتور ايمان المسلمين · ومسجد قباء فى الأساس كان مبنى مربعا صغيرا جدا ، وقد وسعه عثمان (رضى الله عنه) من ناحية المئذنة جاعلا كل ضلع من أضلاعه ستا وستين ذراعا Cubits · وكان مبنى

= (مبرك ناقته صلى الله عليه وسلم بدار بنى مالك بن النجار) :

حتى اذا أتت دار بنى مالك بن النجار ، بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ مربدا لغلامين يتيمين من بنى النجار ، ثم من بنى مالك بن النجار ، وهما فى حجر معاذ بن عفراء ، سهل وسهيل ابنى عمرو · فلما بركت ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل ، وثبت فسارت غير بعيد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامها لا يثنيها به ، ثم التفت الى خلفها ، فرجعت الى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ، ثم تحلحلت وزمت ووضعت جرانها ، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم · فاحتمل أبو أيوب خالد ابن زيد رحله ، فوضعه فى بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل عن المربد لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يارسول الله لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان لى ، وسأرضيهما منه ، فاتخذه مسجدا ·

المسجد فى وضع زرى أثناء زيارة بوركهارت له · وقد أقام له السلطان عبد الضميد ابن السلطان محمود مئذنة على الطراز التركى ، وشيد المسجد من أحجار مقطوعة ملساء ، الا أن فتحاته (طاقاته) تجعله أقرب الى مكان حربى صمم لأغراض حربية دفاعية منه الى مكان للعبادة · وعلى أية حال فان المبنى لايدل على الفخامة والعظمة · والى الجنوب منه يوجد رواق ضيق صغير ، به أعمدة بسيطة تطل على ساحة صغيرة مفتوحة غطتها الرمال ببساطة · وهذا كل ما يتعلق بمبنى المسجد كله ·

وكانت المصطبة الكبيرة عند مدخل المسجد مزدحمة بالجالسين ، وعلى هذا ، لم نضع وقتا ، بعد الوضوء ونية الزيارة عند صعود درجات السلم وعند خلع نعالنا وعند دخول المبنى المبارك · فجلسنا على مصلى النبى (الموضع الذى كان الرسول « صلى الله عليه وسلم » يصلى فيه) بعد أن حدد الشيخ نور وحامد هذا الموضع الطاهر (الميمون) للهندى المؤمن ، وقاما بفرش بساط فوق الحصير القذر وقد قمنا بأداء ركعتين أمام عمود بداخله محراب رخامى صغير وقد تم حفر هذا المحراب تخليدا لذكرى ما · وبعد أداء الصلاة أتى دور الدعاء Dua ، وكانت الدعوات كالتالى :

« اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد ، وعلى أصحاب سيدنا محمد ·· يا الله ، هذا مسجد قباء ومصلى رسولك ·· اللهم اغفر خطايانا وامح ذنوبنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا ، واغفر لنا وارحمنا واغفر للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات ، فأنت سبحانك سميع مجيب » · وبعد ذلك قرأنا التشهد testification والفاتحة بينما كنا نرفع أكفنا الى ما تحت وجوهنا ـ كما جرت العادة فى هذه الأحوال ·

وبعد ذلك تحركنا الى الركن الجنوبى الشرقى من المبنى ، وجلسنا قبالة المحراب فى الجدار الجنوبى للمسجد ، حيث توجد « دكة الكشف Takat al-Kashf » وهى الموضع الذى يعتقد المؤمنون أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان جالسا فيه موجها وجهه صوب مكة دون قصد منه ، فنزل جبريل (عليه السلام) وأزاح من أمام ناظريه كل الحواجز والحجب · وفى هذا الموضع قمنا بأداء ركعتين أخريين حيث توجهنا الى الله بالدعاء وقرأنا التشهد والفاتحة the Supplication , the testification and the Fatihah وقد فعلنا ذلك تحت ضغط وصعوبات فقد كان الناس يحتشدون ويتدافعون بشدة · وخلال أدائنا للصلوات حاولت ـ عبثا ـ أن أفك طلاسم الخط الكوفى المعقد المحفور على الجدار فوق المحراب وعن يمينه ، وكان أسفى ـ على أية حال ـ لهذا الفشل مؤقتا ، فلم تكن حروف النقش تنبىء عن قدم تاريخه · وبعد

ذلك غادرنا الرواق ، ورغم شمس الصباح المشرقة والباعثة لحرارة قاسية ، فقد ذهبنا الى منطقة مكشوفة هى « مبرك الناقة » حيث بركت « القصواء » ناقة النبى ، وكان المبرك مغطى بقبة صغيرة من الحجر ، مقامة على أربعة أعمدة حجرية ٠ ويبلغ ارتفاع المبنى (الأعمدة ، والقبة من فوقها) حوالى ثمانية أقدام ، أما طوله وعرضه فأقل من ذلك قليلا ٠ ويبدو منظر هذا المبنى (المقام فوق المبرك) حديثا ٠ فعلى أرضيته التى يتم الصعود اليها عن طريق درجات فوق سطح الأرض - توجد - كالعادة - قطعة من حصير قذر ، حيث أدينا بعض الشعائر الدينية كالتى أشرت الى تفاصيلها آنفا ٠

وخارج الظلة Canopy وخارج الرواق بقليل وبالقرب من المبرك ، صلينا فى موضع يقال له « مكان الآيات » Makan al-Ayat تحت أشعة الشمس ٠ ففى هذا الموضع تلقى محمد (صلى الله عليه وسلم) من الله (سبحانه) آيات قرآنية تشير الى طهارة المكان ، وطهارة أهل قباء فمسجد قباء أسس على التقوى من أول يوم ٠٠ وفى قباء يعيش اناس يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المتطهرين ٠ وقد تعجب الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلا : « يا أولاد عمرو Amr ٠ ماذا فعلتم لتستحقوا كل هذا المديح والاحسان ؟ » فقدم له أهل قباء شرحا لطهارتهم الشخصية ٠ وهو أمر لم ألحظه أنا شخصيا ٠ ولمسجد قباء منذ نزول الآيات الكريمة مسمى آخر ما زال مستخدما وهو مسجد التقوى Masjid al-Takwa ٠

وبعد الانتهاء من الصلوات والدعوات فى مسجد التقوى جاهدنا لشق طريقنا للخروج من بين زحام المتسولين الذين يسألون الناس الحافا واتجهنا بضع خطوات الى اليسار ، وتوقفنا بالقرب من مصلى صغير يحاذى الزاوية الجنوبية الغربية للمسجد الكبير (مسجد قباء) ٠ ووقفنا هناك ازاء نافذة عليها قضبان متوازية فى الجوار الغربى وقرأنا الفاتحة وتلونا التضرعات ، ناظرين بتوقير الى مجاز صغير dwarf Archway كانت فاطمة الزهراء قد اعتادت الجلوس فيه لطحن الغلال بالرحى a hand mill لذا فان هذا المصلى (المسجد) يحمل اسم مسجد « ستنا فاطمة » ٠ وقد وقف على باب المسجد خادم ذو نظرة صارمة ، يطلب دولارا بأكثر أساليب العرب حسما ٠ لذلك فاننا لم ندخل ٠

ويتحتم على المسافر فى المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) ، أن يضع يده دائما فى حقيبة أمواله (أن ينفق باستمرار) فليس الغريب فى باريس أو لندن بأكثر يقينا من البعد عن الخداع أو الافلاس ، وبالفعل بدأت أخشى ألا تكفى جنيهاتى الثمانين لكل نفقات رؤية المعالم الدينية ، كما اعترانى الخوف من عواقب افلاسى ٠ فقد كان صديقى الوحيد هو الولد محمد الذى أبدى بخلا مخيفا جعل له سمعة سيئة بين أبناء بلده - فقد

رأوا منفعلين - أنه كان يدعونى للبخل الشديد لدرجة أننى لو أطعته لتبقى معى مزيد من المال ، لأنفقه فى مكة المكرمة تحت توجيهه • وهكذا كانت الحال بوضوح شديد •لقد ألقيت كل اللوم الموجه لى على البخل الشديد على أكتاف مكيافيللى الصغير هذا • واعتزمت أن أدير ميزانيتى بنفسى فى مكة (المكرمة) بدلا من تركه يوجهها ، كما فعل فى المدينة (المنورة) •

وبعد أداء الصلاة أمام النافذة (المذكورة آنفا) مع ابداء اشمئزازى وقرفى الشديدين من الخادم (السابق ذكره) الذى راح يؤكد بشكل واضح أننا من الأتباع الأدنياء (من مسلمى الطبقة الدنيا Low fellows) • وقد مررنا خلال بعض الأزقة المحفوفة بالمتسولين وأطفال البدو حتى وصلنا الى ثالث مسجد صغير يقع الى الجنوب من المسجد الكبير (مسجد قباء) ويسمى مسجد عرفات ، لأنه حدث ذات مرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان غير قادر على زيارة جبل عرفات فى موسم الحج فوقف فى موضع هذا المسجد ورأى جبل عرفات من خلال الفضاء الكائن بين الموضعين ، وبذلك أدى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فريضة الحج بالروح (فى هذا العام) (٢٧) • وهنا أيضا نظرنا من خلال النافذة بدلا من فتح الباب بالمفتاح الفضى ، وكان المظهر البائس للجميع هنا قد منع اعتذارى ، لضرورة التقتير فى الانفاق •

وفى الهند أو السند يوجد فى كل قرية مسجد أفضل من المساجد الموجودة هنا • وكانت آخر زيارة لنا الى مصلى (مسجد) رابع وهو مسجد على ، فقد كان لعلى (رضى الله عنه) زوج ابنة الرسول ، منزل فى موضع هذا المسجد • وبعد الصلاة فى هذا المسجد الذى كان حارا بدرجة مرهقة وضيقا كجحر - اتخذنا طريقنا الى آخر موضع من مواضع الزيارة فى قباء ، وهو بئر عميقة وكبيرة تسمى بئر أريس Bir-al-Aris (٢٨) وتقع فى بستان الى الغرب من مسجد التقوى (مسجد قباء) وتحاذى هذه البئر مصلى صغير • وكانت الساقية تدور متثاقلة ، ويسقط الماء البارد فى حوض بالغ الصغر ، ومن هذا الحوض ينساب مندفعا ومحدثا خريرا فى مجرى صغير كأنه من صنع الأطفال - مكونا ما يشبه النهير الصغير • وعزفت الموسيقا حلوة عذبة فى أذنى • وقد رفضت باصرار أن أؤدى مزيدا

---

(٢٧) لم اقرأ ذلك فى كتب السيرة ولا أعرف مدى صحته - (المترجم) •

(٢٨) انظر السمهودى ، وفاء الوفا باخبار دار المصطفى • بيروت ، دار احياء التراث ، ط ٣ ، ١٩٨١ ، ج ٣ ص ٩٤٣ - (المترجم) •

من الصلوات ، رغم تكرار الحاج الشيخ حامد وتأكيده على ضرورة ذلك بشكل أبوى هو أحد مستلزمات عمله (مهنته) « ان عدم أدائك مزيدا من الصلوات ، أمر خاطىء » ، الا أننى جلست بطريقة لم يكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يأنف منها وقد صممت على الاستمتاع على حافة البئر وقضاء لحظات قليلة فى حالة استرخاء · لقد كانت الحرارة شديدة مع أن الساعة لم تكن تتجاوز التاسعة صباحا · لقد كان صوت الماء المندفع مهدئا ، فقد كانت الساقية تصدر صريرا كأنه أغنية خفيفة تحض على النوم وكان حفيف أشجار الليمون والرمان رقيقا ، وكانت تلقى بظلالها باعثة شذا عطريا مبهما يبثه نسيم الصباح · واستغرقت فى النوم ، ومن عجب أنى رأيت فى منامى أننى مازلت واقفا « على مقربة من جدار عليه الكرمة المصلبة the crucified vine » ناظرا الى وادى ليسان Lianne (؟) ببحوره البيضاء المزرقة glaucous وسماواته الرمادية ، والشواطىء هنا وهناك قد بيضها الجليد ·

وبئر أريس ··· هى احدى الآبار التى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب زيارتها · فقد كان يجلس على حافتها مدليا رجليه (بعد خلع خفيه) على جانبها ، وقد تعود أصحابه تقليده فى جلسته هذه · وتسبب جلوس النبى (صلى الله عليه وسلم) عند البئر على هذا المنوال فى واقعة غير طيبة · ففى العام السادس من خلافة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) – وفقا لرواية أبى الفدا وياقوت – سقط من اصبعه (أى اصبع عثمان رضى الله عنه) خاتم النبى (صلى الله عليه وسلم) الذى كان محفورا عليه فى أسطر ثلاثة عبارة (محمد – رسول – الله) وكان هذا الخاتم يستخدم فى ختم الرسائل المرسلة الى الملوك المجاورين ، وانتقل من الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى خلفائه الثلاثة (أبو بكر وعمر وعثمان) الأول · ولم يعثر أحد على الخاتم بعد ثلاثة أيام من البحث ، لذلك سميت هذه البئر بعد ذلك ببئر الخاتم ، كما سميت أيضا ببئر التفلة Saliva لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد شرف هذه البئر بالتفل فيها ، وقد شوهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك يتفل فى معظم آبار المدينة (المنورة) · ويذكر المؤرخون أن بئر أريس كانت مياهها مالحة ، فأصبحت عذبة بعد تفل الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيها · وعلى أية حال ، فان طعم مياه هذه الآبار لم يمنع اكتشافى طعم الدواء الصارخ فى المياه الفاترة التى سحبها حامد من أجلى · وعلى أيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان العدد الاجمالى للآبار – كما هو مسجل – عشرين بئرا معظمها قد اختفى من زمن طويل ولم يبق الا سبع آبار كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد شرب منها ، لذلك كان على الزائر أن يتوجه لزيارتها ، وتعرف بالآبار

السبع · وأسماء هذه الآبار مذكورة فى مقطع شعرى من اغنية شعبية :

الأريس والغرس (؟) Ghars والرمة Rumah

والبزعات Burza'at .

والبساط Busat والبرحة (؟) Bayruha .

والعين Ihn (?) .

وبعـد نومى الذى اسـتغرق مقدار ما تدور الشيشة Latakia دورتها على المتحلقين حولهـا ــ قمت مع رفاقى لنركب دوابنـا مرة أخرى ، لنعود للمدينة (المنورة) وقد أشار رفاقى لى الى يسار القرية حيث بستان يقال له المدشونية Al-Madshuniyah ويحوى هذا البستان موضعا لاستخراج الغرين أو الطين الصلصال Loam or bole-earth (٢٩) ، ويسـميه العرب الطفلة Tafl ، ويسـميه أهـل فارس جلى سارشـو Gil-i-Sarshui ويسميه أهل السند ميتو M'tu · ويستخدم كصابون فى أجزاء كثيرة من بلاد الشرق ، ويخلط بالزيت ويستخدم لترطيب الجسم وجعل الجلد منتعشا لينا · ويروى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عالج بدويا من قبيلة بنى حارس Benu Haris trike من الحمى بجعله يستحم بماء أذيب فيه ملء قدر من الطفل · ومن هنا فان تراب المدينة (المنورة) حظى بشهرة علاجية · وكل ما عرفته من واحد من أهل المدينة (المنورة) أن هذا الطمى (الطفل) لم يعد ذا قيمة بالنسبة لهم سواء فى الأغراض الطبية العلاجية أو التجميلية ، فاستخدامهم الوحيد له والذى يمكن ذكـره هـو أن الجنس اللطيف يأكلنه كعـلاج من الداء الأخضر (الكلوروز) (٣٠) ·

---

(٢٩) Loam كلمة المانية الاصل بمعنى الغرين وقد تعنى تربة رملية طينية مكونة من رمل وغرين وصلصال على نسب لا تجعل لأحد هذه العناصر تأثيرا سائدا فى خصائص التربة · عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ــ (المترجم)

(٣٠) الرمع او الكلوروز Chlorodis نوع من الأنيميا يصيب صغار النسـاء · عن المعجم الطبى الحديث للدكتور ميلاد بشاى ــ (المترجم) ·

الفصل العشرون

زيارة قبر حمزة (رضى الله عنه)

وصول قافلة الحج الشامى ـ الكسوة ـ اعاشات اهل المدينة ـ العناق بين العرب ـ بر المناخة ـ المزاج الخشن ـ خيمة امير الحج الشامى ـ جبل احد وما قيل عنه ـ جبل عير وما قيل عنه ـ المستراح ـ الزيارة ـ القبور ـ الشيعة والخلفاء الراشدون ٠

وفى صباح يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر ذى القعدة (الموافق الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٥٣) وصلت من الشام (دمشق) القافلة الكبيرة المعروفة باسم قافلة الحج الشامى ، تماما كما تسمى قافلة الحج المصرية بقافلة الحج المصرى (بفتح الميم) نسبة الى مصر (بفتح الميم) وتعنى القاهرة (١) وقافلة الشام بمثابة النهر الرئيسى الذى تصب فيه كل الروافد الصغيرة ، ففى هذا الموسم الحافل بالحركة ، تنساب الجموع من آسيا الوسطى قاصدة القلب النابض للعالم الاسلامى٠ ففى سنة ١٨٥٣ بلغ عدد القادمين لأداء الفريضة زهاء سبعة آلاف نسمة ٠ وكان الناس (فى هذا العام) يترقبون وصول القافلة بقلق ، لعدة أسباب ، أهمها أن القافلة كانت تحمل معها كسوة جديدة للحجرة النبوية Prophet's Hujrah ، فقد بليت الكسوة القديمة واهترأت، والسبب الثانى أن القافلة كانت تحمل الاعاشات السنوية والمنح المالية لأهل المدينة ، والسبب الثالث أن أسرات كثيرة كانت تتوقع أن تستضيف أفرادا من القافلة فى منازلها ٠ وكان القلق العام يزداد بسبب الأوضاع غير المستقرة فى المناطق المحيطة بالمدينة (المنورة) ، وزاد من القلق أن القافلة الكبيرة تأخرت يوما عن ميعاد وصولها المعتاد ، وهو صبيحة اليوم الثانى والعشرين من شهر ذى القعدة ٠

---

(١) بيرتون هنا يذكر لنا المفاهيم الشعبية للكلمات وطريقة النطق الشعبى (قد يكون غير فصيح) فمصر بفتح الميم يقصد بها العامة القاهرة (ربما الى الآن) أما الشام فالمقصود هو دمشق وليس منطقة الشام ـ (المترجم) ٠

واثناء الليل ، أتى الى المنزل فجاة ثلاثة من اخـــوة الشيخ حامد Hamid ، كانوا قد التحقوا بقـــافلة الحـــج كمزوورين Muzawwirs ـ وسرعان ما قفزوا من فوق جمـــالهم ، ولم يضيعوا لحظـــة واحـــدة من الانخراط فى التقبيل والعناق ، والبكاء بحرارة فرحا ـ وهى حالة معتادة ومألوفة يندمج فيها الكثيرون • وقد استيقظت فى الصباح ، وتطلعت عبر نوافذ المجلس the Majlis • لقد كان بر المناخة The Barr al-Manakhah تتناثر فيه بعض خيام الشعر البدوية القليلة ، وكان بر المناخة باتساعه القفر المترب قد اتخذ كل الأشـــكال وحفى بكل الألـــوان وكأنه منظور كاليدوسكوبى (مشـــكالى) (٢) • ولقد كانت العـــين حيرى ذاهلة لفرط تنقلها بين ما لا يحصى من التفاصيل • ففى كل الأنحاء تجد اختلافا وتباينا من موضع لآخر ، ففى هذا الموضع الصغير تجد كل شىء مختلطا معا ، وعلى أية حال فقد انهمكت فى هذا المنظر الجـــدير بالمشاهدة ، ان المكان عاج بالبهجة لما فيه من التباين والحيوية ، انه منظر فى حاجة الى ريشة فنان the intsnse picturesquences of the scene (٣) • ففى ليلة واحدة انشقت الأرض عن مدينة من الخيام من كل حجم ولون وشكل ، منهـــا المستدير والمربع والمستطيل ومنها المفتوح والمغلق ، ومنها ما كان مجرد شيلان (جمع شال) حفت بموضع ، ومنها صـــوان الباشا الذى ذهبت قمته ، والذى الحقت به صوانات فخمة للحريم ، وغير بعيد عنها توجد النصبات (جمع نصبة) الخضراء القذرة لبائع التمباك tobacco seller . لقد صفت الخيام فى نظام عجيب ، فهنا نجدها قد اصطفت فى خط طولى طويل ، اذ أن وجود شارع هنا يعد أمرا ضروريا ، وهناك تكأكأت الخيام وتزاحمت حيث وجود الممرات والشوارع غير ضرورى • لكن كيف يمكننى أن أصف الفوضى التى لا نهاية لها فى هذا الزحام ؟ كيف يمكننى أن أصف النشاط الصاخب والهياج ؟ وكيف يمكننى أن أصف كم الأصوات المتباينة تباينا شديدا ؟

والجمال السورية بيضاء وضخمة ، اذا قورنت بالجمال الحجازية التى تبـــدو ـ بالمقـــارنة ـ مجـــرد أقزام جمـــال (جمال قزمية)

---

(٢) الكاليدوسكوب Kaleidoscope كما فى معجم المصطلحات العلمية والفنية هو المشكال أو منظار النماذج المتغيرة ، وشرحه بتبسيط منير البعلبكى فى المورد بانه أداة تحتوى على قطع متغيرة من الزجاج الملون ما ان تتغير اوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الوانها ـ (المترجم) •

(٣) ترجمنا هذه العبارة بقولنا : « انه منظر فى حاجة الى ريشة فنان » لان الترجمة الحرفية ستفقد النص جماله ـ (المترجم) •

Pony-Camels (٤) فالجمـال السورية تحمل أجراسا ضـخاما تجلجل بصليلها ، وتحمل الشـقاليف (الشـجاليف : جمع شـجلوف أو شقلوف) (٥) كأنها خيام خضر صغيرة ، وتتمايل فوق ظهورها التختروانات Takht-rawan الفخمة · والتختروان هودج فخم يحمل بين جملين أو بغلين (كما فى الصورة) وللجمال حاملة التختروانات جلل (أسرجة) قرمزية مزينـة بالنحاس (الصفر) · ويركب البـدوى الذلول (٦) Daluls (البعير) العارى ظهره ، وقد باعد (البدوى) ما بين رجليه ·

والبدوى يتعلق كالقرد بشعر سنام الذلول (البعير) · ويبدو منظر الأرناؤوط Arnaut (الألبـان) والأكراد ، والفرسـان التـرك غـير النظاميين ، فى حالة مرحهم ومزاحهم مخيفين أكثر من منظـر الفـلاحين الرومان فى حال سخطهم وهياجهم ·

والحجاج الفرس الضعفاء ينيخون جمالهم العنيدة قسرا أو يقفزون من فوق حميرهم الخائرة ، مدمدمين بكلمات تنم عن الاجهاد ، والتعب الذى

---

(٤) Pony تعنى فرسا قزما أو فرسا مسكا ، وفى المختص : فرس مسلك أى فرس صغير الجسم ، وتطلق Pony فى الانجليزية على أقزام الخيل التى لا يزيد ارتفاعها عن ٥٦ بوصة · أما التعبير الذى استخدمه المؤلف Pony-Camals فهو من التعبيرات الخاصة التى ابتدعها بيرتون وما اكثر مثل هذه التعبيرات فى كتابه · والمقصود طبعا أن الجمال السورية أضخم من الجمال الحجازية ، وليس المقصود أن الجمال الحجازية فيها الصفات القزمية المعروفة علميا ـ (المترجم) ·

(٥) الشقلوف السورى يختلف تماما عن الشقلوف الحجازى · فالشقلوف السورى يمكن مقارنته ببرجين خشبيين متينين ، يبلغ ارتفاع الواحد منهما أربعة أقدام ، وتوضع على جانبى الجمل ، وتغطى بالاقمشة بطريقة تجعلها على شكل خيمة · والشقلوف السورى بوضعه هذا يبلغ فى ثقله ضعف ثقل الشقلوف الحجازى ·

ويرفض الجمال السورى وضع الشقلوف الحجازى فوق جمله ، كما يرفض الجمال الحجازى وضع الشقلوف السورى فوق جمله · (بيرتون) ·

(٦) كلمة ذلول كلمة عربية محدثة مرادفة للكلمة المصرية الهجن "Hajin" والتى تعنى الناقة a shedromedary · وكلمة الناقة Nakah كلمة شائعة الآن فى الحجاز وهى تعنى انثى الجمل التى تحتفظ بها العرب للتربيـة for breeding والركوب ـ (بيرتون) ·

تعليق المترجم : الواقع ان ما ذكره بيرتون خطأ تماما ، فكلمة ذلول كلمة عربية فصيحة وقديمة وليست محدثة كما ذكر · كما أن كلمة الهجن Hajin ليست مقتصرة على مصر ـ وان كان هو سمعها فى مصر ، فان هذا لا يعنى انها دارجة مصرية ـ (المترجم) ·

لاقوه • والقهوجية Kahwajis وبائعو الشربات Sherbet sellers
وبائعـــو التمبـاك الجوالون tobacconists ، كل أولئـك يصيحون
معلنين عن بضائعهم ، ويرعى أهل البلاد قطعان الأغنام والماعز بصخب
لانهـــاية له بين صفوف الخيول التى تصهل بوحشية ، ويقوم بعض
الفرسان بشكمها (كبحها) • وخيول أخـــرى ترفس وترتد وتتراجع ،
وأخرى تنتصب على قوائمها الخلفية Snorting, biting, kicking, or roaring
ويبحث أهل المدينة عن أصدقائهم ، ويتبادل المسافرون العائدون التحيات
الحرى • والحجاج الذين حسن اعتقادهم يتدافعون ويجرون بين قوائم
الجمال ويقفزون فوق حبال الخيام مسرعين ليصلوا الى الحرم Harim .
كل ذلك والمدفع يعوى مطلقـا قذائفه من القلعة وأصحاب الحـوانيت
والسقاؤون وبائعو الفاكهة يتشاحنون لعقد الصفقات • والأولاد بصراخهم
العالى يتنمـرون ويستأسـدون بطريقة مخالفة للدين bullying heretics
وثمة رهط من شيوخ عرب عشيرة حميدة Hamidah العريقة وقد تقدمهم
خدمهم ، راحوا يمارسون رقصـــة العرضة Arzah (أو رقصـــة
الحـــرب war dance) (١) مطلقـين نـيران بنـــادقهم البدائيـــة
duck guns فى الفضاء أو نافخين البـــارود فى بط السوق the Claves
(؟؟) (الأحزمة ـ جمع حزام) للذين أمامهم وملوحين بسيوفهم ، وهم يقفزون
قفزات سريعة بهياج شديد ، بينما تحلق أعلامهم (شاراتهم rags) الملونة
المشرقة وترفرف فى الهواء ، ويقذفون برماحهم الطويلة المحـلاة بريش
النعام عاليا فى الفضاء غير مبالين بمواضع سقوطها ، والخدم يبحثون عن
سادتهم ، والسادة يبحثون عن خيامهم ، وصرخات بلا جـدوى تنادى
« يا محمد » (٧) ويركب الأثرياء (النبلاء) البغال أو يمشون شامخين على
أقدامهم خلف خدمهم الذين يصيحون لافساح الطريق لسادتهم ، وتجد هنا
الصرخات العالية للنسوة والأطفال حيث تحتك شقاديفهم Litters محدثة
صريرا مزعجا ، وهناك تسمع أنين بعض البائسين الفقراء الذين يبحثون عن
ركن ظليل ليسلموا الروح به • أضف لكل هذا طبقة كثيفة من الأتربة
تلطخ المنظر العام وكأنها ضباب لندن • ولا أنسى الشمس الحارقة التى
تعكس شررا من النار منعكسا من الأسلحة اللامعة التى يحملها هذا الجمع
المزدحم ، ومن الأجراس النحاسية للخيام والشقاديف والتختروانات •
واننى لا أشك ـ عزيزى القارىء أنه رغم طول هذا الوصف الذى قدمته ،
وتضاربه أو كثرة متناقضـاته ، وما ينم عنه من فوضى لا نظير لهـــا ـ

---

(٧) المسلمون السنة والمثقفون عامة لا يستغيثون بمحمد صلى الله عليه وسلم وانما بالله (سبحانه) (المترجم) •

الا أنه وصف دقيق مطابق للواقع ، فأية كلمة تصويرية word-painting من كلماتى قد تغير الفكرة الدقيقة لهذا المشهد ٠

لقد كان هذا هو اليوم الذى حدد لنا لزيارة قبور شهداء جبل أحد ٠ وبعد أن صلينا صلاة الفجر متجهين صوب (الكعبة المشرفة) ركبنا حميرنا وتسلحنا بالمسدسات والسكاكين خرجنا من المدينة ، لقد كان جمعنا كبيرا وعرض سعد Sa'ad الرجل القوى the Demon أن يصطحبنا وقد جعله الهياج المحيط به فى حالة فكهة للغاية ، وكان عمر أفندى أيضا هناك يبدو منظره هادئا ، وكان متواضعا كعادته ، يقود حماره ليتجنب النزول من فوقه كل دقيقة (٨) ٠ وكان لدى محمد ، وعبدى والشيخ حامد Hamid الذى حضر بصحبة ستة أقرباء ٠ ولتجنب الازدحام والتدافع فى بر المناخة the Barr al-Manakhah ـ قمنا بالالتفاف نحو الغرب فوق الجسر ونزلنا الى باطن سهل السيح Al-Sayh ، ومن ثم مررنا على طول السور الجنوبى للقلعة مجتازين تحصيناتها الشرقية لنخرج من الباب الشامى ٠ وكنا معظم الوقت نكافح لشق طريقنا عبر أمواج عاتية من الزحام ٠ ويبدو الحمار أكثر المخلوقات سعادة على الاطلاق اذا قورن بالجمال والخيول ـ فى هذا الزحام ٠ وببعض الصعوبة ـ اذ لم أقع أكثر من مرة أو مرتين ـ وجدنا أنفسنا فى ساحة الى الشمال من المدينة (the city) ٠ وكانت هذه الساحة ـ أيضا ـ مغطاة بالمسافرين والخيام التى كان بينها خيمة أمير الحج المتألقة الخضراء والواضحة للعيان بكبر حجمها ، وكانت منصوبة على مكان مرتفع الى الشمال من الطريق ، وكانت جوانب الخيمة مرفوعة حتى منتصف ارتفاعها وبدا سلطان (أمير) المحمل الشامى جالسا وكان كل شئ حوله يتألق بالخضرة والأثاثات المموهة بالذهب والفضة ، بل وبالذهب الخالص أيضا ، وقد نصبت حول خيمة أمير الحج الشامى ، خيام جميلة مخصصة للموظفين الكبار وعلية القوم فى القافلة ٠ والى اليمين تمتد بساتين النخيل ٠ والى الشمال توجد هنا وهناك علامات دالة على العيون والبرك التى بنيت لتزويد الحجيج بالماء ٠ وقد مررنا بمدينتين صغيرتين احداهما قبة السبق التى تعود جنود النبى (صلى الله عليه وسلم) أن يستعرضوا فروسيتهم بها ٠ والمبنى الثانى أو المكان الثانى هو قبر سيدنا زكى الدين Zaki-al-Din وهو واحد من ذرية سيدنا محمد كثيرة العدد ٠ ثم هبطنا الى سهل يشبه سهل قباء الا أنه أقل خصوبة ٠ وبينما كنا

---

(٨) الأشخاص المحترمون فى الحجاز يجدون من الأدب أن يترجلوا عن حميرهم اذا التقوا بأصدقائهم ومعارفهم أو من هم أعلى منهم مقاما ـ (بيرتون) ٠ Superiors

نصعد جبل أحد برفق (٩) . وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن هذا التل المقدس : « أحد جبل يحبنا ونحبه ، انه على بوابة الجنة » ، واضاف الرسول (صلى الله عليه وسلم) « وعير Ayr موضع يكرهنا ونكرهه (١٠) . انه بوابة الجحيم » فجبل أحد قد حمى الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقت الخطر لذلكفانه سيرفع الى الفردوس فى اليوم الآخر ، بينما جبل عير المجاور لجبل أحد فقد أساء للرسول (صلى الله عليه وسلم) بمنعه الماء عنه عندما كان ظمآن ، لذا فسوف يحشر (أى الجبل) فى جهنم حشرا . وتنسب عقائد المسلمين - كما لاحظنا - للرسول (صلى الله عليه وسلم) معجزات عن هيمنته على الحيوان والنبات والمعادن - تماما كهيمنته على البشر والملائكة والجن . فمرة تحدثنا المأثورات عن ذئب يتحدث ، وأخرى تحدثنا عن عمود يبكى وثالثة عن حجر يخرج زيتا بالاضافة لحديث عن جبل أحد وحبه ، وجبل عير وكرهه . وربما كان هذا من البقايا العديدة للوثنية القديمة التى تسللت للاسلام وانحدرت اليه . وجرت العادة بعد ذلك أن تشكل صرح الاسلام (١١) (هذا قول يحتاج لتعليق لأن فيه تجنيا شديدا) فعقائد الفرس القدماء تؤكد أن للكواكب والنجوم أرواحا حية ، وبعض عقائد الهندوس ترى الأرض أما ، وأننا مجرد كائنات حية تزحف متطفلة

---

(٩) ساق بيرتون هنا بيتين من الشعر الجاهلى لم نهتد اليهما فى دواوين الشعر الجاهلى التى تمكنا من تصفحها ، وها نحن نسوقهما بالانجليزية عسى أن يهدينا أحد الأصدقاء او القراء لأصلهما العربى :

"Verily there is healing to the eye that looks unto Ohod and the two Harrahs near".

حقا ان العين لتبرأ عند النظر
الى احد والحرتين القريبتين منه .

(المترجم) .

(١٠) تشير كتب الاحاديث الى احاديث بهذا المعنى مع اختلاف يسير فى الأسلوب - (المترجم) .

(١١) يمتاز كتاب بيرتون هذا أنه ينقل من أفواه الناس مباشرة فى الغالب وليس من المراجع ، لذلك فهو مصدر أصيل للفكر الاسلامى الشعبى (لا كما ينبغى أن يكون) فما يقوله بيرتون محسوب على المسلمين وليس الاسلام فماذا يقول بيرتون وهو يرى المسلمين ينذرون لغير الله ويزورون الأولياء فى الهند ومصر والحجاز ويطلبون منهم تحقيق مرادهم .. لكن بيرتون العظيم يسوق امثلة من حضارات وديانات أخرى مما يؤكد أن شيوع الخرافة ليس مقتصرا على المسلمين وحدهم لذلك فان بيرتون مثله مثل بوركهارت يحترم كثيرا اهل السنة ويشيد فى اكثر من موضع بالسلفية أو العودة للأصول الاولى - (المترجم) .

على صدرها . وكانت هذه أيضا هي عقائد المصريين القدماء الذين رمزوا للأرض بكرة لهـا سيقان بشرية . كمـا أن الماكروكوزموس Makrokosmos الذى ابتدعه الاغريق هو حيوان ضخم حجمه ، والانسان هو الشكل المصغر منه Mikrokosmos كمـا نجد عند الرومان أن تليوس Tellus أو ترا Terra كانت الهة أنثى تجسدت حسب النظام الرومانى التوفيقى Syncretic System الذى كون مجمع آلهـة غريبـة . الا أنهم (أى الرومان) أغفلوا أن يقدموا لنا قائمة تشرح المعنى الداخلى للرمز . وبعض الفلاسفة المحدثين مثل كبلر Kepler وبلاكمور Blackmore وغيرهم لم يرتابوا فى اعتقادهم بأن الحياة مجرد كلمة على لسان الانسان لا يمكن اثباتها أو دحضها . أما المسلمون فهم - كعادتهم - يبالغون فى عقيدتهم فالحديث الذى رواه أبو هريرة يجعل الشمس والقمر يحشران فى نار جهنم .

وترجع شهرة جبل أحد الحاليـة الى كهف فيه حمى رسـول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما كان أعداؤه يلاحقونه ، والى بعض الينابيع التى شرب منها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فهذا الجبل قد شـهد « غزوة أحد » الشهيرة فى تاريخ الاسلام ففى يوم السبت الحادى عشر من شهر شوال فى العام الثالث للهجرة اشتبك محمد صلى الله عليه وسلم وسبعمائة من أتباعه مع ثلاثة آلاف كافر بقيادة أبى سفيان . وقد تعرض الرسول نفسه لخطر عظيم ، وقتل عمه حمزة (سيد الشهداء) (١٢) . وفى أعلى الجبل توجد قبة هارون Kubbat Harun وهى قبة أقيمت على رفات سيدنا هارون . وقد أخبرونى أن هذه القبة فى حالة سيئة وأنها موجودة فوق قمم جبال سبع أخرى ، وفى وضع يشبه على نحو ما تلك الأبنية المقامة على بقايا رفات القديس أنجليو Angelo على خليج نابلى .

واشارة الى الجهد الشديد الذى يبذله الانسان للوصول الى قبـة هارون ، اقتبس واحد من أهل المدينة شعرا ذهبيا ظريفا نقشه على الجدار بعد أن فقد أنفاسه فى الصعود للقبة :

« ملعون ابن ملعون Malon ibn Malon » .

رجل طلع قبة هارون « Man tala'a Kubbat Harun ! » .

---

(١٢) ما ذكره بيرتون عن غزوة احد لا يخرج عما ورد فى كتب السيرة .
(المترجم) .

ويزور المسلمون الأتقياء جبل أحد صباح كل يوم ثلاثاء بعد صلاة الفجر فى الحـرم ، فهم يأتون هنـا للصـلاة ، ترحمـا على أرواح الشهداء ، وبعد زيارة القبور يعودون للحرم لأداء صـلاة الظهر · وفى الثانى عشر من شـهر رجب يأتى الزوار بأعداد كبيرة للمدينـة حيث ينصبون خيامهم فى السهل لمدة ثلاثة أيام أو أربعة يقضونها فى الاحتفال والبهجة والصخب والصلاة والدعاء ، كما يحدث عادة فى موسم الحج ، وكما يسود بشكل عام فى الموالد (الاحتفالات بالموتى الصالحين) ·

وبعد نصف ساعة من الركوب وصلنا للمستراح the Mustarah وهو مكان للراحة والاستجمام ، وسمى هذا الموضع بهذا الاسم لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) جلس هنا لبضع دقائق فى طريقه لغزوة أحد · وبناء المستراح حديث ، وهو مجرد مبنى مربع ذى جدران صغيرة مطلية باللون الأبيض ، ويصلى الأتقياء من المسلمين داخـل هذا المبنى الصغير (المستراح) وفى جانب المبنى الخارجى المواجه للمدينة المنورة يوجد مقعد على شكل كرسى من الحجارة غير المصقولة · وقد أجلسنى مزورى على هذا المقعد الحجرى وراح يرتل بعض التوسلات والدعوات غير المهمة لأرددها خلفه · وبعد الانتهاء من هذه التوسلات قرأنا الفاتحة ، ثم ركبنا حميرنا واتخذنا سبيلنا مرة أخرى ، حتى وصلنـا على مرأى من الحرة الثانية التى تقع الى يمين الطريق وعن شـماله ، وهى تشبه خطوطا من الحمم البركانية ، الا أنه لم تتح لى الفرصة لتفحصها عن قرب · وما لبثنا أن وصلنا الى بساتين أحد وهى تشبه بساتين قباء الا أنها أقل مساحة ، وسرعان ما وصلنا الى ما يمكن وصفه بحياة نباتية وخضرية ، فى مجرى ملىء بالرمال غير متماسكة loose sand والأحجار الضخام التى تشير الى سيل عات · وينساب هذا المجرى على طول السفح الجنوبى لجبل أحد ، ويقال انه جزء من سهل المدينة ، ويجمع هذا المجرى المياه المنصرفة من الأراضى المرتفعة الواقعة الى الجنوب والجنوب الشرقى منه ·

ويمكن عبور باطن هذا المجرى بعد هطول الأمطار ، بل انه فى بعض الأحيان تفيض السيول لتجتاح البساتين المجاورة · وفى اتجاه هذا المجرى Fiumara حكمت أنه ولا شـك يمد الغـابة (١٣) Ghabbah ، أو الحوض basin الواقع بين التلال الى الشمال من السهل · وعلى أية حال فان مصادر حسنة الاصطلاع أخبرتنى أن كمية هائلة من المياه

---

(١٣) اسم حى ، وسمى بهذا الاسم تجاوزا لكثرة أشجاره ، ويسمى أيضا الزغابة ـ انظر السمهودى ـ (المترجم) ·

لن تبقى مدة طويلة هناك ، وانما تنساب عبر مجرى السيل فتتوجه فى الغاط Ghats غرب المدينة (المنورة) لتصب فى البحر الأحمر بالقرب من ميناء الوجه ، والى الجنوب من المسيل Fiumara توجد قرية على نتوء جبلى مرتفع تضـــم بعض البيوت الكبيرة من الطوب الأحمـر ، الا أنهـا الآن مخربة ، وتعود هـذه البيـوت (الفيلات) لمواطنين أثرياء ومواطنين لهم مقام دينى ، زاروا المكان بحثا عن هواء نقى ، وبغية الترفيه ، وأيضا بقصد التعبد قرب قبر سيد الشهداء ، حمزة · حميرنا الآن تغوص الى مافوق الحافر فى الرمال غير المتماسكة فى بطن السيل (مجرى السيل)· وقد وصلنا للجانب الشمالى وبعد أن صعدنا منحدرا هينا وجدنا أنفسنا فى أرض المعركة (معركة غزوة بدر) ·

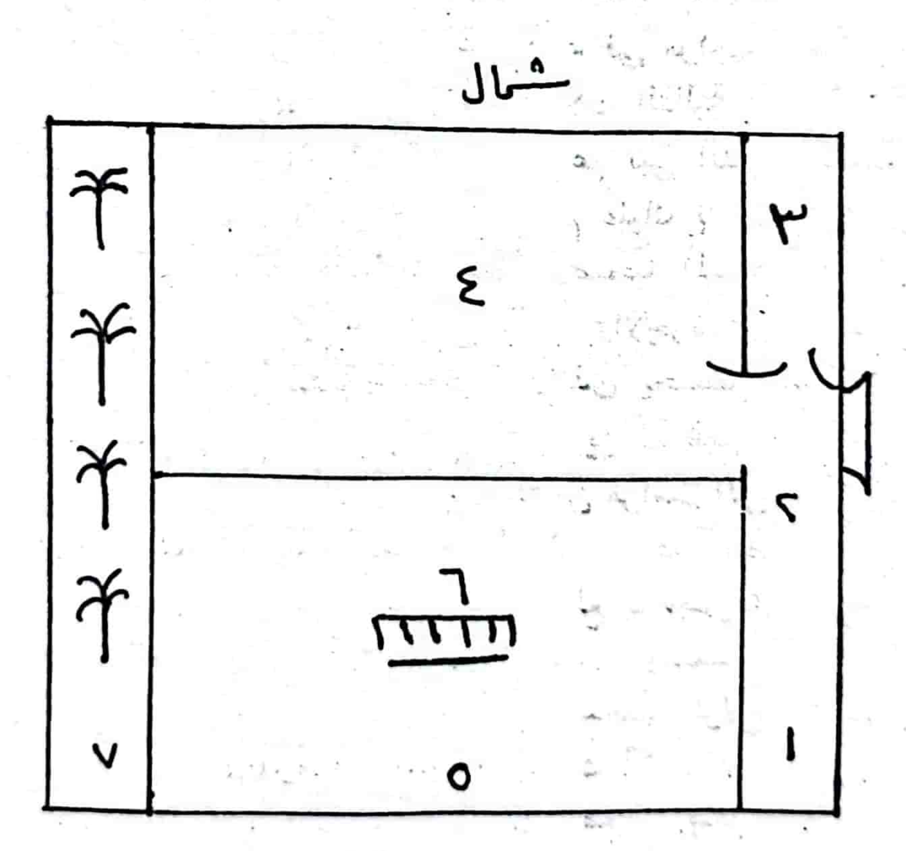
وهذه البقعة المشهورة للغاية فى الحوليات الاسلامية ، عبارة عن شريط طولى من الأرض متصلة بالسفح الجنوبى لجبل أحد · وكان جيش الكفار قد تقدم من (المسيل) Fiumara على شـكل هلال ، بقيـــادة أبى سفيان ، ومعهم أوثانهم فى الوســط · ويبعد موقع المعـركة حوالى ثلاثة أميال من المدينة المنـورة فى اتجاه الشمال · ويرى كل زائر أنهـا بقعة جدباء حصبائية مغطاة بأكوام صغيرة من الجرانيت المختلفة ألوانه ، والأحجار الرملية الحمراء وقطع الرخام السماقى porphyr لتحديد أماكن سقوط الشهداء والمواضع التى دفنوا فيها · ويمكن أن يرى المرء من هذه النقطة شيئا ما مرعبـا فى منظر هذا الجبل المقـدس ـ فجانبا الجبل الخشنان الملفوحان يرتفعان ككتلتى حديد من السـهل والصدع Crevica الذى تراجع منه جيش المسلمين بسبب مخالفة الرماة للأوامر باسراعهم لجمع الغنائم to plunder مما مكن خالد بن الوليد من الانقضاض على مؤخرة جيش الرسول (صلى الله عليه وسلم) ـ هذا الصدع هو الشق الوحيد فى السـور الكالح in the grim wall · انه جبـل تنبعث منه الحرارة ، وسطحه لا ينبت شجيرة ولا حتى نبتة قزمية معوقة · ولا ترى على جانبيه القاحلين طائرا أو حشرة · وتتلألأ السماء فوق حوافه الجرداء الصلعاء الجافة ذات المنظر الكئيب · لقد كنت سعيدا عندما أشحت بعينى بعيدا عنه (١٤) ·

والى اليسار من الطريق الواقع شمال مجرى السيل fiumaro والمؤدى الى الجبل ، يقع مسجد حمزة (رضى الله عنه) وهو يشبه المسجد

---

(١٤) سبحان الله ، فرغم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا يزال الناس حتى الآن فى أنفسهم من جبل أحد شىء بسبب هزيمة المسلمين عنده فيقولون : « أثقل من جبل أحد » وبيرتون باشاحته وجهه عنه لم يبعد كثيرا عما يفعله بعض المسلمين ـ (المترجم) ·

النبوى بالمدينة (المنورة) ، وهو بمثابة معبد (مسجد) وضريح لحمزة سيد الشهداء ٠ انه مبنى مربع صغير ومتين ، مشيد من الحجارة المنحوتة ، وله قبــة تغطى البناء المنعزل ، المعمد (أى المحمــول على أعمدة) فى الجنوب من المسجد ، بالاضافة للمئذنة المعتادة ٠ ويوجد فى الجنـــاح الغربى زاوية Oratroy (مصلى صغير) متبــوعة بالصوفى الشــهير والشيخ الجليل محمد السمان الذى كان بائع سمن ، ومن سلالته ذلك الشخص الذى يجلس الى جوارى ٠ انه الشيخ حامد الذى ذكرته للقارىء قبــل ذلك ٠ وفى الجانب الشرقى من المبنى نصف جناح ، وباب صغير يفتح ناحية الجنوب ، والمصطبة التى يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام أو ستة ٠ وهذا (نصف الجناح والباب والمصطبة) يمثــل الجانب الشرقى من المسجد ٠ وعن يمين الطريق المواجه لمسجد حمزة يوجد بناء ضخم مخرب فى الوقت الحالى ٠



١ ـ المصطبة Mastabah

٢ ـ المدخـــل Entrance

٣ ـ ممر يفضى الى المئذنة Passage leading to minaret

٤ ـ باحة غير مسقوفة (مكشوفة) Hypaethra

٥ ـ رواق مسقوم مقام على أعمدة Hypostyle

٦ ـ قبر حمزة Hamzah's Tomb

٧ ـ زاوية (مصلى صغير) ونخيل ٠ The Zawiyah .

ويحتوى هذا البناء على حفرة عميقة تؤدى لبئر ، بالاضافة الى مصطبة كبيرة لراحة المسافرين · وخلفه من ناحية الجبال توجد قصور صغيرة سأصفها بعد قليل ·

وكانت بعض النســـوة التركيات تجلسن محجبات على المصطبة الظليلة فى مواجهة مسجد الشهداء Martyr, Mosque · وعلى مسافة غير بعيدة منهن أزواجهن ، والخدم يمسكون برسن الخيول والحمير ، وقد جلسوا فوق الأرض ، وثم زحام شديد من البدو والصبية والصبيات والنسوة والعجائز وقد تجمعوا اما للتسول أو لصب المياه أو لبيع التمور ·

لقد كانوا جميعا فى انتظار الحارس الذى لم يكن قد عرف حتى الآن بأمر استدعائه وبعد نصف ساعة انتظرناها عبثا ، قررنا أن نستمر فى أداء الشعائر the Ceremonies · فصعدنا درجات المصطبة المقابلة نصف مقابلة للجدار الشرقى ، وأوقفنى الشيخ حامد فى مواجهة القبر ، وتحت الشمس المحرقة رحنا نردد الدعوات والابتهالات التالية : « السلام عليك يا سيدنا حمزة ، يا عم رسول الله ·· يا عم نبى الله · السلام عليك يا سيد الشهداء ، يا أمير السعادة ·· السلام عليك يا أسد الله ويا أسد رسول الله » · وبعد ذلك طلبنا من حمزة وصحبه المساعدة (المدد) فى الحصول على الغفران ، وأن نسعد فى الدنيا والآخرة · وقد ظهر مبعوث محمد خليفة المنحدر من سلالة العباس ، والذى يحتفظ بمفتاح المسجد ، والذى يتلقى المنح والرسوم المالية من الزائرين ـ ظهر راكبا جملا عاليا كان يخب خببا ، لكن ذلك كان بعد انتهائنا من مراسم الزيارة (الشعائر) بالكاد · وكان عليه أن يفتح للحجاج الأتراك · وقد إنتظرت لأرى ما فى الداخل لقد سحب العربى من جيبه ـ بوقار بالغ ـ مجموعة مفاتيح ، وطلب منى بحدة أن أقف بعيدا بحيث لا أرى الباب · وعندما أطعته بدأ صوت الصرير المنبعث من القفل يعلو ، وبدأ فى سحب المزلاج ثم شرع يفتح الباب ببطء شديد ، ويهزه هزا شديدا ليحدث أكبر قدر من الضوضاء · والسبب فى هذا الحذر أن الضوضاء أو الصرير يمثل شعرا وان كان بلا معنى ، فهم يعتقدون أن أرواح الشهداء تغادر المبانى اذا كانت خاوية من المعنى ، أو كانت مشيدة من طين لا روح فيه Senseless Clay ، فأرواح الشهداء شغوفة بالاجتماع معا لتتحدث فى جو روحى ، فالعيون الوثنية النجسة يجب ألا تطالع هذا المنظر · يالها من صور عظيمة تلك التى يراها هؤلاء العرب الخياليون ! انهم يتصـــورون الأصـــابع المهيبة للأولياء (القديسين) فالأرواح بالنسبة للمسلمين ، تشبه أرواح الأوربيين القدماء · انها ـ أى الأرواح (شىء) غير مادى يتخذ شكل الجسد البشرى ، مع لحى طويلة رمادية ، ووجوه جادة ، وعيون جليلة ـ تجوس خلال النخيل ،

وتناقش الحوادث المطمورة فى غياهب آلاف السنين • لقد كنت سأسر لو أنى حطمت هذه الخرافات ، لكن الخجل منعنى عندما كنت فى نوتنجهام Nottingham وجدت أنه لا يجب طبخ البيض بعد غروب الشمس ، وعندما يسمع الناس فى أيرلندا نسوة عجائز شبحيات لهن شعر متموج يرتدين عباءات زرق • وعندما يرى الاسكتلنديون كفنا محيطا بشخص كان فى ذلك دلالة على قرب موته ولازال فى فرنسا

Loup-garous, éevenants & poules du vendredi saint

(مثال : نقف الكتاكيت فى يوم جمعة طيب يعنى تغيير اللون كل عام) ، كما أن المعطف المقدس Holy Coat يشفى المسيحيين المتدينين فى مدينة تريفس Treves ، وأهل مادونا Madonuas يغمزون بعيونهم فى Rimini ، و San Junuario يذوب فى نابلى ، كما أن Addolorate & Estaticho تصيب بالهستريا فى روما • بينما تتجلى العذراء مريم بنفسها للأطفال فى جبال الألب وفى فرنسا ، بينما ألمانيا قد سارت قدما فى مجال الرسم البيانى النفسى Psychography وأوروبا المتحضرة المتنورة المتشككة تهتم اهتماما كبيرا بالاستبصار أى حدة الادراك أو رؤية ما وراء النظر Clairvoyance ، وحتى الأمريكيون ذوو الرءوس اليابسة يعتقــدون فى « الوسيط) « Medium » وفى البرق الكسول (؟؟) Snial telegraphs وخفقات الروح Spirit rappings • **انه يجب على أن أهنىء أهل المدينة (المنورة) لحكمتهم وتعلقهم بخرافاتهم جديرة بالاحترام كخرافات الشعوب الأخرى** • الا أن الحقائق المتعلقة بمسجد حمزة (رضى الله عنه) ليست جديرة ـ مع استثناءات بسيطة ـ بأن نوصى بتصديقها • ومسجد حمزة (رضى الله عنه) يشبه مسجد قباء الا أنه أصغر ، فالبناء المعمد (الذى يرتكز سقفه على أعمدة) قد علقت به مصابيح الزيت وبيض النعام وهو مؤثث بالأثاث المعتاد للأضرحة العربية ، وعلى الجدران قليل من المخربشـات الحديثة ، وأشعار مكتوبة بخط اليد ، وتحت الرواق يرقد حمزة (رضى الله عنه) تحت طبقة كثيفة من أحجار البازلت السوداء تشبه الحجارة التى رأيتها فى عدن ، وان كانت تختلف عنها فى أنها أكثر قابلية لتشرب السوائل ، وأكثر جفائية (نسبة الى الجفاء بضم الجيم ، وهو خبث البراكين) ، والقبر محدب فى قمته ككومة أتربة وبدون كسوة أو غطاء ، ومحاط بحاجز خشبى(١٥)•وعند رأسه أو فى اتجاه الغرب ترقد رفات عبد الله بن جاويش ـ وهو اسم لم يحظ بشهرة كبيرة ـ فى قبر مطلى

---

(١٥) بعد الحركة السلفية (الوهابية وهو اسم يكرهه أصحاب الدعوة وانما أطلقه الآخرون عليها) وأثناءها تم هدم كثير من القباب والقبور ـ (المترجم) •

بالطلاء الأبيض ، وقمة القبر محدبة كذلك ، وفى الساحة توجد كومة أخرى Pile مماثلة تصب فوق رفات شماس بن عثمان وهو شخصية لا نعرف عنها الكثير (١٦) ، ثم مررنا عبر باب فى الجانب الشمالى من الجدار الغربى ورأينا نخيلا قصارا وبئرا ٠

وبعد ذلك غادرنا المسجد ، وكنت وفقا للضرورة الحتمية (التى لا مفر منها) مضطرا لدفع دولار مقابل الشرف الذى حزته بدخولى للمسجد، الا أن الحارس وعد بأن قراءة سورة يس Y. S. وسورة الاخلاص من الأمور الضرورية لصالحى ٠

وعند خروجنا من المسجد تقدمنا خطوات قليلة نحو الجبل ٠ وعن يسارنا مررنا بصهريج كبير مبنى من أحجار مقطعة ، وله سلالم ، وقد صمم لاحتجاز المياه المنسابة من السيل ــ وكان مرورنا على بعد معقول من الحجيج الترك الذين راحوا يصرخون منبهين بأن نساءهم يتوضأن ٠ والمكان التالى الذى صلينا فيه كان عبارة عن مبنى صغير مربع محاط بجدران منخفضة مطلية باللون الأبيض ، يضم قبورا قليلة تدل عليها أشكال بيضاوية من حجارة غير متماسكة منتشرة فوق الأرض ٠ وهذه هى البساطة العربية فى شكلها الأصلى ٠ ولا زال البدوى يعلم مواضع دفن موتاه بأربعة أحجار : حجر عند الرأس وآخر عند القدمين ، وحجر على كل جانب من جانبيه وفى الوسط يكومون التراب على شكل سنم الجمل ، أو يجعلون التراب على شكل مسطح ، وهذا هو الأكثر استعمالا ٠ وعلى هذا فاننى أظن أن الشكل المسطح للقبر كان هو الشكل الأصلى لبئر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ٠ وبين هذا المكان المسور دفن بعض الشهداء من جيش المسلمين ٠ وبعد الصلاة هناك رجعنا الى مبنى صغير لازال باقيا بالقرب من سفح الجبل ٠ انه قبة عادية مقامة على أربعة جدران تكون مربعا ، وهذا المبنى الصغير لم يتلق حقه من الصيانة ٠ لقد صلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) هنا ، ويقال لهذه القبة قبة الثنايا Kubbat al-Sanaya ــ أى قبة الأسنان الأمامية وهو ما تعنيه كلمة الثنايا وذلك ما توضحه الظروف التالية ٠ لقد أقسم خمسة كفار على ذبح محمد (صلى الله عليه وسلم) فى غزوة أحد ، وأحد هؤلاء هو ابن كميه Ibn Kumayyah قام بالقاء أحجار كثيرة (على الرسول

---

(١٦) هو شماس بن عثمان المخزومى ٠ صحابى من الابطال ٠ شهد بدرا واستشهد فى أحد ، وفيها كان يذب عن رسول الله بسيفه وترس نفسه (جعل من نفسه ترسا) يذود عن رسول الله حتى قتل ٠ الاعلام للزركلى ج ٢ ، انظر ايضا أزمنة التاريخ الاسلامى اعداد عبد السلام الترمانيني ، ج ٢ ص ص ٦٦١ ــ ٦٦٢ ٠

صلى الله عليه وسلم) الا أن حلقتين من خوذة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد هبطتا على وجنتيه ، وانبثق الدم من جبينه (الشريف) وسال الدم على شاربه فمسحه بعباءته لمنعه من السقوط فوق الأرض ، وعندئذ عاجله عتبة بن أبى وقاص بحجر أصاب شفته السفلى وتسبب فى اسقاط أسنانه الأمامية . والى اليسار من المحراب يوجد حجر مربع مدرج أسفل الجدار ، حيث أرانى الشيخ حامد أثر السن ، وقام الشيخ حامد بتقبيل ذلك الأثر . وكذلك فعلت أنا ، وقد وبخت الولد محمدا توبيخا شديدا ، لأننى لاحظت منه سلوكا مرحا ممتزجا بعدم الاهتمام بالشعائر فحييته وأنا عابس ، وغمغمت مذكرا اياه بقداسة البلاد التى ولد بها ذاكرا له أنه ليس منحطا ولا هابط المستوى . فقد كان قد ظهر فى الحرم بدون جبة Jubbah ، وكانت عورته ظاهرة With ungirt loins ، وكان يلبس صدرية وقميصا بأكمام . وأكثر من هذا فقد سبق أن تصرف تصرفا غير محتشم بوكزه جانبى الشيخ حامد بينما كان يؤدى مهمته المقدسة بارشادى للشعائر . ولاحساسى بأن الشاب مشروع رجل فكما سينمو جسمه ليصبح رجلا كامل البدن ، فلابد أن تنمو أخلاق الرجولة فيه ، لذلك قررت أن آخذ هذا الأمر على عاتقى وقررت أن أسيطر على سلوك الشاب وأحكمه مما يجعلنى فى نهاية الأمر السيد المطاع ، فأبديت اصرارى على أن يصلى هذا الولد معنا بشكل منتظم . ووقف بجانبى فى اصرارى هذا الرجل الشهم سعد Sa'ad بخفته المعتادة عندما تبدو بوادر نزاع ، وقد وجد الشاب أنه من الضرورى أن ينصاع لذلك . وبعد ذلك المشهد الصغير ، أشار الشيخ حامد لمخربشات (كتابات) منتشرة تدعو بالبركة لصحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وقد تعرض اسم أبى بكر (الصديق) للمحو من قبل بعض الشيعة المتعصبين ، مما أثار فى نفس رفاقى كل نوازع الشر ، ولما أمعنت النظر عن قرب فى الجدار وجدت سطرا من الشعر الفارسى بهذا المعنى :

لقد سئمت العمر (الحياة)

فلا خير فى العمر مادامت حروفه هى ذات حروف عمر (١٧) .

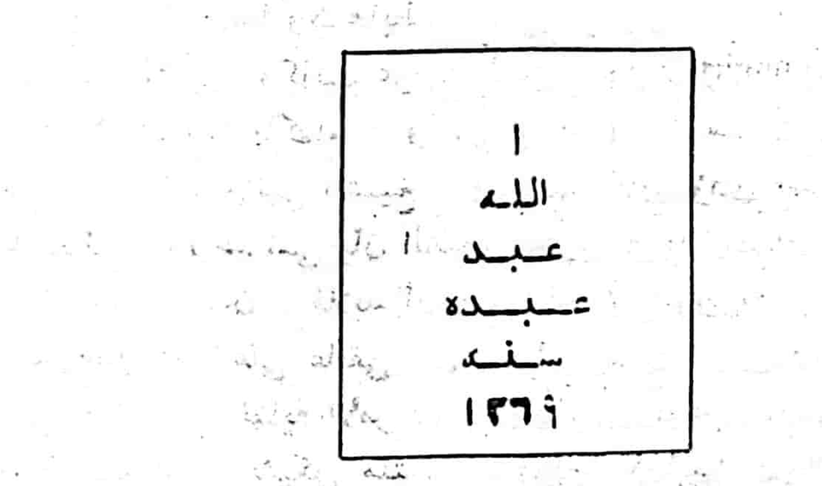
I am weary of my life (umr),
because it bears the name of Umar

اننا نحن الرحالة الانجليز بدأنا نخجل من عادتنا السوقية (غير المتحضرة) المتمثلة فى حفر أسمائنا وغير ذلك من الكتابات السخيفة ،

---

(١٧) المقصود الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

فى المواضع المشهورة . وعلى أية حال فان هذه العادة كلاسيكية غربية ، كما أنها شرقية . فلقد ترك الفرس والاغريق علاماتهم التذكارية فى كل مكان ، وكما يظهر فى مصر فان ذراعى أبى الهول تحمل مخربشات (كتابات غير متقنة على الحجر Scratches) يمكن تفسيرها ، وقد وجد مثيل لها فى كتابات على آثار طيبة سنة ١٨٧٩ بعد الميلاد . ولا يبدى الشرقيون عند دخول مبنى مطلية جدرانه باللون الأبيض مقاومة لرغبتهم فى كتابة مقاطع شعرية أو حكم على الجدران . ووجدت نفسى متأثرا بكل هذا ، فأخرجت قلمى الرصاص ونقشت فى قبة الثنايا النقش التالى :



«Abdallah the Servant of Allah»

ولما خرجنا من القبة استدرنا بضع خطوات لليسار ، ومررنا فى اتجاه الشمال ورحنا ندعو لشهداء غزوة أحد :

« السلام عليكم أيها الشهداء . السلام عليكم أيها الأتقياء الأنقياء السلام عليكم يا من جاهدتم فى سبيل الله فأحسنتم الجهاد ، وأبليتم بلاء حسنا يا من عبدتم الله حتى أتاكم اليقين . السلام عليكم يا من ذكرهم الله (فى القرآن) : « **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** » (١٨) فهم «**لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**» (١٩) . السلام عليكم يا شهداء غزوة أحد فرادى وجماعة . ويرحمكم الله ويباركم » .

---

(١٨) آل عمران ، آية ١٦٩ – (المترجم) .

(١٩) الأحقاف ، آية ١٣ – (المترجم) .

ومرة أخرى تحركنا بضـــع خطوات للأمام ، وانخرطنا فى عبادة مشابهة ، فقد تصورنا أنفسنا فى الكهف الذى حمى الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وبعد ذلك عدنا الى بطن السيل torrent-bed من الطريق الذى أتينا منه ووقفنا غير بعيد عن قبة يقال لها قبة المصرع kubbat al-Masra وهى تشبه قبة الثنايا front teeth Cupola ، وقبة المصرع ـ كما يدل على ذلك اسمها ـ تشير للموضع الذى استشهد فيه الشاب حمزة the Gallant Hamza بسهم العبد وحشى (٢٠) وتوجهنا نحو هذه العتبة ، وأنهينا اجراءات هذه الزيارة بالتضرع والابتهال وقـراءة التشهد Testification والفاتحة .

وفى المساء ذهبت مع أصدقائى للحرم النبوى . حيث كان رواق المئـــذنة قد علقت عليه المصابيح وكان المسجد من الداخل مضاء ،وكان غاصا بالحجاج وكان من بينهم نسوة كثيرات ، مما أخرجنى من حالة الملل التى اعترتنى . لقد كان بعض الحجاج الأتقياء الذين سبق لهم أن دفعوا مبالغ مرضية للحصـول على هـذا الامتيـــاز ـ جاثمين على الســـلالم وقد أوقدوا شموعا كبيرة الحجم ، بينما كان آخرون يدخـــرون لأنفسهم ثوابا فى الفـــردوس ، باشـعال مصـــابيح المسـجد ، بينمـــا انهمك كثيرون فى تأدية شعائر الزيارة وجلست أعداد غير قليلة فى أجزاء مختلفة من المسجد النبوى وقد غلبتهم عواطفهم الدينية تماما . وكان الصبية والشحاذون مفعمين بالحيوية والحركة ، أما الأغوات فقد كانوا أكثر غلظة وفظاظة عن ذى قبل . وكان شباب المدينة يتجولون ويتحدثون بطريقة أكثر تحررا وبسلوك أكثر بساطة من المعتاد . وكان أصدقائى القدماء من الفرس يجذبون انتباهى (ضمت قافلة الحج حوالى ١٢٠٠ منهم) فقد كان حراس الأبواب يوقفونهم بعنف ولا يسمحون للواحد منهم بالدخول الا اذا دفع خمسة قروش ، بينما كان يسمح للمسلمين الآخرين بالدخول للمسجد مجانا . يالهم من تعساء ، هؤلاء الفرس لقد كانوا قد فقدوا التبجح

---

(٢٠) هو وحشى بن حرب الحبشى مولى بني نوفل ، ويكنى أبو دسمة وهو قاتل حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم فى وقعة أحد . وفد مع اهل الطائف على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلم فقال له النبى : « غيب وجهك عنى يا وحشى ولا أراك » وشارك فى حرب المرتدين الى جانب المسلمين وقتل مسيلمة الكذاب وقال انه قتله بالحربة التى قتل بها حمزة وكان يقول : قتلت بحربتى هذه خير الناس (يقصد حمزة) وشر الناس (يقصد مسيلمة) . شهد اليرموك وفتح حمص . سكن حمص ومات فيها .

الشيرازى الذى جبلوا عليه Shiraz Swagger ، وتدلت شواربهم الطويلة بطريقة تثير الشفقة ولم يكونوا قادرين على رفع عيونهم لوجه أى انسان ، ولم تكن رءوسهم مغطاة بأغطية الرأس التى كانوا يلوونها كبرا وزهوا . فاذا وجد عجمى - مهما كانت مرتبته - واقفا فى طريق عربى أو تركى ، فانه يتحتم عليه أن يتنحى جانبا وقد صب التركى أو العربى فى مسمعه غمغمات تنطوى على السب والاحتقار بنبرات مرتفعة يسمعها كل المحيطين : فكل العيون تلاحقهم وهم يؤدون مراسم الزيارة خاصة عندما يقتربون من قبرى أبو بكر (الصديق) وعمر بن الخطاب (رضى الله عنهما) ، وعندما يقتربون من الموضع المفترض لدفن فاطمة الزهراء (رضى الله عنها) يجسلون فى جماعات بعد الصلاة أمام شباك النبى . ويقرأ واحد منهم من كتاب لديه حكاية محزنة عن حياة السيدة فاطمة وعن مأساتها وموتها والحداد عليها ، بينما يصغى الآخرون لاهثين من فرط التأثر وبعضهم كان انفعاله العاطفى شديدا جدا يصعب كبحه « آه يا فاطمة ! آه يا مسلمة .. آه ! .. آه !! آه يا فاطمة .. هل آذيت أحدا يا فاطمة ؟! .. يا للأسف ! يا للأسف ! » وتندفع الكلمات والصرخات من شفاههم بطريقة تلقائية لا ارادية وتجرى الدموع على خدودهم المشعرة (المليئة بالشعر) وترتفع صدورهم القوية بفعل التنهد والنشيج . ياله من منظر غريب أن ترى الرفاق الأجلاف - وقد يكونون جبليين أو من مقاتلى السهول - يبكون أحيانا بصمت كالأطفال بل وتعتريهم حالات صراخ هستيرية ولا يهتمون بتاتا بكتم أحزانهم المروعة الفظة لكنها فى الحقيقة أحزان صادقة وحقيقية . وبعبوسهم الشيطانى الذى حملوه معهم تظاهروا بالصلاة عند قبر عمر (رضى الله عنه) الذى يمقتونه ، وبقدر اللعنات التى ترتلها قلوبهم له ، كانت أفواههم تفيض بالدعوات له . كيف يستطيع هؤلاء الفرس تقديس فيروز Fayruz فى باطن نفوسهم (فيروز) هو العبد الفارسى الذى طعن « عمر بن الخطاب » (رضى الله عنه فى المسجد) ويدعون له بالسعادة الأبدية فى حضرة رجل مقتول (يقصد عمرا رضى الله عنه) . وعلى أية حال فان العصى والأحجار - ولا مانع من سكين وسيف - كل أولئك قد لقنهم درسا قاسيا ليضبطوا مشاعرهم . ولم تكن ردود أفعالهم ازاء هذه الحملة التاديبية سوى جباه غاضبة فيها السخط وشرر ينبعث دن العيون ، وكظم وحشى وانتفاض فى عضلاتهم المحيطة بأفواههم مما ينم عن عاصفة مكتومة من الحنق الدفين . وهم - بشكل عام - مدربون على تفريغ بعض انفعالاتهم وعواطفهم فى كلمات . لقد هتف بعض أهل المدينة عند مرورهم بهؤلاء الفرس المخرفين : « المجد لعمر Hail Omar » أما أنتم فخنازير Thou Hog وهو قول أكثر اهانة من أن تطلب من بروتستنطى متحمس أن يدعو للبابا (الكاثوليكى) ، لذلك فقد رد أحد

الفرس منفعلا : «الله يجحمه» أى يقذف به (اى عمر رضى الله عنه وأرضاه) فى الجحيم Oh Allah ! Hell him وهكذا حول الفارسى الدعوات الى لعنات كانت أكثر وضوحا وأشهى نغما فى آذان رفاقه الفرس ٠

ان ساعة فى مساء يوم حار رطب فى الحرم النبوى تساوى ست ساعات فى حر الظهيرة ، لذا فقد غادرت الحرم النبوى عازما ألا أزوره مرة أخرى حتى مغادرة قافلة الحج للمدينة (المنورة) لقد كان قرارى هذا مجرد حذر منى حتى لا أرى مزيدا من العجم Ajamis فقد اكتشف رفاقى فى الحملة أن الشيخ عبد الله (بيرتون نفسه) قد قتل عددا كبيرا من هؤلاء الهراطقة (الشيعة) فى بعض الحروب ، لذا فقد تجنبت هؤلاء الفرس تحاشيا من الانتقام ٠ وللتدليل على عدم الاهتمام بشىء بعينه رحت أصب الماء من جرة على رءوس الحجاج المغاربة (ليتوضأوا) رفاقى فى باخرة الحج من السويس (السلك الذهبى) وبذا عرض الجميع أن يدافعوا عنى ٠ ولم أعمل على تكذيب هذه التقارير (يعنى قتله للشيعة) الواردة عنى ٠

الفصل الواحد والعشرون

أهل المدينة (المنورة)

أسر المدينة ـ النخاولة ـ السويرقية ـ اللباس ـ الطبيب ـ التكارنة) (المغاربة ـ الهنود) الزيود ـ الاباضية ـ السلفيون ـ السادات ـ أصحاب الخانات ـ الاهالى ـ رحلات التسول ـ ميناء الريس ـ المجاورون ـ الاسعار ـ وطعام ـ الجوارى ـ المشالى ـ التشريح ـ اللحية ـ الخيول والحمير والجمال ـ اختصارات أهل المدينة للصيغ الدينية ـ الغرور ـ الزواج ـ فكاهات عن الزواج ـ المدارس والكتب ٠

لاتضم المدينة المنورة سوى أسرات قليلات تعود فى أصولها للأنصار، فلم أسمع الا عن أربع أسرات فقط لا يحيط الشك بنسبها (١) الى الأنصار وهى :

١ ـ بيت الأنصارى ـ أو سلالة أبى أيوب الأنصارى ذات المحتد الكريم وتتفرع شجرة نسبها منذ ألف وخمسمائة سنة ٠ وهم يحتفظون بمفاتيح الكعبة ومنهم أئمة الحرم لكن الأسرة لم تعد ثرية أو ذات نفوذ ٠

٢ ـ وأسرة (أبو الجود) ومنهم الأئمة والمؤذنون فى الحرم النبوى ولم يتبق منهم الآن كما أخبرت سوى ولد وبنت ٠

٣ ـ وبيت الشعاب (؟) Shaab (١) وعددهم كبير وبعضهم احترف الترحال ، وآخرون منهم يعملون فى مجال التجارة والبعض منهم معينون فى الحرم ٠

٤ ـ بيت القرانى al-Karrani ، ويعملون بشكل أساسى فى التجارة ٠

---

(١) لعلها الشعب ـ (المترجم) ٠

وثمة جماعة أخرى يقال لهـا النخاولة (جمع نخولى) (٢) وهى ـ وفقا لبعض الأقوال ـ من سلالة الأنصار بينما يرجعهم آخرون الى سلالة يزيد بن معاوية · وهو قول لا يمكن قبوله لأن معاوية بن أبى سفيان كان عدوا لدودا لعلى (رضى الله عنه) وبنيه (٣) · وأقصى ما أستطيع تأكيده أنهم يبغضون الشيخين (أبا بكر وعمـــر) فكل مصادرى أكدت ذلك لكن أحدا ما لم يعلل لى سبب استثنائهم عثمان (رضى الله عنه) من بغضهم مع أنه ثالث المبغوضين لدى الشيعة (بعد أبى بكر وعمر) · وعـدد النخاولة كبير ، وهم محبون للقتـــال ، ومع ذلك فأهل المـدن يحتقرونهم ، لأنهم يجاهرون بالهرطقة (بالخروج عن عقائد أهل السنة) ، ولمرتبتهم الاجتماعية المتدنية (أصولهم المتواضعة) · وللنخاولة علمـاء دين خاصون بهم ، ولهم تعاليمهم التى لا يشاركهم فيها أهل الســنة رغم خضـــوعهم لأحكام القـاضى السنى ، ويتزاوج بعضهم من بعضهم الآخر (تزاوجا داخل أفراد الطائفـة أو الجماعة) ولا يمارســون الا الأعمال الدنيا ، كالجزارة ، وكنس الشوارع والزراعة · ولا يسمح لهم بدخول الحرم النبوى أحياء وأمواتا (للصلاة عليهم) اذ تحمل جثة الواحد منهم

(٢) والنخولى معناها زارع النخل ، ولم يستطع أى ممن سألتهم أن يخبرنى لماذا لم يتخذ هؤلاء الناس المتشيعين (heretics وما ترجمناه هو المقصود) اسـما خاصا بجماعتهم أو قبيلتهم · اننى أجازف بالتخمين أنهم ربما كانوا هم أنفسهم جماعة المتولى Mutawalli (وتكتب بالحروف اللاتينية أيضا Mutawilah و Mutawalli ، Metoualis ··· الخ) أو المتاولة سكان الجبال فى سوريا وما حولها ويتسمون بالقوة الشجاعة وأكرام الضيف · ويبلغ عدد هؤلاء المتعصبين حـوالى ٣٥٫٠٠٠ ويعتقدون فى امامة على (رضى الله عنه) وسلالته · وعلى أية حال فمعتقدهم يختلف عن معتقد الفرس ، فهم يعتقدون فى انتقال الروح التى تتطهر بالتدريج حتى تدور فى خاتمة المطاف فى فلك النجم الكامل orbed into a perfect star وهم متحجرون فى طبقتهم ويدققون كثيرا اذ لا يسمحون لليهود أو الأوربيين بلمس أثاثهم رغم أنهم أعدوا خصيصا « للكفار » أى الذين ليسوا من طائفتهم حجرة استقبال خاصة ، وهم فى هذا يتشابهون مع الشيعة الذين يوسعون مفهوم الطهارة أكثر من السنة اذ يتوضأون قبل كل وجبة ، وفى هذا الصدد ، يذكروننا بالهندوس ـ (بيرتون) ·

لاحظ المترجم شيئا كهذا فى بعض بلدان الخليج العربى ، اذ يرفض الشيعة اطلاع (مجرد اطلاع) أحد من السنة على طعامهم ، وان حدث ولمسه أو رآه ، سارع الشيعى بالقائه فى القمامة · وربما كان هذا من تصرف العوام أو غير المثقفين منهم ـ (المترجم) ·

(٣) رأى بيرتون صحيح ، وهذا يبين الى أى حد تؤثر العداوات القبلية فى بث الأكاذيب ، فهذا القول من غير شك من قول أعداء النخاولة مما يشكك فى كثير من الروايات · والغريب أن بوركهارت فى رحلاته (١٨١٥) قد نقل هذا القول دون تمحيص · انظر الترجمة العربية لبوركهارت « رحلات فى شبه الجزيرة العربية » طبع مؤسسة الرسالة (بيروت) ـ (المترجم) ·

بعد الوفاة ليمروا بها فى شارع خارجى يسمى درب الجنازة ليدفن فى مقبرة خاصة بهم بالقرب من البقيع وهم يتحدثون العربية بلهجة أهل المدن ، ويلبسون على شاكلتهم ، ولكن العرب يزعمون أنهم قادرون على التعرف عليهم من نظرتهم التى تنم عن انحطاطهم ٠

وتتواتر الأخبار عن ممارسات النخاولة التى تدعو للقرف وعن نظام شيوع النساء بينهم وبين الحجاج الفرس الذين يمرون بالمدينة (٤) ٠ وقلما يقال ان هذه الحكايات حيكت بألسن أعداء النخاولة ٠ وانى آسف أن الفرصة لم تتح لى كى أصارح أحد النخاولة فربما انتزعت منه الحقيقة ٠ ولا يحب المسلمون السنة الخوض فى هذه الموضوعات البغيضة ، وعندما حاولت أن أعرف شيئا من أحد معارفى ـ وهو الشيخ علاء الدين وهو من أسرة كردية استقرت فى المدينة (المنورة) وسافر الى بلاد الشرق ويجيد اجادة كاملة الحديث بخمس لغات ـ أجاب ببرود أنه لم يختلط أبدا بهؤلاء الهراطقة ٠ ويكثر السادات Sayyids والأشراف وهم سلالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) هنا (٥) ٠ ولبنى حسين من أهل المدينة المنورة أحياء رئيسية فى السويرقية Suwayrkiyah ، ففى المدينة ست أسر أو سبع ، وفى السويرقية ثلاث وتسعون أو أربع وتسعون ٠ وفيما مضى كانوا أكثر عددا ، وأشد نفوذا ، فقد ظلوا ـ لقرون ـ يتولون مسئولية الاشراف على قبر النبى (صلى الله عليه وسلم) وهم يتعيشون ـ بشكل أساسى ـ من أملاكهم Amlak من الأراضى التى يملكون حججا بملكيتها تعود لأيام الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الأوقاف ٠ ويعيشون فى المدينة (المنورة) فى حوش ابن سعد ـ خاصة ـ الذى يشكل تجمعا سكانيا خارج المدينة الى الجنوب من درب الجنازة ٠ ولا اعتراض ـ على أية حال ـ من مقامهم داخل أسوار المدينة ٠ وبعد

---

(٤) مبادىء مزدك (القرن السادس للميلاد) عن شيوعية النساء جعلت للفرس سمعة سيئة فى هذا المجال بين العرب ـ (بيرتون) ٠

والواقع أن رحالة كثيرين لا يفرقون بين نظام « زواج المتعة » وهو نظام من المؤكد أنه محرم وبين الاباحية أو شيوع النساء لتشابه النظامين ، وما نفهمه هو أن نظام (زواج المتعة) وليس شيوع النساء هو المقصود ـ (المترجم) ٠

(٥) فى الجزيرة العربية يكون الشريف من سلالة الحسن عن طريق ولديه زيد وحسن أما (السيد) فمن سلالة الحسين عن طريق زين العابدين ، والشريف مسئول عن الحرب والحكم أما (السيد) فهو اختصاصى فى العلم وشئون الدين ، أما فى الهند وفارس فهو ابن امرأة (سيدة أى من سلالة الحسين) ومن كانت أمه سيده وأبوه مسلم عادى فهو (نجيب الطرف) أما ان كانت امه وأبوه من سلالة الحسين فهو (نجيب الطرفين) ـ (ملخص تعليق بيرتون) ٠

الموت ، يتم حمل المتوفى منهم الى الحرم النبوى (للصلاة عليه) اذا لم تكن هناك تقارير سيئة عنه • وهم يدفنون فى البقيع وسبب هذا التسامح ازاءهم أنه يفترض أن بعضهم على المذهب السنى ، وحتى الروافض منهم يحتفظون برفضهم (تشيعهم) سرا دفينا • ويعتقد معظم المتعلمين أنهم شيعة كالفرس ، وعلى أية حال فقد ظلت الحقيقة غامضة جدا ، فلم أكتشف شيئا من خواص معتقدهم حتى قابلت شيرازيا فى بمباى • وبنو حسين بهم سمرة طفيفة ولهم مظهر البدو ، ويرتدون ملابس على النسق العربى القديم الذى لا زال الأشراف يفضلونه وهو : الكوفية على الراس (٦) ، والبنش Banish وهو عباءة طويلة واسعة الأكمام كعباءات المشعوذين عندنا (فى أوروبا) ، ويلبسون هذا البنش فوق قميص أبيض من قطن ، وهم يحملون سيوفهم دائما حتى عندما يترك الآخرون أسلحتهم فى بيوتهم • ويوجد حوالى مائتى أسرة من السادة العلوية من سلالة على بن أبى طالب من زوجاته غير فاطمة (الزهراء) ، وليس لهؤلاء ما يميزهم عن سائر الناس فى اللباس أو المظهر ، وهم اما يعملون فى وظائف بالمسجد النبوى أو يشتغلون بالتجارة • وبالنسبة للخليفية khalifyah أو سلالة العباس ، فقد أخبرونى أنه لم يعد منهم الا بيت (أسرة) واحد ، هو بيت الخليفة ويعمل أفراده كائمة فى الحرم النبوى ويتولون أمور قبر حمزة • وقلة من الناس تذكر أنه يوجد عدد قليل من الصديقية Siddikiyah وهم سلالة أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) ، وان كان هناك من ينكر عليهم هذا النسب ، ولم يستطع أحد أن يقدم لى أية معلومات عن بنى النجار Benu Najjar .

أما بقية أهل المدينة فأخلاط من سائر الأمم الاسلامية ، فقد جذبت قداستها الغرباء الذين كانوا فى البداية يودون الاقامة فيها لفترة وجيزة ، لكنهم سرعان ما استقروا بها ، وبعد أن ارتبطوا بأعمال تزوجوا وكونوا أسرا وماتوا ودفنوا آملين فى أن يطولهم من قداسة المكان نصيب • وقد الح على كثيرون لأقيم فى المدينة (المنورة) • والطبيب الوحيد المعروف فى المدينة كان أحد الشيوخ •• ويسمى عبد الله صاحب Sahib وهو هندى متعلم لكنه سوداوى المزاج ومتقشف غاية التقشف ، حتى انه يبذل معلوماته للعامة دون مقابل • وقال أصدقائى : لماذا لا تستأجر دكانا

---

(٦) السادات فى الحجاز ـ بشكل عام ـ لا يبينون نسبهم بلبس عمامة خضراء ، بل يلفون حول رؤوسهم شالا كشميريا أحمر • ولبس عمامة خضراء يعد أمرا مبتدعا فى الاسلام ، ويتم لبس العمامة الخضراء فى بعض البلاد دلالة نية اعتزام الحج •• الخ ـ (مختصر تعليق بيرتون) •

فى أحد الأماكن القريبة من المسجد النبوى ، حيث تأكل خبزك بمهارتك (فى الطب) وتنعم روحك فى الوقت نفسه ببركة الأرض المقدسة ؟ وبعد اقامة قصيرة فى المدينة أبدى الشيخ نور رأيه قائلا انها مدينة مفرطة فى القداسة لذلك فان دوافع قليلة تدفعه للاستقرار فيها . والعناصر الحاكمة فى المدينة الآن هم الصوفات Sufat (جمع صوفته Suftah) وهم أنصاف أتراك فآباؤهم ترك وأمهاتهم عربيات ـ وهذا (أى تولى هذه العناصر للسلطة) نتيجة للتقلبات السياسية . وقد كثر الآن عدد هذا الجنس المخلط وخططوا لشغل أرقى المناصب وأكثر الأعمال ربحا . وبالاضافة للعناصر التركية ، نجد أيضا أسرات من المغرب والتكارنة Takruris ، كما نجد أسرات مصرية بأعداد كبيرة ، بالاضافة للمستوطنين من اليمن وغيره من أنحاء شبه الجزيرة العربية ، كما نجد سوريين وأكرادا وأفغان وداغستان من القوقاز وعددا قليلا من الجاويين . وهناك من أخبرنى أن أهل السند يشكلون حوالى مائة أسرة وهم محتقرون جدا بسبب جبنهم وافتقادهم للنخوة ، بينما البلوش (البلوخ) Baluch والأفغان من العناصر المحترمة . ونسبة الهنود هنا ليست مرتفعة كما هو الحال فى مكة (المكرمة) فاللغة الهندوستانية ليست شائعة هنا اطلاقا ولا يسمعها المرء فى شوارع المدينة (المنورة) ، وهم يحتفظون بعاداتهم الخاصة فنساؤهم كاشفات وجوههن باصرار ، ولازلن يرتدين سراويل ضيقة غاية فى الضيق . وهذا سبب ـ من جملة أسباب أخرى ـ تجعل العرب يحتقرونهم . وهم فى المدينة أصحاب محلات صغيرة وخاصة محلات العطارة ومحلات بيع القماش ، وهم يشكلون مجتمعا مغلقا (قصرا عليهم) . ونادرا ما يرى المرء هنا حالات البؤس والجوع الشديدين بين الهنود ، مما ينتشر فى جدة ومكة .

ويحتل الأحناف المرتبة الأولى فى المدينة (المنورة) كما هو الحال فى معظم أنحاء العالم الاسلامى ، رغم أن معظم أهل المدن وكل البدو غالبا من أتباع المذهب الشافعى . وسيلاحظ القارىء بدهشة أنه يوجد فى أحد أهم الأماكن المقدسة عناصر مختلفة من الشيعة المنشقين كبنى حسين وبنى على والنخاولة (مفرد : نخولى أو نخيلى) ، ويقال ان فى مدينة الصفرا Safra عددا من الزيود Zuyud (٧) (جمع زيدى) الذين يزورون المدينة ، وقد استقروا فى مكة المكرمة بالقوة ، وهناك من يقول بوجود الأباضية Bayazi أيضا (٨) .

---

(٧) فى جنوب شبه الجزيرة العربية ـ (عن بيرتون) .

(٨) تنتعش فى مسقط ، وهم فيما يقال يرفضون (عثمان) ويرمقون مقام عمر رضى الله عنه كثيرا على حساب الخليفتين الآخرين . (مختصر عن بيرتون) .

وأهل المدينة عناصر مميزة ، فرغم أنها (أى المدينة) ليست قبلة العالم الاسلامى ولا ملتقى أمم الاسلام ، فان أهلها لا يدفعون أية ضرائب ويرفضون فكرة « الميرى » ويعلنون مندهشين : « ألسنا أولاد النبى ؟ أندفع أم تدفعوا لنا ؟ » ، ولم يقتنع الوهابيون (الاصلاحيون السلفيون) بهذه الحجة ففرضوا عليهم الضرائب - مثلهم مثل سواهم - نقدا وعينا ، ولهذا السبب فان اسم هؤلاء البيوريتان Puritan (٩) (المتطهرون) يحظى لدى سكان المدينة بالبغض · وكما أوضحنا من قبل فان كل ملازمى المسجد النبوى يقبضون ، مرة من السلطان ، ومرة من الأوقاف المنتشرة فى سائر أنحاء العالم الاسلامى · وعندما يرغب المدينى (أحد أبناء المدينة) فى السفر ، فانه يتلقى من مدير الحرم أوراقا تخوله تلقى مبلغ لا بأس به من المال فى اسطانبول · ويختلف مبلغ الاكرام Ikram (وهذا هو اسمه الاصطلاحى) حسب رتبة المتلقى ، وأهل المدينة يقسمونه وفقا للرتب كالتالى :

١ - اكرام السادات والأئمة : حوالى اثنى عشر كيسا أو حوالى ستين جنيها استرلينيا · ويحصل على هذا الاكرام كما يقال ٣٠٠ أسرة ·

٢ - الخانه دان Khanahdan أو أصحاب الخانات الذين يستقبلون الغرباء مجانا ، ويبلغ اكرامهم ستة أكياس ويبلغ عددهم ما بين مائة أسرة ومائة وخمسين ·

٣ - الأهالى ويقصد بهم من لهم بيوت وأسر وولدوا فى المدينة المنورة · ويطالبون بستة أكياس ·

٤ - المجاورون والغرباء كالمصريين أو الهنود المستقرين بالمدينة رغم أنهم لم يولدوا بها فاكرامهم أربعة أكياس ·

وعندما يصل المدينى الى اسطانبول يسجل وصوله لدى قنصل بلاده وهو وكيل الحرمين ، فيحيله الى ناظر الأوقاف الذى يحيل الطلب لعدد من موظفى الخزانة فيتم ارسال المبلغ لوكيل الحرمين الذى يسلمه بدوره للطالب · وفى بعض الأحيان ينفق المتلقى هذه الهبة فى المسرات ، وفى الغالب ما ينفقها فى شراء البضائع والأدوات اللازمة لمنزله ، كالهدايا والحلى للنساء والأسلحة المزينة ، خاصة المسدسات واليطغانات (١٠)

---

(٩) تشبيه رائع فهو يشبه الحركة الاصلاحية السلفية بالحركة الاصلاحية المسيحية التى ارتبطت بعصر النهضة الأوربية ، ويضرب مثلا باكثر الفرق البروتستنطية تشددا ودعوة للتطهر والتمسك بالفضيلة - (المترجم) ·

(١٠) اليطغان التركى ، هو خنجر طويل معقوف - (مختصر عن بيرتون) ·

والشراريب الحريرية والصنادل والأكياس المزخرفة · ويضع كل مشترياته فى سحارة كبيرة (صندوق) أو سحارتين ثم يتخذ سبيله عائدا للمدينة مجانا (دون أن يدفع أجرة السفر) · وبالاضافة للاكرام ، فان المدينى أثناء رحلات التسول هذه ـ ينزل ضيفا على علية القوم فى اسطانبول ·

أما أهل المدينة الذين لم يأت دورهم للسفر ، فينتظرون الأوقاف والصدقات التى تأتيهم كل عام مع قافلة الحج الشامى ، فيستفيد أهل المدينة ـ حتى أولئك الذين لا يشغلون وظائف فى الحرم ـ من الصدقات الكثيرة التى يتم توزيعها · وبدون هذه المزايا التى يحظى بها أهل المدينة ، فانهم لا يزيدون عن كونهم فلاحين وبدوا · ورغم أن التجارة هنا حرفة محترمة ـ كما هو الحال فى سائر أنحاء الشرق ـ الا أن الحركة التجارية خامدة لأن علية القوم (١١) يفضلون الكسل ، فيكتفون بادارة أراضيهم وعقاراتهم ، وأن يكونوا خدما فى المسجد النبوى ، فلم أسمع الا عن أربع أسر محترمة تعمل فى التجارة وهى أسرات : العيسوى والشعاب وعبد الجواد وأسرة أخرى من الشرق (المقصود المنطقة الشرقية) (١٢) ، وكل هذه الأسر تتاجر فى الغلال والأقمشة والمؤن ، وربما كان رأسمال أغناها عشرين ألف دولار · وفى فصل الشتاء تستمر القوافل بلا توقف بين المدينة (المنورة) ومصر لكنها غالبا تضم المسافرين الذين يقصدون زيارة اسطانبول أكثر مما تضم التجار الباحثين عن الربح · ويصل القمح للمدينة من جدة برا كما يرد الى ينبع أو عن طريق ميناء الريس Al-Rais على البحر الأحمر ويبعد عن الصفراء يوما ونصف · وثمة تجارة نشطة فى المؤن مع البدو المجاورين للمدينة ، وتمد قافلة الحج الشامى أهل المدينة بأدوات الزينة ومواد الرفاهية كالتمباك والفواكه المجففة والمربات أو الحلويات والسكاكين وغيرها · ويوجد عدد قليل من أصحاب المخازن الذين يتداولون بضائع قليلة لأن البضائع من مختلف الأنواع ترد من مصر وسوريا واسطانبول · وكقاعدة عامة فان أجور العمال مرتفعة جدا (١٣)

---

(١١) اخوة عمر افندى ، أحفاد رئيس الافتاء فى المدينة المنورة ، كانوا أصحاب محلات ، وكانوا ينصحونه دائما أن يعمل عملا مفيدا بدلا من وجع الدماغ وتضييع الوقت فى قراءة الكتب ـ (بيرتون) ·

(١٢) كلمة (الشرق) أو (الشروق) فيما أعلم يطلقها أهل الحجاز للدلالة على نجد أو أهل نجد وليس على المنطقة الشرقية المطلة على الخليج ـ (المترجم) ·

(١٣) حتى فى المواسم غير المنتعشة يتقاضى الحارس قرشين ، ويتقاضى النجار ٨ قروش فى اليوم أما الخادم الذى يؤدى خدمات عامة كالبواب والحمال ··· الخ فيتقاضى ٣ جنيهات استرلينية فى العام بالاضافة لاعاشتهم ولباسهم · وهى أجور مرتفعة جدا اذا نظرنا لقيمة النقود فى هذه المنطقة ـ (مختصر تعليق بيرتون) ·

ففى موسم الزيارة قد يطلب العامل خمسة عشر قرشا أو عشرين لأداء عمل بسيط كاصلاح المظلة · والحرفيون والصناع المهرة كالنجارين والبنائين والحدادين وصانعى الأوانى الفخارية ... الخ اما عبيد واما أجانب ، ومعظمهم من مصر (١٤) · وهذا الوضع ناتج الى حد ما عن كبرياء أهل المدينة فهم يتعلمون منذ الطفولة أن المدينى (نسبة للمدينة المنورة) كائن مميز لابد أن يحترمه الآخرون مهما كان تافها أو حتى رافضا (شيعيا) وأن غضب الله وسخطه سينزلان على من يسىء معاملته ، ويزيد غضب الله عليه وسخطه اذا ضربه · وهم يستقبلون الغريب عند مداخل محلاتهم (بنك المحل) بترفع كترفع الباشاوات ويبذلون غاية الجهد ليبينوا له ـ بالكلمات والنظرات ـ أنهم يعتبرون أنفسهم ملوكا ، وان كانوا أقل منهم (أى من الملوك ثراء) · أضف لهذا الكبرياء والفخر أنهم كسولون ، وأحكام العرب (يقصد البدو) المسبقة تمنعه من الزواج بابنة حرفى حتى هذه الأيام · وهم كأهل قشتالة يعتبرون العمل ضعة ولا يليق الا بالعبيد ، بالاضافة الى أنهم يرون فى العمل اليدوى انحطاطا معنويا وماديا اذا قيس بحرية الحركة فى الصحراء · فالنول والمبرد لا يصونان الكياسة والنبل كما يصونهما السيف والرمح · فاذا تعرض لك أحد بتعبير جارح فانه « سيطول لسانه » بجمل عربية ان كان ردك على الاهانة مجرد صفعة ، أما ان طعنته فلن تسمع له جلبة · وحتى فى كاليفورنيا فان « البلطجى » يصبح مهذبا اذا صوب اليه « أخوه » « البلطجى » مسدسه · وهذه الأمم الأوربية التى كانت مهذبة تماما عندما كان كل رجل راق (مهذب) يحمل سيفه ، أصبحت شعوبا بذيئة غير مهذبة عندما نزعت الحضارة أسلحتها ·

والمدينة (المنورة) ليست بلدا رخيصا (١٥) ، وفى الحاشية (فى هذه الصفحة والصفحة التالية) ما يؤكد ذلك · فحتى أهل المدينة

---

(١٤) والمصريون وحدهم هم الذين يبيعون اللبن وخثارة اللبن (الزبادى والشرش) والزبد · وسبب احتكارهم هذه التجارة سبق أن أوردناه فى الفصل ١٣ ـ (بيرتون) ·

(١٥) يشرف المحتسب على السوق وهو تابع للمحافظ أو الباشا الحاكم وفيما يلى قائمة بأسعار المؤن فى سوق المدينة فى أول أغسطس ١٨٥٣ خلال موسم « الزيارة » حيث تتضاعف أسعار كل شىء : رطل لحم ضأن بقرشين أما لحم الأبقار والجواميس فبقرش واحد ، ونادرا ما يأكله الناس أما لحم الجمال فلا يمسه الا البدو والدجاجة بخمسة قروش أما البيض فثمانية بقرش صيفا وأربعة بقرش شتاء ، ورطل السمن بأربعة قروش وفى حالة رخص الثمن يصبح بقرش ونصف ، ويصنع الزبد فى البيوت ، وأحيانا يعده المصريون للبيع ، ورطل الحليب بقرش ورطل الجبن بقرشين واذا رخص ثمنه أصبح بقرش وان شح فى السوق أصبح بثلاثة · ورغيف خبز القمح زنه ١٢ درهما =

رغم أنهم ـ بشكل عام ـ مدينون ، فانهم يدبرون أمر معيشتهم جيدا ، ومطبخ أهل المدينة مثل مطبخ أهل مكة مستعار على نحو ما من المطبخ المصرى والتركى والسورى والفارسى والهندى · وأهل المدينة ـ ككل الشرقيين ـ مغرمون غراما فائقا بالسمن · وقد رأيت الولد محمدا يشرب قرابة ملء قدح من السمن رغم تحذيرات أصدقائه من أن ذلك سيجعله سمينا كالفيل · واذا لم يستطع الانسان أن يجد لذة فى تناول السمن فى هذه البلاد ، فان ذلك دلالة على أن معدته ليست على ما يرام · وكان يجب أن أوظف كل اعتذاراتى التى توضح اعتلال مزاجى لأتحاشى ضربة قاضية ان أنا تناولت اللحم المقلى العائم فى بحار من الشحم ، أو تناول طبق الضيف الملء بالأرز المشبع بالزبد الذائب ، وربما كان الأقرب للصحة أن أقول الزبد الفاسد (الزنخ) · وعلى أية حال ، فالسمن فى الحجاز غالبا ما يكون طازجا اذ يجلبه البدو طازجا ، لذا فليس له مذاق القرب (جمع قربة) الجلدية التى تميز طعم « الجى » أو « الغى » Ghi

---

= بعشرة بارات وهناك أرغفة زنة ٢٤ درهما بنصف قرش ورطل البقسماط المستورد بثلاثة قروش · ورطل الخضروات بنصف قرش ومد التمور يختلف حسب النوعية من ٤ قروش الى ١٠٠ قرش · ورطل العنب بقرش ونصف ، والليمون ببارة والرمانة من عشرين بارة الى قرش ، والبطيخة يتراوح ثمنها بين ٣ قروش وستة · ورطل الخوخ بقرشين ورطل البن بأربعة قروش (لا يشرب هنا الا البن اليمنى) ورطل الشاى بخمسة عشر قرشا (يستورد الشاى الأسود من الهند) ورطل السكر الأقماع الأوربى بستة قروش (السكر المصرى الابيض بخمسة قروش ، والسكر المصرى البنى بثلاثة قروش والسكر الهندى البنى الذى يستخدم فى الطبخ والحفظ بثلاثة قروش) ورطل الشمع الوارد من مصر بثلاثة قروش وأردب القمح = ٢٩٥ قرشا ، وأردب البصل = ٣٣ قرشا (ان شح ارتفع ثمنه الى ٤٠ وان رخص أصبح بعشرين) وأردب الشعير = ١٢٠ قرشا (الحد الادنى ٩٠ والاقصى ١٨٠) وأردب الأرز الهندى = ٣٠٢ قرش (ويختلف سعره حسب جودته فيتراوح بين ٢٦٠ الى ٣٥٠) والذرة ـ غالبا ما يكون علفا للحيوان ـ رخيصا جدا ، والبرسيم تباع ٣ أوقيات منه (أى ٢٦ درهما) ببارة واحدة ، وسعر العدس كسعر الأرز ، ورطل التمباك من نوع اللاذيكا = ١٦ قرشا والتمباك الشامى = ٨ قروش ، والتمباك العجمى = ٦ قروش ورطل زيت الزيتون = ٦ قروش وان رخص ثمنه أصبح بأربعة قروش ، وقربة الماء = نصف قرش وغرارة الفحم التى تضم مائة اقة = ١٠ قروش وأفضل أنواعه من شجر الاكاسيا (السنط) ويسمى سمر Samur. والبارة (التركية) والفضة (المصرية) والديوانى (الحجازى) = ١/٤٠ (واحد على أربعين) من القرش أو حوالى ربع فارزنج (انجليزى) والقرش = حوالى $2\frac{2}{5}$ بنس (بنسين وجزءين من خمسة من البنس) وليس من حاجة للعملات الصغيرة فى الحجاز كما هو الحال فى مصر ، حيث يلفت نقصها نظر الحكومة ويحظى باهتمامها ·
(بيرتون) ·

فى الهند (١٦) • وبيت المدينى فى الظروف الجيدة ـ بيت مريح لأن بناءه متين ، واستخدم فى تشييده مواد كثيرة ، وتؤدى الجوارى السوداوات هنا مهام كثيرة معقدة ، كما تفعل الخادمات Servant-maid فى انجلترا • فهن قد تعلمن الحياكة والطبخ والغسل بالاضافة لكنس الدار وجلب الماء للاستخدامات المنزلية • فالجارية الحسنة Hasinah (وتعنى بالانجليزية Charmer وهو استخدام مغلوط عن سبق اصرار ، فلا هى حسنة ولا جميلة) تساوى ما بين ٤٠ دولارا الى ٥٠ ، وان كانت أما قل سعرها ، لكن ان كانت تجيد استخدام يديها وتتصرف بكياسة ، وتتسم بالبراعة فى الانجازات الأنثوية Skill io feminine acccmplishments ارتفع ثمنها الى مائة دولار وهو مبلغ يساوى خمسة وعشرين جنيها استرلينيا • والولد الأسود الصغير كامل الأوصاف والذى يتمتع بذكاء مقبول يبلغ ثمنه حوالى ألف قرش ، والبنات الصغيرات أغلى ، أما الطواشى (الخصى) فيبلغ ثمنه ضعف المبلغ المذكور آنفا (أى يبلغ ثمنه ألفى قرش) ، والصبية الذين تجاوزوا مرحلة الطفولة يقل ثمنهم فلا أحد يرغب فى شرائهم الا فى حالات استثنائية ، لأن صاحبه لم يتخل عنه الا لعيب جسيم فيه • والجوارى الحبشيات ومعظمهن من الجالا Galla غاليات جدا ، لأن جلودهن تكون دائما باردة فى أشد مواسم الصيف حرارة ، وهن نادرات هنا ، ونادرا ما تباع الجارية منهن بأقل من عشرين جنيها استرلينيا وفى بعض الأحيان يبلغ ثمن الجارية من هذا النوع ستين جنيها استرلينيا • ولم أسمع أبدا عن جارية بيضاء Jariyah Bayza فى سوق المدينة ، لكنها فى القوقاز تساوى ما بين ١٠٠ الى ٤٠٠ جنيه استرلينى ، وقلة من الرجال فى الحجاز يمكنهم تحمل هذه الرفاهية الغالية • وسوق المدينة سوق بائسة فغالبا ما يأتى الجلابون Jallabis بالعبيد من مكة بعد أن يكونوا قد صدروا أفضلهم للقاهرة ، فلا يتبقى للمدينة الا الذين بارت سوقهم •

ان المظهر الشخصى للمدينى يجعل الغريب يندهش كيف أن هؤلاء السكان المهجنين (المخلطين) قد اكتسبوا كل معظم الخصائص العربية الفزيوجنومية (الظواهر الباطنية التى ينبىء عنها الشكل الخارجى) ، فهم وسيمون بشكل ملحوظ بفعل تأثير برودة المناخ ، وأحيانا تكون وجناتهم مشربة بحمرة وشعورهم كستنائية (بنية محمرة) ، وفى المدينة لم يحدق فى أحد باعتبارى رجلا أبيض•وأحيانا تعلم خدود الأطفال وأجزاء مختلفة

---

(١٦) يضع الهنود (الغى) بعناية فى جرار يتم اغلاقها ويتم حفظها لسنين حتى لا يتبقى منها الا كتلة سوداء يابسة ، ويعدونها علاجا للأمراض والجروح ـ (بيرتون)•

من أبدانهم بالمشالى Mashali أو التشريح Tashrih وهو ليس ثلاثة خطوط طويلة كما لدى أهل مكة ، وانما مجرد علامات (ندب) صغيرة ، يكون عددها ثلاثة بشكل عام ٠

وهم يقتربون – فى بعض الجوانب – اقترابا شديدا من العرب الصرحاء (الخلص) ونعنى بهم بدو القبائل العريقة ، حيث تكون عظام الوجنات مرتفعة والعيون صغيرة تميل للاستدارة أكثر من ميلها للطول ، ذوات نظرات ثاقبة ومتقدة وعميقة ، وتميل للون البنى أكثر من ميلها للسواد ٠ والرأس صغير ، والأذن حسنة الملامح والوجه طويل وبيضاوى ، رغم أنه يشيع بينهم أن تكون الوجنتان غائرتين والفك طويلا هزيلا وهو ما يشوه منظرهم وتعرف هذه الظاهرة الفيزيقية بالفك الشبيه بالمشكاه Lantern Jaw ، والجبهة عالية بارزة العظام وعريضة ، ومنسحبة للخلف انسحابا تدريجيا خفيفا ، أما اللحية والشارب فخفيفان ، فسبلة اللحية (ما ينمو منها على جانبى الوجه) خفيفة الشعر جدا أو لا شعر فيها على الاطلاق ، أما الشارب فمن خصلتين من الشعر متصلتين باللحية من الجانبين (فوق اللحية) ٠ هذا عن نقاط التشابه بين أهل المدينة وعرب المنطقة ٠ أما عن الفرق فهو بدوره ملحوظ بدرجة التشابه نفسها ٠ فمزاج أهل المدينة لا يتسم بعصبية زائدة كمزاج البدو وانما هو نوع من المزاج الصفراوى ، رغم أنهم قلما يتسمون بالكسل وفتور الهمة ، ووجناتهم أكثر امتلاء ، وتشيع ظاهرة الوجنات الغائرة والفك الطويل بين العناصر العربية الأصلية ، والشفاه أكثر امتلاء وأكثر شهوانية وأقل احكاما وتناسقا ٠ وملامحهم عريضة وأطرافهم أكثر سمنة وأكثر (أقوى) عظاما ٠ واللحية أقل كثافة بقليل من لحية البدوى ٠ وقد بدأ شباب المدن العرب فى تقليد الترك فى تلك العادة التى كان أجدادهم يكرهونها ، وأعنى بها الحلاقة ٠ فالتفاهة الشخصية والبطالة دائما تكون هى الوازع الحاكم لدى الشرقيين ، فلما فشل العرب فى محاكاة لحى الغرب والترك الكثة المتدلية بغزارة – عمدوا الى تقليدهم فى حلق لحاهم مع أنهم الأمة الوحيدة التى لديها توجيه دينى بعدم حلق اللحى (١٧) ومع هذا فقد

---

(١٧) بصرف النظر عن مضمون التوجيه ، فالتوجيهات الدينية الاسلامية ليست للعرب وحدهم وانما لكل المسلمين ، وما يهمنا هنا هو التحليل الذى أورده بيرتون لمسألة اللحية فهو يريد أن يقول – كما هو واضح – أن لحى العرب فى المدينة ليست كثيفة كلحى الفرس والترك ، وان العرب حاولوا محاكاة لحى الفرس والترك كثافة وطولا فلم يفلحوا لذلك قلدوهم فى شىء آخر وهو حلقها ٠ والواقع انه لم يتح لبيرتون أن يتغلغل فى وسط الجزيرة العربية وفى جبال عسير ومناطق أخرى اذن لوجد لحى مهولة طولا وتشعبا بل وتهبط على الصدر مدرارا ٠ ولدينا من الأسباب ما يجعلنا =

تجاوزوا هذا الأمر جريا وراء هذه البدعة · واعجب لأهل المدينة ــ أكثر من عجبى لأى مكان آخر ــ لاستخدامهم بعض الوسائل حتى لا يكون الشخص (كوسه) بمعنى قليل شعر اللحية (١٨) · انهم يصبغون اللحية لتكون سوداء بالعفصات الجوزية Gall-nuts والحناء ومستحضرات أخرى خاصة بالخليط (الخلطة) المصرى المكون من سلفات الحديد Sulphate or iron (جزء واحد) وأمينور الحديد ammoniure of iron جزء واحد والعفصات الجوزية (جزءان) وماء مقطر (ثمانية أجزاء) · انها صبغة رديئة جدا · ويوجد فى المدينة أنواع كثيرة من الملابس الجميلة تصل اليها من اسطانبول التى تعتبر باريس الشرق · ويلبس الناس المحترمون اما البنش Benish أو الجبة والجبب (جمع جبة) هنا ــ كما فى مكة ــ عادة ما يكون لونها فاتحا خاطفا للبصر (مبهرجا) : أصفر فاتح ، أصفر غامق ، أخضر فاتح ، أحمر وردى (قرنفلى) ، فتلك علامات الرجل الذى يحسن اختيار الملابس ، أو الرجل « اللبيس » (بتشديد اللام والباء) dressy man واذا كان لديك جبة واحدة فيجب أن يكون لونها محتشما غامقا لتبدو دائما نظيفة حتى لا تثير السخرية والاستهزاء · لكن الحجازيين ــ فقراء وأثرياء ــ يفضلون دائما الألوان الفاتحة الشبيهة بألوان زهرة الخزامى tulip · والعباءة الطويلة التى لا أكمام لها لا يلبسها هنا الا أفراد الطبقات الدنيا ، رغم أن الناس لا زالوا يلبسونها فى المناطق العربية الخالصة · ويستخدم هنا بكثرة

= نعترض على تحليل بيرتون فقد كان حلق اللحية فى الحجاز منذ ظهور الحركة السلفية (الوهابية) فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، نوعا من المعارضة السياسية للسلطات السلفية والفكر السلفى (الوهابى) الذى تشدد فى موضوع اللحية وتقصير الثوب حتى أصبحا فى النهاية ــ مما يؤسف له ــ هما قطب الرحى فى تفكير عدد كبير منهم · وفى مجموعة وثائق لم تنشر ما يفيد أن السلفيين أثناء فترات سيطرتهم كانوا يتتبعون غير الملتحين ــ حتى البحارة منهم ــ باعتبارهم من المعارضين السياسيين ــ (المترجم) ·

(١٨) لازال العامة فى مصر على الاقل يستخدمون هذا اللفظ « كوسة » للدلالة على الأمر غير الواضح الذى تكثر مداخله ومخارجه أو بمعنى أكثر وضوحا : تجاوز القانون خدمة لشخص باتخاذ مسارب كثيرة ، كما تستخدم الكلمة بين العامة أحيانا مرادفا « للوساطة » و « الرشوة » و « المحاباة » و « الخروج على القانون » وما الى ذلك · ما علاقة ذلك بالنبات المعروف ؟ لا أدرى ، وان كان العامة يستخدمون كلمة « قرع » كمرادف « للكوسة » للتعبير عن المعانى نفسها · وأغلب الظن ان (كوسة) المقصودة كلمة غير عربية ثم وضع العامة لها مرادفا عربيا هو (القرع) لمطابقة لفظة (كوسة) بمعناها المقصود هنا للفظة الكوسة التى يعنون بها النبات المعروف · والله أعلم ــ (المترجم) ·

غطاء الرأس التونسى الأحمر الذى أعده أسوأ غطاء رأس ويطلقون عليه اسم الطربوش (١٩) ويتطلع العرب وحدهم بشغف للبس الطربوش (دون عمامة أو دون لفه بشال) كما يفعل الأتراك · ومما يؤسف له أن يرى المرء الكوفية والعقال وهى أكثر أغطية الرأس ملاءمة يتخذان سبيلهما للاختفاء الا على رءوس الأشراف والبدو · ولباس النسوة (فى المدينة) أنيق كلباس الرجال · فقد أخبرنى بعضهم أن النسوة ترتدى الواحدة منهن داخل بيتها صديرية Sudayriyah (وتعنى الصدار وهى الجزء الأعلى من ثوب المرأة) من قماش الكاليكو Calico وغيره من الأقمشة ، والصديرية ـ تدعم أو تسند ثديى المرأة ، دون رفعها فاسد بالطريقة الأوربية · وفوق الصديرية ترتدى المرأة ثوبا Saub وهو قميص أبيض من قماش يطلق عليه الهلالى Halaili أو برنجق (برنجك) Burunjuk بأكمام واسعة جدا ، وينساب طويلا الى القدمين ، أما السروال فليس واسعا كسراويل المصريات ، لكنه أكثر احكاما وهو قريب من السروال الهندى (٢٠) · دون مبالغة فى تضييقه ، واذا خرجت المرأة طرحت على رأسها ملاءة (ملاية) حريرية أو قطنية مصبوغة بالأبيض والأزرق على شكل مربعات كمربعات الشطرنج · أما البرقع فهو أبيض فى سائر أنحاء الحجاز · والنسوة من كل الطبقات يصبغن أخامص (جمع أخمص) أقدامهن وأكفهن باللون الأسود ، ويرسمن خطوطا نحيلة بين الأصابع وهن يضعن طبقة من الحناء فى البداية (على أكفهن وأخامص أقدامهن) ثم يضعن « خلطة » تسمى « شدر Shadar » من العفصة الجوزية والشب (مسحوق حجر الشب) والليمون Lime (وتعنى أيضا مسحوق الحجر

---

(١٩) كلمة طربوش تحريف للكلمة الفارسية سربوش Sarpush والتى تعنى غطاء الرأس ، ويحط الانجلو سكسون من قيمته بتسميته طربروش Tarbrush ويسمى الطربوش أيضا فيز fez نسبة للمدينة التى تصنع أفضل أنواعه ، ويميز بعض المصريين بين الفيز والطربوش فيطلقون الفيز على النوع الكبير المرتفع ذى اللون القرمزى ، أما الصغير فيسمونه (طربوش) ـ (بيرتون) ·

(٢٠) فى الهند ـ كما فى السند ـ قد تقضى السيدة التى تتبع أصول الموضة ربع ساعة لمحاولة تمرير منطقة الكاحل (رسغ القدم) فى سروالها her bloomers . (بيرتون) ·

عادت موضة البلومر هذه فى السنوات الأخيرة فى العالم العربى ومناطق أخرى ويسمى أحيانا « البنطلون الصابونة » ، لأنه لا يلبس الا بعد معاناة شديدة ، أى انه فى حاجة الى صابونة (مجازا) للمساعدة فى انزلاق الساقين داخله · وهو تعبير شعبى على أية حال ـ (المترجم) ·

الكأسى) • وتفرق المرأة شعرها عند منتصف رأسها وتضفره حوالى عشرين ضفيرة صغيرة ويسمين هذه الضفائر جدايل (المفرد جديلة Jadilah والجمع الفصيح جدائل) • أما عن الحلى وأدوات الزينة فهى مختلفة اختلافا شديدا كما هو المعتاد لدى الشرقيين فهى تتراوح بين الأساور النحاسية والترتر (اللمع : بضم اللام وتشديدها وتشديد الميم وفتحها) من ناحية الى الذهب والأحجار الكريمة من ناحية أخرى • وهن شغوفات بالعطور القوية : كالمسك وطيب الزباد والعنبر وعطر الورد وزيت الياسمين والصبار ومستخلص القرفة • ويلبس الرجال والنساء أخفافا اسطنبولية ، والنسوة ترتدى الواحدة منهن خفا داخليا من جلد أصفر فاتح فوق الجورب وتغطى الكاحل (رسغ القدم) بالبابوش papush وهو جلدى أيضا وأحيانا تحف أطرافه بالمخمل (القطيفة) ويزين عند تجويف القدم بشغل ذهبى على هيئة أوراق نباتات أو عساليج (غصنيات نباتية صغيرة) • وفى مناسبات الحداد لا يختلف لباس الرجال عما هو عليه الحال فى المناسبات الأخرى المعتادة وهم فى هذا يتصرفون تصرف المسلمين الحقيقيين الذين لا يجزعون عند الموت • أما النساء فهن اللائى لا يستطعن السيطرة على قلوبهن ، لذا فانهن يبرهن على حزنهن وأساهن بارتداء ملابس بيضاء والتخلى عن زينتهن • هذا هو المعتاد على أيامى • وان كان بوركهارت ـ وهو رحالة دقيق ـ قد أخبرنا أنه على أيامه لم تكن نسوة المدينة ترتدى ملابس خاصة للحداد •

ويظهر المدينى خارج بيته دائما سائرا على قدميه ، فالدواب هنا قليلة لتكاليف تغذيتها المرتفعة على ما أظن • والفرسان هنا يمتطون أفراسا مصرية هزيلة ولا يركب الخيول هنا الا الأثرياء ، وهى خيول نجدية بشكل عام وثمن الواحد منها ما بين ٢٠٠ دولار و ٣٠٠ دولار • أما الجمال هنا فكثيرة • لكن التى تناسلت فى الحجاز ضئيلة ضعيفة ومن ثم فأسعارها زهيدة • والجمال من السلالات الأصيلة تسمى الأحرار Ahrar (وتعنى النبيلة noble) وتسمى أيضا النامانى Namani نسبة الى اسم مكان استيلادها ، ويتراوح سعر البعير منها ما بين عشرة دولارات وأربعمائة دولار وهى ضئيلة الحجم لكنها سريعة جدا وراسخة الأقدام وذكية ومدربة وبارعة ، ولها عيون كعيون الأبقار الوحشية وأنوف دقيقة • وليس فى المدينة بغال ، وعلى أية حال فان الرأى الشائع عن راكبيها يمنع الناس الآن من ركوبها • ويجلبون الحمير من مصر ومكة ، وهناك من أخبرنى أنه يوجد فى المدينة دواب جيدة وأن بعض العشائر البدوية غير النبيلة لديها سلالات جيدة ، لكننى لم أر أيا منها • وبالنسبة للحيوانات التى تعد مصدرا للغذاء ، فالغنم هى وحدها الشائعة فى هذا الجزء من الحجاز ويوجد منها ثلاثة أنواع (سلالات) ، فالنوع ذو الحجم الكبير

يأتى من نجد ومنطقة عرب عنيزة Anizah Baddawin الذين يديرون تجارة مزدهرة فى هذه الأغنام ، أما النوع صغير الحجم فهو النوع الحجازى • وكلا النوعين هما السائدان بين أنواع الخراف العربية ، ولون الفروة فى هذين النوعين مصفر يميل للسمرة ولية tail الخروف من هذين النوعين طويلة وسمينة • وفى بعض المناسبات يقابل المرء ما يعرف فى عدن باسم خراف بربره Berberah sheep وهى تختلف عن الخراف الأخرى تماما ، فهى بيضاء ووجوهها سوداء عريضة ، ولها لغد (غبب : بفتح الغين والباء) ولية قصيرة وسمينة وقد جلبها ـ بلا شك ـ الفرس • والأبقار نادرة فى المدينة فلحومها غير مفضلة فى بلاد الشرق ولا يشرب البدوى حليب الأبقار ويفضل عليه حليب النوق والنعاج والماعز • وقلما يؤكل لحم الماعز فى المدينة فلا يأكله الا أفراد الطبقات الممعنة فى الفقر • وتصرفات أهل المدينة أكثر وقارا ورزانة ، كما أنهم يتسمون بالغرور أكثر من سائر العرب الذين اختلطت بهم • ويبدو أنهم تعلموا الغرور من حكامهم الترك لكن صرامة أهل المدينة وتمسكهم بالشكليات ليس خلقا عميقا أصيلا فيهم • ففى حالة المودة والألفة أو الغضب سرعان ما يتخلصون من قشرة الأدب واللياقة ، ليعودوا الى طبيعتهم وتتجلى كل عيوبهم : الصوت العربى الصارخ ، الشتائم الوافرة المتبادلة المشددة ، والهوس الشديد الذى يتجلى فى الاشارات والتعبيرات والايماءات • وهم متحدثون بارعون (كلمنجية) فاذا لقى أحدهم ممن يواجهه فى النزاع أو المساومة أكثر مما يحتمل فانه بدلا من التذرع بالصبر ، نجده يربك خصمه بقوله : « صل على النبى » أو « صل على محمد » ، وهنا فانه يتحتم على أى مسلم تقى أن يجيب قائلا : « اللهم صل عليه » ، ولكن المدينى لا يقول ذلك وانما يكتفى بقوله : « أعن A'n » مفترضا أنها تغنى عن العبارة كاملة ـ ينطق هذه اللفظة المختصرة ثم يستمر فى ثرثرته • وربما يفكر من يواجهه بارباكه بأن يقول له : « وحد الله Wahhid » عندئذ فان المدينى لا يقول: « لا اله الا الله » مؤكدا عقيدته وانما يكتفى بأن يهتف بحرفين فقط « أل Al » ثم يواصل حواره بسرعة • وكما هو متوقع فان حرب الكلمات سرعان ما تتحول الى معركة حامية فهم دائما على استعداد للدخول فى عراك لفرض العدالة • وقد تم القضاء على الحزازات القديمة بين « جوه Jawwa » و « بره barrah » بعد صعوبات فائقة والمقصود بالنزاع بين « جوه وبره » النزاع بين أهل المدينة (جوة) من ناحية ، ومن هم خارج المدينة « برة » من ناحية أخرى • لكن الصبية ـ حقا ـ لا زالوا يؤججون هذا النزاع بين المدينة وضواحيها فهم يخرجون فى جماعات ليقوموا بانقضاض مدبر بالعصى والأحجار •

ومن غير المعقول أن يجد المرء الفضائل العربية الخالصة فى مدينة تحرسها حامية تركية ، وتعج بالتجار المسافرين ، ويحصل أهلها على

أرزاقهم بابتزاز الحجاج · وأهل مكة ذوو الوجوه الداكنة يقولون ان قلوب أهل المدينة سوداء وان كانت جلودهم بيضاء · وعلى أية حال فان فى هذا القول مبالغة ، وان كان من غير المبالغة أن نؤكد أن الفخر وحب المشاكسة والتمسك بالشرف وحب الانتقام الذى يتسم بالحقد الشديد والذى يكون لديهم طاقة مدهشة وصبرا فائقا ـ هى الصفات الوحيدة التى أخذهـا أهل المدينة من خواص الشخصية العربية ، والتى يبدونهـا (أى هذه الصفات) بشكل معتاد · وتقابل هنا قليلا من بقايا فروسية الصحراء وشهامتها · فالرجل قد يسب ضيفه لكنه لا يتناول طعامه بدونه وقد يحميه بشجاعة فى مواجهة أعدائه · وغالبا ما تنساب الكلمات بخفة بين الأفراد فتكون هذه الكلمات البسيطة كافية لتسبب العداوات الدموية بين البدو · ومظهر اللياقة والذوق واضح جلى بين أهل المدينة · ولا يوجد فى المدينة (المنورة) أماكن للبغاء Corinthians dwell كما فى مكة والقاهرة وجدة · واذا تم اكتشاف الزنا فان عقوبته القتل وفقا لأحكام القرآن ، وأما الفسوق فيما دون الزنا فعقوبته الجلد فان تكرر نفى مرتكبه من المدينة وهناك من أخبرنى أن هذه الفضائح قلما تحدث هنا ، فالنسوة يتصرفن باحتشام شـديد ، فان خرجن تمتعن بحضور حفلات الزواج البهيجة ، وشهدن النسوة وهن يلدن ، وحضرن حفلات الختان ، وتبادلن الزيارات فى الأعيـاد والمناسبات الدينية ، ومناسبات العزاء أما داخل البيوت فهن ينشغلن بالأعمال المنزلية خاصـــة فى تعنيف « حســـنة Hasinah » وزعفران Za'afaran وفى هذا فهن يفقن حتى مدبرات المنازل الانجليزيات الشهيرات فى الطبقة الوسطى ، فهذه الأخيرة (المدبرة الانجليزية) سجينة عبوديتهـا ، بينما السيدة العربية مسموح لها أن تستخدم بغير حدود ـ ما يحلو لها من كلمات · وفى منزل الشيخ حامد على أية حال لا أستطيع أن اتهم النسوة فيه أنهن قمن بتوجيه السباب واثارة الرعب (فى الجوارى) « فالله حى لا يموت وهو قادر على سماعهن » لكنهن يستخدمن الجوارى السود ليدعكنهن بالزيت أو يدلكنهن دون اذلالهن بعنف ، وعلى أية حال ففى مكـة وفى منزل السيدة العجوز التى كنت أعيش فى بيتها وجدت أنها كانت توجه لابنها الكبير ألفاظا قاسية ومغلظة، عندما يعكر مزاجها بطباعه المنحرفة وعدم انضباط أوقات تناوله الطعام ، فقد كانت على سبيل المثال تؤكد أن ابنها ابن امرأة منحرفة (····) ومن المفترض أن هذا السب لا يعود عليها بشكل مباشر · وعلى النحو نفسه نجد الحال فى مصر فقد سمعت أبا يسب ابنه قائلا انه « كلب ابن كلب » وانه « بذرة كفرة ·· بذرة يهود ·· بذرة نصارى » ، أما بين أهل المدينة فقد لاحظت قسطا كبيرا من التظاهر بالفضيلة فالسنتهم رطبة دائما بالسلامات الدينية ، والعبارات الدينية ، والاقتباسات القرآنية ، وفى الوقت نفسه فالسنتهم لا تكف أيضا عن البذاءة والشتائم الخسيسة ·

وفى هذا فانهم يتشابهون مع الفرس . وكما لاحظنا قبلا ، فهم يحافظون على أداء صلواتهم كأبناء للمدينة المقدسة فى الجماعة فقط (يقصد أنهم يراءون الناس وفى هذا مبالغة قبيحة من المؤلف) (٢١) . أما فى اسطانبول فيظهرون بوضوح كعناصر وقورة . ولا تصنع الخمور ، خاصة العرقى Araki فى المدينة الا بواسطة الأتراك . ونادرا ما يورط أهل المدينة أنفسهم بصنع الخمور فى بيوتهن ، اذ سرعان ما ينكشف الأمر بسبب الرائحة التى يميزها السكارى . وخلال فترة اقامتى بالمدينة كان يتعين على أن أدبر نفسى بأن أجعل زجاجة كونياك واحدة تكفينى ، وقد أضفت اليها بعض المواد ليبدو لونها كلون الدواء . وأهل المدينة كأهل مكة فى طباعهم مزاج من الكرم والبخل والاسراف والتقتير . لكن صفات أهل المدينة ما هى الا نتاج رغبتهم فى الفخر والتباهى ، أما أهل مكة فصفاتهم مستمدة من خصائص الجنس السامى الذى عرفه الأوربيون منذ زمن طويل ممثلا فى اليهود . فالمدينى (نسبة للمدينة المنورة) قد يتورط فى الاستدانة معتمدا على حلول موسم يكثر فيه الزوار المؤمنون ليسدد ديونه ، أو معتمدا على رحلة تسول يقوم بها لتركيا وهو لا يتعرض للنقد من الرأى العام فى العالم الاسلامى بسبب رحلة كهذه ، وأهم صفة من صفات أهل المدينة والتى تظهر بوضوح أكثر من الصفات الأخرى ، هى الغرور الشخصى أو الاعتداد الزائد بالنفس ، ويتجلى ذلك فى اختيالهم وفى نظراتهم وفى كل كلمة ينطقون بها . وفى أوقات الخطر خاصة يردد الواحد منهم قولا لا لزوم له وانما هو من قبيل الحشو ، اذ يقول : « أنا مثل أى واحد ، وابن أى واحد » وهذه الروح التى يبدونها ليست عرضة للنقد فهى لا تفضى إلا الى الأعمال البسيطة التافهة ، لكن غالبا ما يؤدى التنافس بينهم الى عقد المآدب والاستضافة وغير ذلك من أمور التباهى والخيلاء . والتعبير الذى يصدم الآذان الانجليزية هو ذلك التعبير الذى يعنى تأجيل ما يتحتم عمله اليوم الى وقت لاحق وهو تعبير « ان شاء الله بكرة » Inshallah Bukrah ، وهو تعبير يستخدم بالمعنى نفسه (التأجيل أو التسويف) فى مصر والهند . وهذه المماطلة وعدم أداء الأعمال فى أوقاتها سمة سائدة على نحو أو آخر فى كل أنحاء الشرق . لكن فى الجزيرة العربية فان التسويف يرتبط أكثر بعبارة « توكل على الله يا شيخ ! » وتعنى ألا يعتمد الانسان على جهده الشخصى . وعلى أية حال فرغم وجود بعض النقائص فى شخصية المدينى فاننى أعتقد أن فى هؤلاء الناس أكثر من جانب يستحق الاشادة فهم أكثر رجولة وشهامة من معظم البشر فى الأمم الشرقية التى تعاملت معها .

---

(٢١) مابين القوسين اضافة من المترجم .

والعرب ـ كالمصريين ، كلهـم متزوجون ، مع أنهم ـ كالعـادة ـ يتناولون موضوع الزواج بقسوة وتندر ، فالحديث فى هذا الموضـوع تتجلى فيه طرفهم وفكاهاتهم وحكمتهم ، ولا نعدم نظما فى هذا المجال . يقول الحكيم حاريكار Harikar al-Hakim (المعلم بتاع كله (Do-All لابن أخيه السير مخبول Sir witless ليثنيه عن الزواج « الزواج سعادة شهر وغم العمر ، وهم وكسر ظهر وتعرض للسان المرأة (السليط) » ويقولون شعرا :

قالوا : زواج ! قلت باعدوا بينه وبينى
أأضم الى صدرى كيسا مليئا بالأفاعى
اننى حر ، فلم أصير نفسى عبدا ؟ !
لا بارك الله فى جنس النسا !

ويستشهدون عموما بالأبيـــات التالية التى تبين رأيهم فى صنف الاناث :

« من عشر سنين الى العشرين (من عمرها)
تنام فى عيون زوجها
ومن عشرين الى ثلاثين
لا زالت حلوة مكتنزة لحما
ومن الثلاثين للأربعين
أم البنين والبنات
ومن الأربعين للخمسين
عجوز مخادعة
ومن الخمسين للستين
اذبحها بالسكين
ومن الستين للسبعين
لعنة الله عليها وعلى من فى سنها » .

والنظم التالى الشائع يؤكد نظرتهم :

يقولون ان جنس النسا جنة للرجال

أقول : عسى الله يدخلنى جهنم ان كانت الجنة نساء ٠

واجراءات الزواج طويلة مملة ومكلفة وهى تبدأ بالخطبة ، حيث يذهب والد الشاب الى والد البنت أو وليها وفى نهاية الزيارة يقول : « الفاتحة » اننى أطلب كرمكم فى أن تكون ابنتكم عروسا لابنى ٠ فان كان والد العروس أو وليها مرحبا بالفكرة قال : « أهلا بكم ، لكن لابد أن نصلى صـلاة الاستخارة » واذا تم القبول قرأ الطرفان « الفاتحة » ثم تبدأ المفاوضات عن المهر وبعد تجاوز صعوبات تحديد المهر تتم دعوة الأصدقاء والأقارب ذكورا واناثا ٠ ويسمى الزواج نفسه (عقد القران) فعقد القران يعنى أن الزواج قد تم ٠ ويجهز والد العريس وليمة فى بيته ويدعو القاضى (المأذون) لعقد القران ، ويتم معرفة رأى الفتاة وأخذ موافقتها عن طريق وكيلها وهو أى رجل قريب لها تفوضه فى نقل رأيها والنيابة عنها فى عقد القران ، ثم يزور العريس مصحوبا بزفة كبيرة عروسه فى بيت أبيها وبعد أفراح كثيرة تذهب العروس لبيتها الجديد ٠ واذا كانت اجراءات الزواج عند العرب معقدة فان اجراءات الجنائز بسيطة للغاية ٠ فليس ثمة ندابة ولا تحضر حتى النسوة من قريبات المتوفى اجراءات الجنازة كما فى أنحاء أخرى من العالم الاسلامى ٠ ومن الأمور المعيبة عند العرب أن يبكى الرجل بصوت مرتفع ٠ وقد حرم النبى (صلى الله عليه وسلم) المبالغة فى اظهار الحزن والأسى عند الموت ، لأنه (صلى الله عليه وسلم) قد سمع ـ بلا شك ـ عن جنائز الوثنيين وحدادهم حيث كانوا يبالغون فى اظهار الحزن والأسى وحيث كان الفاسقون يستغلون هذه المناسبة تماما كما يفعل فى المناسبة ذاتها المسيحى غير المتمدين (نصف الوثنى أو بارد العقيدة) ٠ وقد مكن ذكاء الرسول الشديد وحسه المتقد من ادراك ما فى المبالغة فى اجراءات الجنائز من كبر وخيلاء ٠ وفى المدينة (المنورة) تدفن الجثة مباشرة بعد أن يقضى الشخص نحبه ، ويتلقى أهل المتوفى التعـازى من الأقارب والأصـــدقاء ـ بعد ذلك ـ فى الطرقات والأماكن الهادئة ، وكل من يمر عليه موكب الجنازة يتقدم بكتفه ليحمل التابوت لدقيقة تعبيرا عن احترامه للميت ، بالاضافة الى أن هذا يعتبر دلالة التقوى٠ وعند الوصول للحرم النبوى يضعون التابوت عند شباك النبى للزيارة ، ويصلون عليه عند محراب عثمان (رضى الله عنه) ٠ وأخيرا يدفن فى البقيع حسب النظام المتبع عند المسلمين ٠

ورغم أن المدينـة (المنورة) قد تعرضت للسلب على يد السلفيين الاصلاحيين (الوهابيين) فلا زالت تعج بالكتب ٠ والى جوار الحرم النبوى توجد مدرستان : المدرسة المحمودية نسبة للسلطان محمود ، ومدرسة بشير أغا ، وفى كلتا المدرستين مخزن كبير عامر بكتب التوحيد وغيره ٠ وقد سمعت أيضا عن مجموعات كتب شخصية كثيرة خاصة مجموعة نقيب

الأشراف محمد جمال الليل الذى كان أبوه مشهورا فى الهند · وهناك ـ بالاضافة الى ذلك كتب كثيرة موقوفة (ضمن وقف) مهداة للمسجد ، أو موقوفة لأسرات بعينها · وقد نقل محمد بن عبد الله السنوسى الشهير مجموعته التى بلغت فيما يقال ثمانية آلاف مجلد من المدينة (المنورة) الى بيته فى جبل أبى قبيس Kubays بمكة (المكرمة) ·

ويمتدح الناس ـ الآن ـ علماءهم ويتباهون أنهم أكثر احتراما للعلم من أهل مكة ·

ومع هذا يغادر عدد كبير من الطلاب المدينة (المنورة) طلبا للعلم فى دمشق ، وفي القاهرة حيث يرى المرء رواق الحرمين فى جامع الجامعة الأزهرية مزدحما دائما · ورغم أن عمر أفندى قد تباهى أمامى أن بلده (المدينة) مليئة بالعلم الديني ، الا أنه لم يكن يأنف اطلاقا من حضور دروس الأساتذة المصريين · لكن أحدا ممن تحدثوا الى لم يذكر لى أى تسهيلات أو وسائل لدراسة العلوم غير الدينية · فلا يمكن تعلم الفلسفة والطب والحساب والجبر هنا · وقد كنت حريصا على استقصاء أمور العلوم الخفية هنا متذكرا أن باراسيلسوس كان قد سافر الى شبه الجزيرة العربية · وأن هذا الكونت كاجليوسترو Count (Giuseppe Balsamo) Cagliostro الذى زعم أن شريف مكة كان بمثابة والد له ـ قد أكد أنه فى حوالى سنة ١٧٦٥ ـ قام بدراسة الكيمياء (١) فى المدينة · والأثر الوحيد الذى وجدته هو معلومات سطحية عن المرآة السحرية Magic Mirror الا أن المدينى لا يحبذ تعليما غير التعليم الدينى ، ومع ذلك فلابد من القول ان سرعة بديهتم وذاكرتهم القوية قد زودتهم بكثير من المعلومات السطحية الملتقطة أثناء المناقشات ومن القوافل · ووجدت من المستحيل أن أعرض هنا هذه الأعمال البطولية الفذة التى ينظر اليها كمعجزات في السند وجنوب فارس وشرق شبه الجزيرة العربية وفى كثير من أنحاء الهند · ومعرفة أهل المدينة باللغات أقل من معرفة أهل مكة بها فهم (أهل مكة) يفوقون سائر أمم الشرق فى هذا المضمار فيما عدا الأرمن · ونادرا ما يعرف المدينى اللغة التركية أما من يعرف الفارسية أو اللغات الهندية فاقل من النادر · ولا يستطيع تجويد القرآن الكريم تجويدا جيدا الا من درسوا فى مصر · ويعلن أهل المدينة أن لغتهم هى العربية الخالصة · وسرعان ما انقسمت العربية الفصحى الى لهجات مختلفة نتيجة اتساع الدولة الاسلامية ، كما انقسمت اللاتينية بسبب ظروف مشابهة الى اللهجات الرومانية الحديثة فى ايطاليا وصقلية وبروفنس ولانجودوك Languedoc · ورغم أن نيبور قد استهجن ـ عن حق ـ مقارنة لغة القرآن باللغة اللاتينية ، ومقارنة اللهجات العامية باللاتينية فلا زالت هناك فوارق كبيرة بينها ، فغالبا ما يلحق بالكلمة بعض التغيير

باحداث تغييرات متنوعة بالاضافة الى تبسيط النحو والاعراب · وسيسمع المسافر فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية أن بعض القبائل النائية تحتفظ بنقاء لغوى توارثته عن أجدادها يستخدمون الحروف المتحركة فى أواخر الكلمات (مع الاسم) ويرفضون اضافة الضمير الذى يحذف من المقطع الأخير من الفعل ، والذى أصبح ضروريا (٢٢) لكننى أشك بشدة فى وجود علماء لغة (فيلولوجية) فى أية قبيلة · وعلى أية حال ، ففى الحجاز ، يعتبرون أنه من اللباقة فى كبار السن أن يتحدثوا بالعربية الفصحى خاصة اذا كانوا يتحاورون بشكل علنى أمام الجمهور · وعلى العكس فان الشباب لو فعلوا ذلك لاتهموا بالادعاء وقلة الخبرة وتعرضوا للهجاء من خلال بعض العبارات على شاكلة :

« اثنين ما فى أبرد منهم

عجوز متصابى ، وصبى عامل كبير » ·

---

(٢٢) انت ضربت (بتسكين التاء) بدلا من ضربت (بفتح التاء) مما يجعل الفعل يتماثل مع الضمائر الأخرى (انا ضربت وانت ضربت ـ كلاهما بتسكين التاء) ·

(مختصر تعليق بيرتون) ·

الفصل الثانى والعشرون

زيارة لمقبرة الصالحين (البقيع)

ربط الحوادث بالظواهر الفلكية - ذو ذؤابة - الحوازم والحوامد - فشل مشروع بيرتون للذهاب لعدن عبر الصحراء - أول مدفون فى البقيع - ابراهيم ابن الرسول - الشيعة - مراسم الدفن - الدعوات - المساجد - المتسولون - الخرافات الموضوعة - خرافة صندوق به جسد على رضى الله عنه - طريقة الدفن السلفية - البقيع - المسعودى وقبر الزهراء - بكاء الفرس - مسجد القبلتين ومساجد آخرى .

لقد وهج ظهور الكوكب المتألق ذى الذنب فى أفق السماء الغربى تفكير أهل المدينة ، فقد بدءوا جميعا يتنبأون بالفواجع المعتادة - الحرب والمجاعة والطاعون ، فلازال المسلمون يعتقدون أن نجم الفواجع ينذر بالمصائب . وقد ناقش الناس احتمال موت السلطان عبد المجيد قريبا لأن الناس هنا كما فى روما يعتقدون أنه :

« عندما يموت المعدمون لا يظهر فى الأفق نجم مذنب » .

« لكن السماوات نفسها تتوهج عند موت الأمراء » .

وقد تعود الحجازيون أن يقرءوا أنباء عن وباء الريح الأصفر المفزع (١) عند ظهور أعراض مناخية غريبة أثناء موسم الحج أو قبله بقليل .

وسواء ما اذا كان الحدث يمكن ربطه بظهور ذو ذؤابة Zu-Zuwabah أم أن ذلك بمحض الصدفة (أى ربط بين ظواهر لا رابط بينها فى الواقع post hoc, ergo, propter hoc) فاننى لن أورط نفسى فى الحكم على هذا الشىء ، الا أن الحوازم Hawazim والحوامد Hawamid وهما فرعان من بنى حرب ، بدءا - لسبب أو لآخر - الاقتتال اقتتالا عنيفا مروعا فى

---

(١) الريح الأصفر هو وباء الكوليرا - (بيرتون) .

حوالى هذه الفترة (فترة ظهور النجم المذنب) • وهاتان القبيلتان ـ بشكل عام ـ بينهما أحقاد وضغائن ، مما يجعل أقل قدر من الاثارة كافيا لتحويل اللهب الكامن فى صدورهم الى حريق • ويقال ان عـدد الحوامد يتراوح ما بين ثلاثة آلاف وأربعـة آلاف مقـاتل بينما لا يزيد عدد الحوازم عن سبعمائة ، الا أن الحوازم ـ على أية حال ـ يعتبرون من العناصر الانتحارية (التى تقاتل قتـال المتهور اليـائس desperadoes) التى لا تقبـل التراجع ، وقد انقضوا على جناحى عدوهم ـ المتفوق عددا ـ تحت قيادة شيخيهما الدمويين : عباس وأبو على • وسبب هذه الحرب الحالية أن حميـدة (رجـل من الحوامد ، والمفرد حميـدة) ضرب جمـلا لحازمى (رجل من الحوازم ، والمفرد حازمى) تجاوز حده ، فقام الحازمى بضرب حميدة وأسمعه ما يكره ، فأطلق حميدة توا النار على الحازمى ، فتنادت القبيلتان بالقتال ، وظل الطرفان فى حرب مستمرة لبضعة أيام • وطوال فترة ما بعد الظهر ، يوم الثلاثاء الموافق ٣٠ أغسطس كان صوت اطلاق النار بين الجبال ، مسموعا بوضوح فى المدينة ، وفى الشوارع يرى المرء جماعات من البدو يحملون السيوف والبنـادق ذوات الفتائل فى أيديهم أو النبابيت على أكتافهم وهم يسرعون مهتاجين هياجا شـديدا لضياع فرصة الاشتراك فى المعركة • ويلعنهم أهل المدينة بشكل سرى متمنين أن يقضى هؤلاء العناصر المؤذية على بعضهم • أما الحجاج فكانوا فى حالة ذعر خوفا من تخلى جمالتهم عنهم وهم يعرفون ماذا تفعله أونصة من البـارود وأنها كافية لاشعال الفتن والحروب فى هذه المناطق المضطربـة • وقد سمعت بعد ذلك أن البدو ظلوا يقتتلون حتى الليل ، ثم توقف الطرفان بعد أن فقد الجانبان عشرة رجال •

وقد وضعت هذه المعـركة بين الحوامد والحوازم نهاية لأى توان محتمل لمواصلة رحلتى الى مسقط كما كنت أنوى أصـلا • وكنت قد كونت صداقة شخصية فى الطريق من ينبع الى المدينة مع شخص من بنى حرب اسمه «مجرم» one Mujrim of Harb • واسمه يعنى بالانجليزية الآثم Sinful ، وهو اسم قديم وتقليدى بين العرب ـ وقد فهم مجرم أن لى غرضا أو مصلحة سرية تجعلنى أخاطر بالقيام بهذه الرحلة المحفوفـة بالمخاطر ، فلم يستطع أن يعدنى فى البداية أن يرشدنى (أن يكون دليلا لى) لأن الطريق التى يطرقها باستمرار تقع بين ينبع والمدينة ومكة وجدة ، لكنه وعـد أن يقوم بكل الاستفسارات عن الطريق وأن يأتينى بنتيجة استفساراته ليلا فى ضوء القمر عندما يكون أهل الدار نياما • وقد وافق أخيرا على أن يصحبنى فى حوالى نهاية شهر أغسطس وفى هذه الحالة كان على أن أغادر بيت حامد وأن أبدأ متقمصا شخصية البدوى ، متخذا سبيلى فى اتجاه المحيط الهندى (عبر الصحراء) • لكن عندما بدأت الحرب ،

كان مجرم – بلاشك – راغبا فى مناصرة اخوانه الحوازم ، لذا فقد بدأ يبدى علامات الرغبة فى التسويف وتأجيل يوم الرحيل الى آخر سبتمبر – ولما ضغطت عليه صرح لى فى خاتمة المطاف أن أى مسافر بما فى ذلك البدو لا يستطيع أن يسافر من المدينة (المنورة) فى هذا الاتجاه ، ولا حتى الى خيبر Khaybar وقد تأكدت بعد ذلك أنه يقول الصدق • وكان من المحال أن أبدأ فى سلك هذا الطريق بمفردى ، ولما لجأت للشيخ حامد فى لحظة يأس بدا وكأنه يظننى مجنونا لأننى أرغب فى المضى شمالا بينما كل العالم يهرع نحو الجنوب • وقد أصبت بخيبة أمل مريرة فى بداية الأمر لكن الظروف سرعان ما عزتنى • ففى ظل أفضل الظروف مواءمة تستغرق رحلة البدوى من المدينة (المنورة) الى مسقط – على الأقل – عشرة شهور فالمسافة لا تقل عن ألف وخمسمائة ميل أو ألف وستمائة – وهذه المدة الطويلة تعرضنى لفقد وظيفتى (٢) فقد كانت الأوامر الصادرة لى أن أكون فى بمباى قبل نهاية شهر مارس – وأكثر من هذا فدخول شبه الجزيرة العربية عن طريـق الحجاز – كما قلت آنفـا – كان يضطرنى لترك كل أدواتى ما عدا الساعة وبوصلة الجيب مما يجعل الفائدة التى أقدمها لعلم الجغرافيا من رحلتى هزيلة • ومع هذا فقد ظل الأمل يراودنى للقيام بهذه الرحلة لعبور شبه الجزيرة العربية اذا أتيحت الظروف فى مكة (المكرمة)• وعلى أية حال فقد كان لدى العزم لرؤية منطقة الحجاز القفرة والغريبة ، وأن أشهد شعائر الحج فى مكة (المكرمة) • ولابد أن أطلب من القارىء أن يصغى بأناة لوقائع الزيـارة التى قمنا بها مرة أخـرى • اننـا سننهيها بالركوب للبقيع (٣) • فهذا الموضع المبجل يرتاده المؤمنون كل يوم بعد الصلاة فى المسجد النبوى (٤) خاصة فى أيام الجمع •

لقد بدأت جماعتنا ذات صباح وقد ركبنا الحمير كالمعتاد – فلم تكن رجـلى حتى الآن قد شـفيت تماما – وسلكنا درب الجنازة حـول السور

---

(٢) الفترة التى حددها البرلمان للضابط للبقاء خارج الهند هى خمس سنوات فان تخطاها انقطع راتبه (مكافاة الخدمة) – (بيرتون) •

(٣) الكلمة تعنى المكان الذى تكثر فيه الجذور ويسمى أيضا بقيع الغرقد ، وهو نوع من الأشجار ، اعتبره البعض شجر الآس البرى الشائك tree of jews واعتبره آخرون شجر اللوت Lote – (عن بيرتون) •

ولم نجد مقابلا عربيا لهذا النوع الأخير فى المعاجم الزراعية والنباتية المتاحة لنـا – (المترجم) •

(٤) فى النص : بعد الصلاة عند قبر الرسول والمقصود ما أوردناه فى المتن – (المترجم) •

الجنوبى للمدينة (المنورة) · لقد كان تحركنا بطيئا ، وكان السبب الرئيسى فى ذلك ، حبال الخيام التى نصبها الحجاج فى سائر أنحاء السهل ، وكانت الحبال التى تشد بها الخيام ممتدة دون أى نظام · واخيرا وصلنا الى نهاية الدرب فتعمدت الخطأ باتجاهى نحو الموضع المنحط (القذر) الذى يقطنه الشيعة النخاولة ، بدلا من اتجاهى للبقيع ، مقبرة الصالحين ، وقد صحح حامد اتجاهى بتأفف فقلت له انه فى وطنى (المقصود أفغانستان) نحرق بدن كل زنديق تقع أيدينا عليه · وقد كنا نسمع عن هذه العادة الاسلامية ونسمع أنها تلاقى الاستحسان ، وبعد جدل بسيط وقفنا عند بوابة البقيع المفتوحة ، فترجلت وجلست على دكة (مصطبة) حجرية بين الجدران لالقاء نظرة شاملة ولأستريح استعدادا لمواجهة متاعب « الزيارة » المرهقة · وتروى المأثورات أنه فى يوم القيامة ستنشق أرض البقيع عن سبعين ألف قديس (ولى) وقيل مائة ألف (٥) - وجوه جميعهم كالبدر فى حال التمام · فقد دفن هنا حوالى عشرة آلاف صحابى وعدد لا حصر له من السادات (الأشراف) وقد غلف النسيان مواضع قبورهم لأن الناس فى الأزمنة القديمة لم يكونوا يضعون شواهد حجرية على القبور · وأول من ينهض من قبره يوم البعث هو محمد (صلى الله عليه وسلم) والثانى : أبو بكر والثالث : عمر ، ثم ينهض المدفونون فى البقيع (بمن فيهم الخليفة الرابع : عثمان رضى الله عنه) ثم بعد ذلك ينهض الموتى فى جنة المعلى (مقبرة مكة المكرمة) · والهداة الذين ماتوا فى الحرمين سيرفعون مع السور Sure يوم القيامة مما يجعل هذه البقاع لا تقدر بثمن من حيث قداستها وطهارتها ، فالبقيع - كسرداب الموتى فى روما - ملىء بالقداسة ، ولو كان فى أية مدينة اسلامية أخرى رفاة واحدة لرجل صالح من بين جحافل الصالحين المدفونين هنا ، لأصبحت مدينة مشهورة · ولا يمنع الناس من نبش القبور هنا للحصول على بقايا الصالحين (بقايا رفاتهم) سوى الشفقة والرحمة ·

وأول من دفن فى البقيع هو عثمان بن مظعون أول من مات من المهاجرين فى المدينة فى شهر شعبان فى السنة الثالثة للهجرة فقبل الرسول جبهته وأمر به فدفن غير بعيد عن مسكنه · وفى تلك الأيام كان موضع البقيع مغطى بأشجار الغرقد Gharkad فقطعت الأشجار وسويت الأرض ودفن عثمان بن مظعون وسط المقبرة الجديدة ، ووضع محمد

---

(٥) يقال الشىء نفسه عن مقبرة بنى سالمة أو بنى سالم ، الى الغرب من المدينة ، وقد هجرت المقبرة منذ زمن طويل ، ويقع ادنى منها ارض يطلق عليها جبل سلا Sula - (بيرتون) ·

(صلى الله عليه وسلم بيديه حجرين بشكل عمودى : واحد عند الرأس والآخر عند القدم لتدل على موضع دفن صاحبه المؤمن · وبمرور الوقت غطت القباب المكان · ودفن ابراهيم ـ الابن الثانى للرسول صلى الله عليه وسلم ـ الى جوار عثمان بن مظعون ، وبعدها أصبح البقيع مقبرة مشهورة · والبقيع منطقة على هيئة مستطيل غير منتظم يحيط بها سور متصل بالضاحية عند زاويته (زاوية السور) الجنوبية الغربية · ويفصل درب الجنازة البقيع عن سور المدينة · ويحيط بالبقيع من ناحية الشمال الطريق الصحراوى الشرقى الذى يبدأ من باب الجمعة (!) Bab allJumah ويوجد حول البقيع بساتين نخيل تبدو مزدهرة · وتعتبر البقيع مقبرة صغيرة الحجم اذا نظرنا لكثرة الموتى الذين يدفنون فيها ، فكل من يموت فى المدينة سواء أكان من أبنائها أم من الغرباء يدفن فى البقيع ، ما عدا الزنادقة والشيعة · ولابد أنه (البقيع) غاص بالجثث التى سرعان ما تتحلل نظرا لطريقة المسلمين فى الدفن ،وبوابة البقيع صغيرة ولا تتسم بالفخامة فهى مجرد باب فى السور · ولا يوجد داخل المقبرة أحواض زهور ولا أشجار باسقات ولا أى مظهر من مظاهر الرفاهية التى توجد فى المقابر المسيحية ، والمبانى بسيطة بل ويمكن وصفها بأنها متواضعة جدا ، وهى فى غالبها مطلية بالطلاء الأبيض وتبدو جديدة تماما ، فقد سوى سعود السلفى (الوهابى) وأتباعه بالأرض الآثار القديمة فى البقيع وشن حربا مريرة ضد الأضرحة الفخمة باعتبار أن كومة أحجار ـ فيما يرون ـ تكفى للاشارة لموضع مقبرة · وعلى أيام بوركهارت ، كان المكان كله مضطربا بأكوام الأتربة والحفر الواسعة والقمامة ولم يكن يوجد قبر واحد منتظم له شاهد حجرى · والمبانى القائمة الآن ، يعود الفضل فى اقامتها ـ كما قيل لى ـ للسلطان عبد الحميد والسلطان محمود ·

والحاج الفقير قد بدأ أخيرا رحلتـه التى لا رحلة بعدها وانفض الأصدقاء والمعزون مبتعدين عن جثتـه التى حملتها أكتاف الدفانين (الحانوتية) المستأجرين الى البقيع ، وفجأة بطأ الحمالون خطاهم المسرعة وألقوا بالجثة على الأرض · لقد كان فى الجثة مرونة كما لو كانت الحياة لا تزال تدب فيها ، وكان الكفن المحكم يحدد ملامح الجثة ، وقد جعلنى المنظر أرتعد ، وبدا وكأن الميت يشعر بما يوشك أن يحدث له · وقد كانوا قد نسوا أدواتهم ، فذهب رجل ليبحث عنها ويحضرها بينما جلس ثلاثة رجال يدخنون · وبعد فترة تم اعداد حفرة غير عميقة وتم الوضع الجثة فيها بسرعة غير ملائمة حتى ان التراب لمس الجثة من كل جانب ـ انه اهمال قاس بين المسلمين ، والعزاء الوحيد أن هذا الرجل الفقير قد كان حاجا فمات شهيدا ولن يمضى وقت طويل بعد مغادرة روحه مقبرة البقيع حتى « يطعم من شهد الجنة ويشرب من حليبها » ·

لقد دخلت مقبرة البقيع برجلى اليمنى كما لو كنت داخلا مسجدا وكنت حافيا حتى أتحاشى أن يتشكك أحد فى ايمانى فرغم أن أهل المدينة يدخلون البقيع وهم يلبسون أحذيتم الا أنهم يأنفون من رؤيـة الفرس يحذون حذوهم • وقد بدأنا فى تلاوة الدعاء (التبريكات) العامة : « السلام عليكم يا أهل البقيع ! السلام عليكم ورزقكم الله ما وعدكم ! السلام عليكم يا شهداء البقيع أجمعين ، وانا ان شاء الله بكم للاحقون ، غفر الله لنا ولهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » وبعد ذلك قرأنا سورة « الاخلاص » والتشهد ثم رفعنا أيدينا وقرأنا الفاتحة ثم مسحنا وجوهنا بأكفنا ، وتابعنا الزيارة •

فسرنا فى ممر ضيق غير مستو يؤدى من الجانب الغربى للبقيع الى الجانب الشرقى منه فدخلنا ضريحا متواضعا للخليفة عثمان أو عثمان المظلوم كما يسميه بعض المسلمين • فعندما قتل (رضى الله عنه) أراد أصدقاؤه دفنه الى جوار الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الحجرة ولم تعترض عائشة (رضى الله عنها) على ذلك ، لكن أهل مصر الثائرين أقسموا أن جسده لاينبغى دفنه أو الصلاة عليه ولم يسمحوا الا بنقله تحت تهديد حبيبة (احدى أمهات المسلمين وابنة أبى سفيان) بأن تكشف وجهها ، وخلال الليلة التى أعقبت موته حمل جثته نفر من أصحابه الى البقيع لدفنه ، لكنهم — على أية حال — اضطروا لدفنه فى حديقة ناحية الشرق بعيدا عن مقبرة الصالحين (البقيع) وكانت تسمى حصن كوكب Hisn Kaukab وكان الناس ينظرون لهذا الحصن كمكان منحوس حتى ضمه مروان للبقيع • لقد وقفنا أمام موضع دفن عثمان (رضى الله عنه) ورحنا نردد : « السـلام عليك يا سيدنا عثمان بن عفان (٦) • السـلام عليك يا خليفـة رسـول الله ! السـلام عليك يا كاتب الوحى ! يا من تستحى منك الملائكة (٧) ! السلام عليك يا جامع القرآن ! السلام عليك ياصهر رسول الله ياذا النورين ! السلام عليك يامن حاربت معـركة الايمان ! رضى الله عنك وأرضاك وجعل الجنة مأواك • والسلام عليك ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العوالم الثلاثة (الملائكة والجنـة والناس) • وانتهى هذا الدعاء بالشكل المعتاد ، فبعده وزعنا الصدقات

---

(٦) يسميه الشيعة « عثمان الاعرج » ، ومما يذكر أن عفان (والد سيدنا عثمان) يذكر بالاسم فى الدعاء لأنه أسلم بينما لا يذكر « قحافة » والد أبى بكر » أو « الخطاب » والد عمر — (بيرتون) •

(٧) لابد أن يدرك القارىء الاوربى أن عقائد المسلمين تجعل الطبيعة البشرية — فى أحوال خاصة — أرقى وأعلى من الطبيعة الملائكية — (بيرتون) •

ودفعنا عشرة القروش المقررة لخادم الضريح • وعملية الدفع المضاعفة هذه كانت تتكرر عند كل محطة (عند كل مكان نتوقف عنده فى البقيع) •

ثم خطونا خطوات قليلة للشمال ووجهنا وجوهنا للشرق وقمنا بأداء زيارة لأبى سعيد الخدرى Abu Sa'id al Khazari صاحب رسول الله ويقع قبره خارج البقيع • والموضع الثالث الذى زرناه كان قبة تضم قبر السيدة حليمة أم الرسول من الرضاع وتلونا أمام قبرها هذا الدعاء : « السلام عليك يا حليمة السعدية ، السلام عليك فقد أرضعت خير البشر ، السلام عليك يا أم المصطفى من الرضاع السلام عليك يا أم المجتبى ، رضى الله عنك وأرضاك وجعل الجنة مثواك لقد جئنا لزيارتك تقربا لرسول الله وحبا فى الله رب السماوات السبع والأرضين » •

وبعد ذلك واجهنا الناحية الشمالية ووقفنا قبالة مكان مسور يضم أبنية بيضاوية من حجارة غير مثبتة مرصوصة جنبا الى جنب ، وهذا المكان قد دفن فيه شهداء البقيع الذين لاقوا حتفهم على يد المسلم (٨) قائد جيش زعيم الفاسقين arch-heretic (٩) ورحنا نرتل دعوات مختلفة تختلف قليلا عن الدعوات التى قلناها عند شهداء جبل أحد ، لذا فلن أعيدها هنا • والمحطة الخامسة قريبة من منتصف البقيع حيث قبر ابراهيم الذى توفى وهو ابن ستة أشهر وقيل فى عامه الثانى ، وهو ابن الرسول من مارية القبطية التى أرسلها المقوقس المصرى حاكم الاسكندرية ، وقد أهال الرسول صلى الله عليه وسلم بيديه التراب على قبره ونضحه بالماء فكان أول من نضح قبرا بالماء ووضع أحجارا صغيرة عليه ، ولهذا السبب فان كثيرا من الصالحين قد دفنوا فى هذه البقعة من مقبرة البقيع ، فكل انسان يطمع فى أن يدفن فى الأرض التى تشرفت بيدى الرسول (عليه الصلاة والسلام) • ثم زرنا نافع المولى Al Nafi Maula

---

(٨) يقصد مسلم بن عقبة المرى وهو قائد من الدهاة فى العصر الاموى اشتهر بالقسوة ، ادرك النبى صلى الله عليه وسلم وشهد صفين مع معاوية ، ولاه يزيد بن معاوية قيادة الجيش الذى ارسله للانتقام من اهل المدينة لرفضهم مبايعته فغزاها وأسرف فى القتل • (انظر الاعلام للزركلى وغيره) •

(المترجم) •

(٩) زعيم الزنادقة أو الكفار وفضلنا ما أوردناه فى المتن لأسباب كثيرة - (المترجم) •

ابن عمر (؟) ويسمى أيضا الامام نافع القارىء (١٠) ، وبالقرب منه دفن ابن المدينة الفقيه العظيم مالك بن أنس • والمحطة الثامنة عند قبر عقيل بن أبى طالب أخى على بن أبى طالب ، ثم زرنا الموضع الذى دفنت فيه زوجات الرسول ماعدا السيدة خديجة (رضى الله عنها) المدفونة فى مكة • لقد تزوج الرسول خمس عشرة زوجة عاشت منهن تسع بعده ، وبعد زيارة موضع دفن زوجات الرسول (أمهات المؤمنين) زرنا موضع قبور بناته ، قيل انهن كن عشرا (١١) (؟) •

وقد احتشد المتسولون والمتسولات فى هذا الصباح فى البقيع ربما لتملق الحجاج ومدحهم ، فعلى طول السور وعند مدخل كل مبنى تندفع النسوة العجائز ، يتأملن فى وجه كل من يقترب تأملا يبعث على القلق ، ويشرن الى مناديل قطنية قذرة بسطتها أمامهن فوق الأرض وعليها عملات قليلة ذهبية أو فضية أو نحاسية ، ويرفعن أصواتهن طالبات السخاء ، وبعضهن يعدن بقراءة الفاتحة وبعضهن يحاصرن الزائرين بأطراف ملاءاتهن (عباءاتهن) ، والفقهاء على استعداد لقراءة سورة « يس » أو ما يطلب منهم ، وقد غطوا الأكوام القليلة والمواضع البارزة فى البقيع ، وكلهم يتسولون بهمة شديدة والحاح وينظرون اليك وكأنهم سيقتلونك اذا قلت لهم « الله كريم » وهو تعبير مهذب يعنى أنك لن تعطيهم شيئا • وعند أبواب المقابر توجد ربات بيوت عجائز ، وشابات أيضا يتعاركن معك لحمل خفك أو صندلك عند خلعه ، وقد تحمل اثنتان منهن خفك (أو صندلك) ، كل واحدة منهن « فردة » • وفى داخل المقبرة (أو الضريح) يجبر الكبار والمسيطرون من أقارب « الخدام » ومن المتطفلين ـ الصبية المتسولين على الخروج اذا كانوا (أى الصبية) غير لحوحين وغير عدوانيين بما فيه الكفاية • ولسوء حظى فان الشيخ حامدا كان معروفا بتولى أمور الحجاج الأثرياء ، ونتيجة هذا فقد تقلصت محتويات كيس نقودى الى ثلاثة دولارات • ويجب أن أضيف أنه رغم أن

---

(١٠) من المؤكد هنا أن بيرتون سمع معلومات خاطئة أو فهمها خطأ فكتب التراجم تشير الى شخصين مختلفين : نافع القارىء أحد القراء السبعة المشهورين وانتهت اليه رياسة القراء فى المدينة • توفى ١٧٩ هـ (٧٨٥ م) ، ونافع مولى عمر (وليس ابنه) وهو من ائمة التابعين بالمدينة وارسله عمر بن عبد العزيز الى مصر ليعلم السنن •

ازمنة التاريخ الاسلامى للترمانينى ج ٢ حرف النون ـ (المترجم) •

(١١) لا نتوقع من القارىء الكريم ان يتخذ مما ذكره بيرتون مصدرا للسيرة النبوية فالرجل يذكر ما يسمعه وقد يكون غير صحيح ، لكن اهمية ما يذكره انه يبين الافكار التى كانت سائدة فى هذه الفترة ـ (المترجم) •

خمسين صوتا أنثويا – على الأقل – قد ارتفعت من حناجر نساء وبنات يعدن بالدعاء لشفاء رجلى المريضة مقابل عشر بارات Parahs لكل منهن، الا أن دعاءهن لم يأت بنتيجة ٠

وقبل مغادرة البقيع ذهبنا الى المحطة الحادية عشرة وهى قبة العباسية أو قبة العباس وقد أقامها – أساسا الخلفاء العباسيون سنة ٥١٩ للهجرة وهى أكبر قبة فى البقيع وأجملها وتقع ناحية اليد اليمنى عند دخولك من البوابة ، ويشهد زحام المتسولين عند بابها على أهميتها ، وقد جذبهم للتجمع هنا حشود الفرس الذين احتشدوا هنا ليبكوا ويدعوا ٠ وعبرنا عتبة قبة العباسية ببعض المشقة وسرت (طفت) حول حشد من القبور التى تشغل وسط المبنى حيث لم يكن ثمة الا ممر ضيق بين القبور وسور المبنى (مبنى قبة العباسية) وحول قبر العباس سور منخفض وعليه كسوة من قماش أخضر مشغول بحروف بيضاء ، ويبدو وكأنه (أى القبر) كومة غير منتظمة وربما بدت لى غير منتظمة بسبب زحام الناس حولها ٠ والجزء الجنوبى يضم رفات الحسن بن على وحفيد الرسول (صلى الله عليه وسلم) والامام زين العابدين بن الحسين والامام محمد الباقر (الامام الخامس) بن زين العابدين ، وابنه الامام جعفر الصادق ، وكلهم من سلالة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد دفنوا فى قبر واحد مع عم الرسول – العباس بن عبد المطلب ، ومن نافلة القول أن نقول ان هذه الأسماء موضع خلاف كبير ٠ يذكر المسعودى أنه قد وجد هنا حجرا منقوشا يشير الى دفن فاطمة الزهراء هنا وأخيها الحسن وعلى بن الحسين ومحمد بن على وجعفر بن محمد ٠ أما ابن جبير ففى معرض حديثه عن هذا القبر (قبة العباسية) ذكر أنه لا يضم الا رفات العباس والحسن ، أما رأس الحسن فهى – كما يقول – عند قدمى العباس ٠ وهناك مؤلفون آخرون يذكرون أنه حوالى القرن التاسع للهجرة تم العثور على صندوق خشبى مغطى بقماش أحمر ملبد (له لباد) يبدو جديدا وفيه مسامير نحاسية لامعة ، ويعتقدون أن هذا الصندوق يضم رفات الامام على الذى نقله الى هنا ابنه الحسن ٠

وعند وقوفنا أمام هذا القبر الغامض رحنا نردد الدعاء التالى بصعوبة بالغة بسبب بكاء الفرس : « السلام عليكم يا آل البيت ! ياسادة العرب ، انما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، السلام عليكم ياسيدنا عباس ٠٠ وياسيدنا حسن يا حفيد الرسول ، ويا سيدنا زين العابدين ٠٠ الخ » ٠

وبعد أن خلصنا أنفسنا من أيدى الصبية الجشعين ، استدرنا وواجهنا الجدار الجنوبى حيث قبر ينسب للسيدة فاطمة فأعدنا الدعاء

الشبيه بالدعاء الذى رددناه فى الحرم النبوى · ولما خرجنا من تحت هذه القبة المزدحمة الحارة استعدنا أخفافنا (جمع خف) بعد عناء شديد ووجدنا أن عباءاتنا قد اعتراها بعض التلف بسبب احتكاك الفرس بنا احتكاكا مسعورا ، ثم سرنا الى بوابة البقيع ووقفنا فوق موضع مرتفع ورحنا نردد الدعاء العام التالى :

« يا الله ، يا الله ، يا الله ، يا رحمن ، يا رحيم بيدك تصاريف الأيام والخير والرخاء ، يامجيب دعوة الداعى اذا دعاه ، ارحم صحابة رسول الله والمهاجرين والأنصار ، ارحمهم جميعا وفرادى ، وارحم ·· الخ واجعل الجنة مستقرهم ومأواهم ·· يا الله اقبل زيارتى وأجب حاجتى وأنر قبرى وأعدنا لديارنا سالمين وآمنا من الخوف ولاتخيب آمالنا واغفر لنا وارحمنا وأمتنا على الايمان وسنة رسولك واغفر خطايانا ولا تكلنا لأنفسنا طرفة عين ··· » الخ ·

وبعد ذلك خرجنا من البقيع (١٢) وتقدمنا نحو الجنوب مخلين بوابة المدينة ناحية اليد اليسرى ، حتى وصلنا الى قبة صغيرة بالقرب من الطريق يزورها الزائرون باعتبارها تضم رفات أعمام النبى وعماته ، خاصة صفية ابنة عبد المطلب وأخت حمزة وتعجلنا فى قراءة الأدعية هنا ، لأننا بالفعل كنا قد تعبنا. فطلبنا من السقا ماء ودخلنا مقهى صغيرا بالقرب من بوابة المدينة وبعد ذلك ركبنا عائدين للبيت ·

لقد وصفت الآن ـ بتفصيل أخشى أن يكون مزعجا ـ المواضع التى يزورها كل زائر للمدينة (المنورة) · والكتب الارشادية تذكر ما بين خمسين وخمسة وخمسين مسجدا وأماكن مقدسة أخرى ـ معظمها أصبح غير معروف الآن حتى بالاسم لسكان المدينة · وأكثر هذه المواضع شهرة وهى قليلة سأصفها للقارىء من خلال ما سمعته عنها · فعلى بعد ثلاثة أميال الى الشمال الغربى من المدينة (المنورة) بالقرب من وادى العقيق يقع مسجد القبلتين ، وبعض الناس يعطون الاسم نفسه لمسجد التقوى فى قباء ، وآخرون يؤكدون أن النبى (صلى الله عليه وسلم) بعد أن زار بيت سيدة عجوز تسمى أم مبشر وأكل عندها ، ذهب ليصلى الظهر فى مسجد بنى سالمة وجه وجهه نحو بيت المقدس فوجهه الوحى الى الكعبة المشرفة وأتم صلاته فى هذا الاتجاه · وقد أخبرونى أنه مبنى ذو قبة بسيطة دون جدران داخلية أو ساحة خارجية مسورة أو مئذنة ·

---

(١٢) المقبرة الشهيرة ـ (المترجم) ·

ومسجد بنى ظفر Zafar (بعض الناس يكتبها بنى تفر Tifr) ويسمى أيضا مسجد البغلة ويرجع ذلك الى أنه ـ وفقا لما ذكره المطرى Matari ـ على حيد صخرة الى الجنوب من هذا المسجد ، توجد علامات حيث كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يتكىء بذراعه وحيث كانت البغلة (الذلول) تحك حوافرها • تلك البغلة التى أرسلها المقوقس هدية للرسول وأرسل معها حمارا (يعفور Yafor ؟) ومارية القبطية • ويرى المرء فى هذا المسجد بلاطة حجرية ، وحيث كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يجلس ليستمع للقرآن (الكريم) ويذكر المؤرخون أن نسوة كثيرات وهبن ذرية بجلوسهن فى هذا الموضع وسماعهن القرآن (الكريم) (؟) • ويقع هذا المسجد الى الشرق من البقيع •

ومسجد الجمعة فى واد قريب من قباء حيث صلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) صلاة الجمعة وخطب خطبتها لأول مرة بعد الهجرة من مكة •

ومسجد al-Fazikh ، وتعنى الكلمة نبيذ البلح ويرجع ذلك الى أن أبا أيوب الأنصارى وغيره من الأنصار كانوا يجلسون والكؤوس فى أيديهم ، فسمعوا أن الخمور ستصبح محرمة فسكبوها على الأرض • وقد صلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) هنا ستة أيام بينما كان يخوض حربا ضد يهود بنى النضير Benu Nazir ويسمى أيضا مسجد الشمس لأنه يستقبل أول أشعة شمس الصباح لوجوده فى مكان مرتفع الى الشرق من قباء أو بالقرب منها •

والى الشرق من مسجد الشمس يقع مسجد قريظة Kurayzah الذى أقيم فوق بقعة هبط منها الرسول لمهاجمة قبيلة يهودية تحمل الاسم نفسه • فعند عودته من معركة الخندق Moat مرهقا من الحرب جلس هنا ليغتسل ويرجل شعره ظهر له الملك جبريل فجأة ، على هيئة فارس معفر بالتراب يلبس درعا وقال : « ان ملائكة الله لم يضعوا أسلحتهم يا نبى الله ، ومشيئة الله أن تضع قدمك فى الركاب مرة أخرى وسأسبقك للاعداد للنصر على الكافرين ـ بنى قريظة » ، وتقول الرواية ان التراب الذى أثاره حصان الملك شوهد فى شوارع المدينة لكن عيون الانسان الفانى لم تتحقق من شكل حصان الملاك • فأمر النبى أتباعه بالاستجابة لنداء الحرب وأعطى رايته لعلى بن أبى طالب وظل يطوق مساكن أعدائه لخمسة وعشرين يوما ، وتمت ابادة هذه القبيلة بناء على رأى سعد بن معاذ الأوسى الذى ارتضوا حكمه لأنه من قبيلة متحالفة معهم ، فتم قطع رءوس ستمائة رجل

منهم فى ساحة سوق المدينة (المنورة) وتم سلب ممتلكاتهم وسبى نسائهم وأطفالهم (١٣) ٠

أما مسجد مشربة أم ابراهيم (أو بستان أم ابراهيم) فقد أقيم فى المكان الذى كانت فيه مارية القبطية تمتلك بستانا ، وابراهيم هو الابن الثاني للرسول (١٤) ٠ ويمثل هذا المسجد مبنى صغيرا فى موضع يسمى العوالى Awali ، لأنه أعلى موضع فى سهل المدينة ويقع الى الشمال من مسجد بني قريظة بالقرب من الحرة الشرقية ٠

والى الشمال من البقيع يوجد (أو كان يوجد) مبنى صغير يسمى مسجد الاجابة ، ويرجع ذلك للظروف التاريخية التالية ٠ ذات يوم وقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأداء الصلاة فى هذا الموضع الذى كان يمتلكه بنو معاوية (١٥) من قبيلة الأوس واستغرق الرسول فى الدعاء ، ثم استدار الى أصحابه قائلا : « لقد سألت الله ثلاثا ، فأجاب اثنين ولم يجب واحدا : لقد أجاب دعائى بأن أمتى لا تهلك بالمجاعة أو الطوفان أما الدعاء الثالث فهو ألا يجعل بأسهم بينهم شديدا » ٠

ومسجد الفتح ، ويسميه العامة مسجد الأربعة ، يقع فى وادى السيح Al-Sayh الذى ينساب من اتجاه قباء الى الشرق من « القبلتين » بحوالى نصف ميل ٠ أما مسجد الفتح فأكبرها جميعا ويسمى أيضـــا مسجد الأحزاب وقد أشار القرآن (الكريم) اليه ، ويقال ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد صلى فى هذا الموضع ثلاثة أيام خلال غزوة الخندق التى سميت أيضا بغزوة الأحزاب ، وهى آخر الغزوات التى خاضها الرسول ضد قريش ، وكانت بزعامة أبى سفيان ٠ وبعد ثلاثة أيام هبت ريـح صرصر عاتية فشتتت شمل أعداء الاسلام ٠ ويعتقد المسلمون المتحمسون أن الله (سبحانه) لا يرد دعوة الداعي اذا دعاه فى هذا المكان وصيغ الدعوات هنا تختلف من مؤلف لآخر ، وقد لجأ الامام الشافعي لهذا المسيل عندما كان خائفا من هارون الرشيد فنجا من كل مكروه ٠ وكنت أود أن أقدم للقارىء الدعوات الخاصة بالوقاية من الأمراض الا أنها طويلة للغاية ٠ وقد اختلف علماء الاسلام اختلافا كبيرا فيما يتعلق بالموضع الذى وقف فيه الرسول في هذه المناسبة فمعظمهم يرى أنه وقف في موضع مسجد

---

(١٣) ساق بعد ذلك بيرتون هذا النص :
"Tantane relligio poluit suadere malorum !" .

(١٤) الابن الأول للرسول هو القاسم وقد مات فى الطفولة ودفن فى مكة المكرمة لذا فالرسول (صلى الله عليه وسلم) يكنى أبو القاسم — (بيرتون) ٠

(١٥) لا علاقة لهم بمعاوية بن أبى سفيان — (المترجم) ٠

الفتح ، ودون هذا المسجد الى الجنوب يوجد مسجد سلمان الفارسى على أرض مرتفعة ، وسلمان الفارسى هذا هو الذى تفتق ذهنه عن فكرة حفر الخندق الذكية • وفى سن نضجه اذ بلغ مائتين وخمسين عاما (المترجم : هذه خرافات ينقلها بيرتون عن الناس وغالبا من أقوال الشيعة) (١٦) وقيل ثلاثمائة وخمسين (؟؟) وبعد أن قطى حياته بحثا عن الدين الحق ، وانتقل من المجوسية (عبادة النار) الى اليهودية الى النصرانية - أصبح فى خاتمة المطاف مسلما وصحابيا للرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلال حياته الحافلة تعرض للأسر عشر مرات ، ودون مسجد سلمان يوجد مسجد على ، ومسجد أصغر من المساجد الأخرى التى ذكرناها آنفا يقع الى جنوب التل يسمى مسجد أبى بكر • وتعود هذه المساجد جميعا لزمن الخليفة الوليد وجددها خلفاؤه •

أما مسجد الراية فقد بناه للمرة الأولى الخليفة الوليد فى الموضع الذى نصب فيه الرسول خيمته أثناء غزوة الخندق • ويسميه بعض الناس مسجد الذباب ويفصل مسجد الراية عن مسجد الفتح ، جبل سلع Sula أو جبل ثواب (؟) Sawab ، والجبل الأول يقع ناحية الشرق ، بينما يقع الثانى فوق المنحدر الغربى للتل • وموقع هذا المكان يثير الاعجاب فمنه يمكن رؤية منظر جميل للحرم النبوى •

والى الجنوب الشرقى للبقيع بحوالى ميل ونصف الميل توجد قبة تسمى قبة قوة الاسلام ، فقد غرس الرسول (صلى الله عليه وسلم) هنا جريدة نخل جافة فنمت واشتد عودها وأثمرت فى التو واللحظة • وأكثر من هذا ففى احدى المناسبات عندما كان المسلمون غير قادرين على أداء الحج ، فان محمـــدا (صلى الله عليه وسـلم) قد أحضر الى هنـــا الكعبة (؟؟) وعرفات (؟؟) وكل المواضع التى يزورها الحجاج فى مكة (؟؟) (طبعا هذه من خرافات الناس وليس فى السنة الصحيحة شىء كهـذا) (١٧) • وانى أحـذر القارىء من انتقاد نبى الاسلام لهذه الخرافات الصبيانية (١٨) •

ومسجد عروة (؟) Onayn (١٩) يقع خلف قبر حمزة (رضى الله عنه) ويقع على تل يسمى جبل الرماة ، حيث كان الرماة فى موقعة أحد

---

(١٦) ما بين القوسين من المترجم •

(١٧) ما بين القوسين اضافة من المترجم •

(١٨) يقصد انها من وضع بعض الكذابين ، وهذا صحيح - (المترجم) •

(١٩) لعله يقصد مسجد عروة - (المترجم) •

يقفون • ووفقا لما يقوله البعض فان أمير الشهداء قد تلقى جرحه المميت هنا ، وآخرون يجعلون هذه الحادثة فى موضع مسجد العسكر أو مسجد الوادى •

وبالاضافة لهذه المساجد الأربعة عشر لم أجد الا مجرد أسماء لأربعين مسجدا ، ولن يخسر القارىء كثيرا لعدم رغبتى فى تقديم قائمة مفصلة لمجرد أسماء مثل مسجد عبد الأشهل ومسجد بنى هريسة ومسجد بنى حارم Harim ومسجد الفاش ومسجد السقية ومسجد بنى بياضة ومسجد بنى حتمة (٢٠) •

---

(٢٠) ثم يسوق بيرتون هذا النص :
"Cum multis aliis quae nune Perscribere Longum est".

الفصل الثالث والعشرون

قافلة الحج الشامى

القافلة الطيارة ـ سعد الحرامى ـ الدرب الشرقى ـ مسعود الرحاح ـ أهمية تناول الطعام مع البدو ـ بر المناخة ـ المدين الشرقى ـ دولار لكل بدوى لضمان امان الطريق ٠

كان مقررا أن تنطلق قافلة الحج الشامى The Damascus Caravan فى ٢٧ ذى القعدة (الموافق للأول من سبتمبر) وقد كنت أنوى أن أمكث فى المدينة حتى آخر لحظة وأن ألتحق بالقافلة الطيارة Kafilat al-Tayyarah التى تغادر المدينة عادة فى اليوم الثانى من ذى الحجة أى بعد يومين من رحيل قافلة الحج الشامى ٠

وفجأة ثار لغط مؤداه أنه ربما لا تكون هناك قافلة طيارة (١) وأن على كل الحجاج أن يلتحقوا بالقافلة الدمشقية ، أو أن ينتظروا قافلة الركب Rakb وهى قافلة جمال يتحتم على الملتحق بها ألا يحمل معه سوى خرجيه٠ وتهبط هذه القافلة عادة فى طريق يسمى الخبط Al-Khabt وتصل مكة (المكرمة) فى اليوم الخامس ٠ وقد تلقى سعد شيخ المنسر (زعيم اللصوص) زيارة لم تحقق أهدافها من صديقه الوحيد الشريف زيد ، فقد طلب الشيخ سعد عودة المشيخة (الشيخة) his Shaykh Ship اليه مرة أخرى ، مقابل السماح بالمرور الآمن فى المنطقة التى يسيطر عليها ، والا فانه كما قال : « سأقطع رقبة كل دجاجة (أو امرأة) (٢) تدخل الطرق التى تمر بمنطقتى » ٠

---

(١) سميت كذلك لخفة جمولتها وسرعة سيرها ـ (بيرتون) ٠

(٢) every hen ، والمقصود أنه سيعتبر أى انسان يمر بمنطقته بمثابة دجاجة (قابل للذبح) أو امرأة ٠٠٠ الخ ـ (المترجم) ٠

وعاد الشريف زيد للمدينة فى ٣٠ ذى القعدة (الموافق ٣٠ أغسطس) • وفى الصباح الباكر من اليوم التالى عاد الشيخ حامد مسرعا من السوق ، وقال منفعلا : « يجب أن تكون مستعدا للسفر ياأفندى ! لن تكون هناك قافلة طيارة ، كل الحجاج سيغادرون غدا • الله يسهل عليك ! هل قربتك عامرة بالماء ؟! انك ستسافر عن طريق الدرب الشرقى Darb al-Sharki ولن تصادف فيه ماء طوال ثلاثة أيام » •

لقد كان المسكين ! ينظر فزعا وكأنما ينهى الى خبرا مخيفا ، بينما كان خبره هذا يملؤنى سعادة لأن بوركهارت كان قد زار الدرب السلطانى ووصفه ، وهو الطريق الذى يمر بمحاذاة البحر ، لكن أى أوروبى لم يسافر أبدا مستخدما طريق هارون الرشيد وزوجته زبيده • هذا الطريق الشهير الذى يخترق صحراء نجد •

وعلى أية حال كان لابد ألا نضيع لحظة واحدة فقد توقعنا أن نبدأ السفر فى بكور صباح اليوم التالى ، فذهب الولد محمد واشترى شقدوفا (أو شجدوفا) بمبلغ ثمانين قرشا وقد استمر معنا هذا الشقدوف فترة الحج ، كما اشترى شبرية Shibriyah أو سريرا خفيفا نقالا ليستخدمها الشيخ نور الذى لم يكن يستريح فى النوم على الصناديق • لقد كان الولد محمد مشغولا طوال النهار ، مشمرا أكمامه ، يعمل بجد كحمال فى تغطية الشقدوف بالحصير والأبسطة وفى اصلاح الأجزاء المعطوبة وبتزويده بجيوب كبيرة لوضع المؤن فى الداخل والخارج ، وجيوب أخرى لوضع زمزميات الماء المبرد فيها •

وفى هذه الأثناء كنت أنا والشيخ نور نطمئن على قرب الماء ، فوجدنا أن الفئران قد أحدثت فى اثنتين منها ثقوبا واسعة • ولم يكن هناك عامل فى هذا الوقت لاصلاحها ولا حتى مقابل الذهب ، فجلست للصقها واصلاحها ، بينما ذهب الشيخ نور لتجهيز مؤن تكفى أربعة عشر يوما مع أن مدة الرحلة أحد عشر يوما ، وذلك تحسبا لسلب بعضها كما أن الجمالة البدو يتوقعون أن يأكلوا منها ، بالاضافة الى السراق الذين يختلسون كميات صغيرة ، وقد أخذت معى ـ بناء على نصيحة أصحابى ـ دقيق قمح وأرزا وكركم (بضم الكافين وتسكين الراء) وبصلا وتمورا ونوعين من الخبز غير المخمر وجبنا وليمونا وتمباك وسكرا وشايا وبنا •

ولقد أنجز حامد نفسه معظم الجانب المهم من استعدادنا للرحيل ، وكان من الضرورى أن يكون بصحبتنا جمالة مأمونون ، لأن الطريق عامر باللصوص الذين يطعنون المسافرين بأسلحتهم فى بعض المناسبات فليس من قانون يمنعهم أو يحد من طلباتهم المفرطة • وبعد فترة عاد الشيخ حامد ومعه صبى وبدوى قصير نحيل كبير السن حسن التكوين منتظم الملامح

أبيض اللحية له عين باردة واضحة وأطرافه ـ كما هى العادة ـ بها ندب من أثر الجروح • انه مسعود الرحاح Rahah ، والرحاح أحد فروع الحمايدة الذين هم بدورهم من بنى حرب ، وقد قدم الينا مسعود وهو يتصرف بوقار فقد وضع كفه فى أكفنا دون أن يحرك أصابعه ليقبض على أكفنا (٣) وجلس ورفض التدخين وقبل القهوة ، وبعد أن شربها نظر الينا وعيناه تقولان انه مستعد للتفاوض ، وافتتحنا الحديث قائلين : « نريد رجالا لا جمالا » (٤) وكان الحديث بيننا يجرى بلهجة حجازية خالصة • وبعد مناقشات طويلة تم الاتفاق على أنه اذا اضطررنا للسفر بالدرب الشرقى أن ندفع عشرين دولارا مقابل جملين وأن ندفع (عربون) عشر دولارات ، وقد وعد الشيخ بأن يقدم لنا جمالا جيدة وتعهد بامدادنا بغيرها ان أصيبت ، كما تعهد بأن يقدم لها الماء وأن يصحبنا الى عرفات ثم يعود • لكنه رفض باصرار أن يحمل صندوقى الكبير ذاكرا أن ما هو موجود تحت الشقدوف يكفى كحمولة لجمل ، وأن صندوق الأدوية الأخضر والخرجين (مثنى خرج) وحقائب المؤن التى فوق سرير الشيخ نور تكفى كحمولة للجمل الآخر • ومن جانبنا فقد تعهدنا باطعام الشيخ مسعود وابنه وأن نزودهما بطعام جاف أو مطبوخ ، وعند عودتنا لمكة (المكرمة) من جبل عرفات ـ ندفع ما تبقى من الأجر مع هدية تقدم لهما فى كتمان •

وقد مدح حامد هذا البدوى العجوز ، ثم استدار اليه قائلا : « ستعامل هؤلاء الأصدقاء معاملة جيدة يا مسعود الحربى » فأجاب الرجل العجوز بوقار لكن بغير غرور : « حتى لو كان أبو شوارب (٥) Abu Shawarib فاننا نعامله كما يعاملنا » ثم نهض واقفا ونبهنا الى أن نكون جاهزين عند سماع صوت المدفع وحيانا ومشى ببطء خارجا من الغرفة يتبعه ابنه الذى تباطأ تباطؤا متعمدا ليتفحص كل شىء فى الغرفة وليتفحصنا أيضا •

---

(٣) وهذه الطريقة فى السلام يسميها العرب المصافحة •

(٤) فى هذه المناسبة سمعت ثلاثة مصطلحات جديدة : (الخريطة) وتستخدم للدلالة على رحلة الى مكة (دون العودة للمدينة) و (التعريفة) تعنى من مكة الى عرفات و (التنزيلة) وتعنى العودة من عرفات الى مكة •

(٥) اتباع المذهب الشافعى يقصرون شواربهم وبعضهم يحلق تماما الجزء العلوى منه (القريب من الأنف) كما يحلقون جانب اللحية القريب من الفم وجانبا مما على الصدغين ••• وفى شبه الجزيرة العربية لابد ان تكون (أبو شىء) ويكره العربى ان يقال له (أبو مناخير) اى (ابو انف) لكن لابد ان يكون (ابو) مثل (ابو ملامح) او (ابو حلة ـ بتشديد اللام) او حتى (ابو ريحة قوية) وتعنى (ابو ظرطة او ابو ضرطة ـ بتسكين الراء) ـ (مختصر عن تعليق بيرتون) •

ولما اختفى البدوى هز الشيخ حامد رأسه ونصحنى أن أقدم لهم طعاما كثيرا يأكلونه ، وألا تمضى اثنتان وعشرون ساعة دون أن أتناول معهم الطعام فى الطبق نفسه حتى يكون الجماعة دائما « مالحين Malihin (٦) وأنهى حديثه بمحاضرة ثرة عن نذالة البدو وعن عاداتهم فى شرب مياه المسافرين ٠ وكان على أن أضع القرب فوق الجمل أمامى وليس خلفى وأن أربط فوهاتها جيدا ، وأن أجعلها (أى الفوهات) الى الأسفل على غير المألوف ، وأن أحتفظ دائما بمخزون من الماء وأن أضع القرب ليلا فى الخيمة تحت الحراسـة ٠

وقد حضر فى فترة ما بعد الظهر على حين فجأة عمر أفندى وآخرون ليســتأذنوا ، فوجدونى منهمكا فى الاستعداد ، أربط الحقائب وأهيىء الشيشة وأرقع القرب وأعبىء الأدوية ٠ وأحضر لى رفيق السفر أقلاما ومطواة جيب ٠٠٠ فقد كنا على يقين من أننا سنلتقى ثانية ٠٠ وعلى أية حال ، فقد ألمح لاحتمال هروبه من منزل والديه مرة أخرى وانه قد يلتحق بقافلة جمال ان تمكن من ذلك ٠ وقال الشيخ حامد الشىء نفسه لكننى قرأت فى تعبيرات وجهه أن أمه وزوجته لن تسمحا له بمغادرة البيت بمجرد وصوله ٠

وقرب المساء كان المرء يرى فى بر المناخة مشهد فوضى هائلة ٠ مدينة من الخيام مطروحة على الأرض والجمال محملة تئن تحت وطأة أحمالها الثقيلة من شقاديف وأسرة وصناديق وأمتعة ، والبغال والخيول تعدو بسرعة ، والرجال يندفعون فى كل اتجاه لتبليغ أوامر أو رسائل شفهية أو للقيام بزيارة وداع خاطفة لقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) والنسوة والأطفال يجلسون على الأرض ضاحكين وصارخين أو يجرون ذهابا وايابا أو يجمعن أشياءهم خوفا من أن تسحقها الأقدام ٠ وبين الحين والحين تنطلق طلقة عشوائية فيظن الناس ـ خطأ ـ أنها طلقة المدفع الذى يؤذن بالرحيل ٠ وقد سمعنا فى أوقات متفرقة وابلا من الطلقات منبعثا من تل اللصوص ، مما يجعل الحجاج يتأوهون وهم فى حالة بين الخوف والأمل طالبين احدى الراحتين (الانطلاق أو عدم الانطلاق) ٠ وتسمع أصوات الأجراس المعلقة فى الحيوانات لاكتشاف حركتها خاصة ان كانت تحمل شقاديف مذهبة ومزخرفة بكتابات تنم عن ثراء صاحبها ، والجمال ترغو والخيول تصهل ٠

---

(٦) الملح عند الهنود هو روح البحر لذا يقدمونه للآلهة ، والفكرة القديمة فى أوربا ان الملح جسد تحلل أو تحول الى عناصر مختلفة وفى شبه الجزيرة العربية يشكل رابطا بين الأفراد ، ويسمى هومر Homer الملح بالطعام المقدس فاذا أكله أحد مع غريب صار صديقه ، وعند الاغريق والعرب نجد ان « الكرم » و « الملح » كلمتان مرتبطتان ٠٠ ـ (مختصر تعليق بيرتون) ٠

وبعد غروب الشمس بساعة تقريبا كنا قد أكملنا استعدادنا ما عدا الشقدوف الذى لازال الولد محمد يعده بحماسة بالغة ، فقد تذكر بحكمة أن عليه أن يقضى فيه أفضل الأوقات طوال أسبوع ونصف الأسبوع . لقد كان المساء حارا لذا فقد تناولنا عشاءنا خارج البيت . وهناك من أخبرنى أن على أن أعود للحرم النبوى لأداء زيارة الوداع ، لكننى رأيت أننا جميعا سنرحل وقد أكد رفاقى مبتسمين أنه يمكننى أن أودع من مكانى هذا تماما كما لو كنت فى المسجد النبوى .

وقد جعلنى الشيخ حامد أصلى ركعتين وأن أتوجه بوجهى نحو الحرم النبوى وأن أتلو الابتهالات التالية وأنا رافع يدى : « يا رسول الله نطلب منك أن تشفع لنا عند الله ألا يحرمنا ثواب زيارتك وزيارة حرمك ، عسى الله يرجعنا لديارنا سالمين غانمين وأن يديم علينا بركاته وأن يجعلنا من عباده الشاكرين على ما رزقهم ، ولا تجعل يا الله هذه آخر زيارة لنا لمسجد نبيك . أشهد ألا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله حقا وصدقا ، اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ... » وانهينا هذا الابتهال — كما هى العادة — بالدعاء وقراءة الفاتحة . أما الأتقياء ففى مثل هذه المناسبة (زيارة الوداع) يذهبون للروضة (فى المسجد النبوى) ليبذلوا قصارى جهدهم فى ذرف الدموع ، فاذا ما تمكنوا من انزال دمعة واحدة ، كان هذا دليلا على قبول زيارتهم ، وهم فى هذه المناسبة يقدمون أكثر ما يمكنهم من الصدقات وينذرون التوبة والندم والطاعة ، ويخرجون وقد شملهم الحزن لفراق نبيهم وشفيعهم . ومن المعتاد أيضا — قبل مغادرة المدينة (المنورة) سهر ليلة واحدة على الأقل فى الحرم ، وبالنسبة لعلماء الدين فانهم يقرءون القرآن كله أمام قبر الرسول .

ثم بدأت الاجراءات غير المريحة لدفع الحساب — وهو قليل — فالمدين الشرقى دائما — لأسباب مختلفة — لا يسدد دينه الا فى اللحظة الأخيرة . لقد كان الشيخ حامد يلمح باستمرار للصعوبات التى يواجهها ، والتى لم يحاول التخلص منها الا بالاعتماد على الله . لقد عاملنى بكرم بالغ لدرجة أننى ما كنت لأسترد أى جزء من الخمسة جنيهات الاسترلينية التى كنت قد أقرضتها له فى السويس . وقد أخذ منى كل واحد من اخوته الثلاثة دولارا أو دولارين ، كما ألح واحد أو اثنان من أبناء عمومته بأن تصرفى هذا (التغاضى عن الدين) يلاقى استحسانا منهم .

لقد تم انزال أمتعة السفر ووضعت أمام المنزل استعدادا لتحميلها فى اللحظة المناسبة . لقد بدأت جماعات كثيرة من المسافرين سفرها — غالبا — مستخدمة الطريق العالى ، وفى وقت متأخر من المساء وصلنا

تقرير جديد أن القافلة سترحل فى حوالى منتصف الليل ٠ لقد جلسنا حتى الساعة الثانية صباحا ولما لم نسمع صوت بندقية الانطلاق ولم نر جمالا ، رقدنا لننام خلال ما تبقى من ساعات الظلام المضطربة ٠ هكذا - عزيزى القارىء - قضيت ليلتى الأخيرة فى المدينة (المنورة) ٠

ان لدى سببا يجعلنى أهنىء نفسى لاجتيازى الخطر الأول ٠ فمكة (المكرمة) قريبة جدا من ساحل البحر الأحمر ، ففى حالة افتضاح أمرى يمكننى أن أهب فى غضون ساعات قلائل الى جدة حيث أجد نائب القنصل ليحمينى من السلطات التركية ، لكن افتضاح أمرى فى المدينة (المنورة) لو حدث لادى لعواقب أكثر خطورة ٠ والمغامرة التالية كانت الانتقال بين المدينتين المقدستين (من المدينة الى مكة) وهى مغامرة يسيرة لأن المسئولين المحليين قد رتبوا أمورهم بحيث يقدمون لكل بدوى - يمكن أن يثير الاضطراب - دولارا ٠

الفصل الرابع والعشرون

من المدينة (المنورة) الى السويرقية

الطرق من المدينة الى مكة ـ قبة على العريس ـ من النباتات الصحراوية : السنط والاذخر والدوم ـ جثث الدواب على الطريق ـ الفرس والاتراك ـ محطة غراب ـ الشيخ مسعود ـ عفاريت الخرائب ـ المحجر ـ مسئولو القافلة : امير الحج على اشجار ـ باشا العسكر ـ الصرة ـ نباتات : السنا والفزبيون ـ قرية الزريبة ـ من انواع الأحجار والمعادن ـ

هناك أربع طرق تؤدى من المدينة (المنورة) الى مكة (المكرمة) : الدرب السلطانى الذى يتبع الساحل ، وهذا الطريق وصفه بدقة من سبقنى فى الرحلة لبلاد الحجاز · والطريق الغابر أو الطريق الجبلى وهو طريق يتجنبه المحمل والقوافل الكبيرة بسبب ممراته الوعرة ، وتكثر المياه على طول هذا الطريق ومع هذا فلا توجد قرية واحدة ، وبدو صبح Sobh الذين يملكون الأرض حوله سلابون محترفون · والطريق المسمى طريق وادى القرى al-Kura ملائم لقوافل الجمال ، وتوجد على هذا الطريق قريتان صغيرتان أو ثلاث ، كما توجد الآبار على مسافات منتظمة وتمر القوافل دون أن تدفع شيئا فى زمام قبيلة بنى عامر · والدرب الشرقى ـ وهو الذى سلكته ـ يعود لجهود السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد ، وقد أمر الأمراء الأسخياء بحفر الآبار من بغداد للمدينة كما أمروا ببناء الحواجز كعلامات لترشد الحجاج لمواضع الرمال المتحركة · وثمة طريق خامس أو ممر جبلى ـ وهو الأقرب للصحة ـ ليس لدى معلومات عنه ·

وفى الثامنة من صباح يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر ذى القعدة (٣١ أغسطس ١٨٥٣) ، بينما كنا جالسين عند النافذة فى منزل حامد ، بعد تناول وجبة الافطار ظهر فجأة جمالنا مسعود فى عجلة شديدة · وكان يصحبه ابنه وهو صبى جسور فى حوالى الرابعة عشر من عمره ، وكان يكافح ببسالة لضبط توازن الأحمال فوق ظهر الجمل ، كما كان معه ابن أخيه وهو صبى قبيح الشكل بفعل آثار الجدرى ، كما أنه كسول

جدا ، يكسل حتى عن الدخول فى معركة · وقد طلب منا الشيخ ألا نضيع وقتا فى التحميل فبدأ الجميع بنشاط ، وفى الساعة التاسعة صباحا وجدت نفسى واقفا فى مواجهة الباب المصرى يحيط بى الأصدقاء الذين صحبونى مشيا على الأقدام لتوديعى ، وبعد العناق المؤثر ركبنا : أنا والولد محمد فى شقدوف والشيخ نور على سريره النقال · ثم مررنا بصحبة بعض الأتراك والمكيين عبر بوابة صغيرة بالقرب من القلعة واتخذنا طريقنا نحو الشمال · وكان عن أيامننا بساتين نخيل ، وبعيدا عن شمائلنا كانت قباب مساجد حمزة عند سفح جبل أحد وأمامنا يمتد الطريق مزدحما بجماعات تنتشر على السهل الحجرى الأجرد ·

وبعد مسير بطيء لمدة ساعة كنا ننحرف أثناءها انحرافا هينا وئيدا بالتدريج من الاتجاه شمالا الى الاتجاه شمالا بشرق – وصلنا الى طريق نجد العلوى ووصلنا الى موضع مشهور يسمى الغدير ، وهو منخفض يصرف مياه السهل الى التلال الشمالية · ولا تزال منخفضات أحد Ohod تحد المنظر من ناحية اليسار (المقصود سفوح أحد أو المناطق القريبة منه) (١) ، وعن أيامننا بئر الرشيد ، وقبة صغيرة لعلى العريس (؟) Ali al-Urays الذى يصل نسبه الى زين العابدين ، ولا زال هذا القبر موضعا يتردد عليه الزائرون وقد توقفنا عنده لنلقى نظرة وداع على المدينة المنورة ·

فترجل كل الحجاج وراحوا يحملقون فى المآذن الجليلة والقبة الخضراء ، التى تمثل معالم تعلق بذاكرتهم مرتبطة دوما بالحنين والشوق ·

وركبنا دوابنا مرة أخرى ظهرا وعبرنا مسيلا يجرى – وفقا لما قاله الجمال – من الشمال للجنوب ثم صعدنا من سهل المدينة ، وبدأت السماء تتلبد بالسحب ، ورغم أن الهواء مازال مليئا بالسموم Samun (يقصد أن رياح السموم مازالت تهب) (٢) الا أن هبات باردة لازالت بين الحين والحين تأتينا من التلال والعرب يخشون من هذا « التغيير المرير » ، فالتغير للنقيض تغيير لما هو أسوأ » ويعتبرون البرودة فى الصيف والحرارة فى الشتاء من الدلالات المناخية الخطرة · وقد وصلنا فى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر لبطن الطفح البركانى الذى أشار اليه بوركهارت – وذلك بعد أن اجتزنا ممرا صخريا وعرا تتناثر فيه أشجار الاكاسيا (السبنط أو الأثل) · لقد كانت طبيعة المنطقة بركانية تزخر بالبازلت وخبث البراكين تختلف فى

---

(١) ما بين القوسين عبارة من المترجم ·

(٢) عبارة شارحة من المترجم ·

درجة مساميتها ، وتحجب الرمال القاع (البطن) الأسود الذى تتفق أبعاده المعاصرة بلاشك مع الوصف الذى أورده المؤرخون العرب ، وقد استقصيت بدقة عن وجود براكين نشطة فى هذا الجزء من الحجاز ، وكانت نتائج استقصاءاتى سلبية فليست هناك براكين نشطة ٠

وفى الساعة الخامسة وكنا نتجه شرقا دخلنا بوغازا Bughaz والكلمة تعنى ممرا يتبع مجرى مسيل عريض تحفه تلال قاحلة شديدة الانحدار ، ومداخل المنطقة ممعنة فى القحولة حتى بالنسبة للبدو ٠ ويضيق بطن المسيل عند المنحنيات الحادة ، كما أن العلامات التى أحدثتها المياه فى الصخور الثقيلة (التى تجرفها المياه) تظهر أن المياه كانت على ارتفاع يتراوح بين ستة أقدام الى سبعة ـ كل ذلك يوضح أنه بعد هطول المطر كان مسار السيل من الشرق والجنوب الشرقى الى الغرب والشمال الغربى ٠ ويشير نمو أشجار الأكاسيا (كالسنط) والاذخر (بكسر الألف وتسكين ما بعدها وكسر الخاء) (٣) والدوم Daum (٤) فى بعض زوايا بطن المسيل الى قرب القشرة الخصبة من السطح ٠ وقد لاحظت ما يسمى اصطلاحا (الحفرة) وتعنى الحفر فى الرمال للوصول للماء وقد أكد لى الدليل أنه توجد ينابيع ينساب ماؤها من بين الصخور فى مواضع قريبة من هنا ٠ وبعد فترة ما بعد ظهيرة مملة تتسم بالحرارة والرطوبة بدأت أعداد كبيرة من دواب التحميل تهمد ٠ وجثث الحمير والخيل والجمال التى لم تتحلل بعد ـ تتناثر على جانبى الطريق ٠ ويقوم البائسون الذين يكادون يموتون جوعا بقطع شرائح كبيرة من أجزاء مختارة ويحملونها على أكتافهم حتى تسنح فرصة فيطبخوها ٠ اننى لم أر أبدا من هم أشد بؤسا من هؤلاء ٠ انهم يحملون أوانى خشبية يملأونها بالماء الذى يتسولونه ، وسلاحهم الوحيد يتمثل فى سكينة صغيرة فى غمد صغير يربطونه فوق المرفق ٠ ويضعون فوق رءوسهم طاقية كالمجداف وينتعلون بقطعة جلد كالصندل ويلبسون قميصا قذرا وأحيانا مجرد خرقة تغطى العورة ٠ وبعضهم متوحش تماما وآخرون منهم ذوو منظر رقيق وأكتافهم عريضة وخصورهم نحيلة وأطرافهم طويلة وكثيرون منهم مقعدون بسبب الارهاق ، والأشواك

---

(٣) الاذخر أو طيب العرب نبات عشبى طيب الرائحة تأكله الابل Camel grass ويسمى أيضا Limon grass ٠ انظر معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ـ (المترجم).

(٤) أو The pan pulm وهى نخلة تغطيها أوراق ضخمة مروحية وصفها كل الرحالة الذين زاروا مصر والشرق الأدنى ـ (بيرتون) ٠

التى تدخل فى أقدامهم وعندما أمعن النظر أتخيل الموت يحوم حول أشكال معظمهم وقسمات وجوههم •

وبعد مسيرة بطيئة ونحن صاعدون خلال المسيل صوب الشرق رأينا فى مواجهتنا سورا صخريا ولما استدرنا ـ لتحاشيه ـ فجأة صوب الشمال، وجدنا أنفسنا قد تركنا باطن المسيل وصعدنا الى أرض مرتفعة ، وسرعان ما حل الليل ، وانقضت ساعة ـ على أية حال قبل أن نرى على البعد نيرانا وسمعنا صيحات ملاحظ قافلتنا • لقد نصبت خيام تحت التلال وفى حضنها بنظام بديع ، وأحيط سرادق الباشا بالجنود والحراس فى خيام يخفرها الخفراء لحراسة المعسكر ومراقبة ما حوله •

وكان أحد رجالنا ـ كنا قد أرسلناه ليسبقنا مستطلعا ـ قد قابلنا فى طريق عودته وقادنا الى مكان مكشوف فأنزلنا أحمال جمالنا ونصبنا خيامنا وأوقدنا نارنا وتناولنا عشاءنا واستعددنا لقضاء ليل مريح • فأسلوب الحياة بسيط فى هذه الرحلات • فالأخراج (جمع خرج بضم الخاء) داخل الشجدوف (الشقدوف) وخارجه عامرة بالمؤن والماء يمكنك التزود منها ان وجدت حاجة لذلك • وفى ساعات معينة يقدم بائعون كثيرون لمن يريد الشربات وعصير الليمون والقهوة الساخنة والجوزة (أو الشيشة) المعدة اعدادا جيدا • ويمكن تدخين الشيبوك (الشبق ـ بتشديد الشين وضمها) داخل المحفة لكن قليلين يفعلون ذلك عند هبوب رياح السموم ، وأول ما يطلبه المرء ـ على أية حال ـ عند التوقف هو الشيشة ويعقب ذلك فنجان قهوة ، ثم يغفو غفوة قصيرة على الرمال ، وخلال فترة التوقف الليلى يتم اعداد الطعام : الأرز أو الكشرى وهو خليط من الأرز والحبوب الأخرى Pulse مع الصلصة والليمون المخلل ، وبين الحين والآخر يستعاض عنه بالضأن ولحم الماعز وهما عسرا الهضم •

وفى الثامنة مساء وصلنا الى « جا الشريفة » Ja-al Sharifah بعد مسيرة حوالى اثنين وعشرين ميلا • وكان محل توقفنا ملتقى للقوافل ٥٠° الى الجنوب الشرقى من المدينة (المنورة) وتعد الصق بنجد منها بالحجاز •

وفى الثالثة من صباح الخميس ، الأول من سبتمبر ، بدأنا المسير بمجرد سماع صوت اطلاق بندقية الرحيل ، فهدنا الخيام وحملنا الجمال وامتطينا ووجدنا أنفسنا نسرع فى ممر مظلم بين التلال لنتمكن من تهيئة مكان جيد فى القافلة • وهو هدف له بعض الأهمية فطوال الرحلة كلها يجب الا يختل نظام سير القافلة • وقد واجهنا بعض الحوادث غير الخطيرة كسقوط جمل واحتكاك شقدوف بآخر وكثير من السباب المتبادل • وقد

أسرعنا المسير باصرار وعناد حتى السادسة صباحا حيث خرجنا من هذا « الممر الأسود » ، وأشرقت الشمس بلونها القرمزى علينا فكشفت لنا خلال الضباب الأرجوانى – حصى أصفر خشنا على تربة يابسة مبيضة . ويتجمع فيها – على مساحة خمسة أميال عرضا واثنى عشر ميلا طولا – المياه من الأراضى المرتفعة ، بعد سقوط الأمطار ، وتنصرف المياه الزائدة عبر مخارج تتجه نحو الشمال الغربى ، وهذه المخارج عبارة عن فراغات بين تلال منخفضة حول المكان • ولما دخلنا هذا المكان ترجلنا عن دوابنا وصلينا وتناولنا افطارنا وشرعنا فى عبور هذا الموضع عرضا (سبق القول ان عرضه خمسة أميال) بعد نصف ساعة من الراحة • لقد كان منظر القافلة أثناء عبور هذه المنطقة مضطربا فسطح الخبط Khabt (بتسكين الباء) أملس زلج (٥) •

لقد عاينت بعينى – على الأقل سبعة آلاف ما بين راجل وراكب خيلا فى شقاديف أو مستمتع بركوب جمال سوريا الفاخرة • وكان ثمة طبقات من الحجاج • أدناها ، تمثل حجاجا يتوكأون على عصى غلاظ ويلى ذلك حجاج يمتطون حميرا ، وبعدهم من يمتطون جمالا وبغالا ، أما المحترمون من البدو فيركبون جمالا على كل منها جل (بضم الجيم) ويعتلى الجنود صهوات الجياد ، وقد هيئت دواب المقدمة لتلائم الشيوخ (النبلاء) الذين يمتطونها • ويجلس أفراد أكثر الطبقات فقرا من النساء والأطفال والمعاقين فوق « حمل مسطح a Haml Musattah » وهو عبارة عن أسمال وقماش مفروش فوق صندوقين كبيرين يمثلان حمل بعير • ويشغل كثيرون شبريات (المفرد شبريه) ،وقليلون يشغلون شقاديف (أو شجاديف) ولا يركب التختروان الذى يحمله جمل أو بغل الا الأثرياء والنبلاء (ربما يقصد الأشراف أو ذوى المكانة) • وسقطت أشعة الصباح البهيجة على الأسلحة اللامعة التى تحيط بالمحمل الذى نزع غطاؤه ، كما سقطت فوق عربات النبلاء القرمزية والمذهبة • لقد كان التباين مثيرا للانتباه فليس من رجل يلبس كجاره وليس من جمل مزين ، وليس من حصان فى هيئته المعتادة • ولا أغرب من التناقض ، فالتكروريين (التكارنة) أنصاف العراة يمشون مع عربة الباشا ، ومن يحيطون بها من سياس وخدم ، والفرس ذوو اللحى وأغطية الرأس العالية يتناقشون مع الأتراك حليقى اللحى ولابسى الطرابيش •

---

(٥) الخبط هو السهل المنخفض ، اما « الميدان » و « الفيحاء » و « السهل » فتطلق على السهل بشكل عام • اما « البطحا Batha" فتطلق على مسطح رملى منخفض – (بيرتون) •

كان السهل – حتى فى الساعات الباكرة – غاصا بالضباب الذى جعلته رياح السموم يتساقط ، وعلى أية حال ، ففى حوالى الظهيرة أصبح الجو غائما ولم يبق لشىء لون خلا ضباب أبيض حليبى باهت ، ولكنه – مع ذلك – ساطع ، ويسود هذا اللون جاعلا للنهار طعما خاصا فى هذه المناطق • وفى منتصف النهار وصلنا لمضيق (لمكان ضيق) فى هذا المنخفض (الحوض) اذ يمتد نتوءان صخريان على جانبيه (٦) ولكن بعد نصف ميل عاد فاتسع مرة أخرى واتجه للأعلى واستمر كذلك لميلين • وفى الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الجمعة الثانى من سبتمبر استدرنا نحو الجنوب الغربى وانحدرنا لأرض صخرية ووجدنا أنفسنا بعد ساعة فى مسطح صخرى منعزل يبعد عن محطتنا الأخيرة – بطريق ملتو بشكل غير معتاد – حوالى أربعة وعشرين ميلا • وتقع محطة غراب Mahattah Ghurab عند ١٠° الى الجنوب الغربى من « جا الشريفة » على حدود الحجاز ، بين تلال كثيرة غير منتظمة ، حيث تبدأ هضبة نجد •

وبعد أن نصبنا الخيمة أخذنا استعدادنا للتزود بالماء ، لأن « مسعود » نبهنى الى أن الجمال لم تشرب منذ تسعين ساعة وأنها قد تهوى من العطش • وذهب الولد محمد راكبا جملا مع الشيخ ومعهم كثير من القرب مما أتاح لى الفرصة لكتابة يومياتى ، ولم يعودا الا بعد حلول الليل بسبب كثير من المغامرات خاضاها • لقد كانت الآبار فى المسيل على بعد حوالى ميلين من مكان توقفنا ، وكان العساكر النظاميون وغير النظاميين يحيطون بالآبار ويبتزون عنوة بعض المبالغ لقاء الماء • وخاض الولد محمد فى شجار كثير ، لكن بعد أن طقطق مسدسه فوق رأس حاج فارسى عاد منتصرا بقربتين من الماء العذب لقاء عشرة قروش • وكان فى الغاية من الرضا والفخر فقد كان فى القافلة كثيرون من أهل مكة من بينهم أخوه الكبير ، وشلة من أصدقائه ، وقال الولد محمد ان الشريف زيد أرسل ليسأل عن سبب عدم سفره مع أهل بلده • وفى هذا المساء شرب كثيرا من السمن وأكل تمرا مهروسا فى العجين (فطائر العجوة) بكميات هائلة فبدا فى الليل على وشك اسلام الروح •

وأمضينا ساعة أو ساعتين فى سعادة قبل النوم • لقد بدأت أحب الشيخ مسعود الذى أمتعنى بالحديث عن نسبه ومعاركه وأمور عائلته • ولم تخف بقية جماعتنا استياءها عندما سمعونى أوجه أسئلة متتابعة عن السيول والتلال والبدو وأماكن المواضع • فقال الرجل العجوز : « دع أبو

---

(٦) المصطلح المحلى : عرقان : مفرد عرق Irk (المترجم) •

الشوارب يسأل ويتعلم • انه صديق البدو ويعرف أكثر منكم جميعا » • وكاد بتأنيبه هذا أن يكون موجعا مما يجعل قول الشاعر ينطبق عليه :

كل المغفلين يتلهفون على السخرية من الآخرين

وقد يكونون هم أنفسهم محط السخرية •

وعلى أية حال فقد حشدوا طائفة من النكات الساخرة فقد ظن الساخرون – من خلال لقبى – أننى أنتمى الى الرجل الخطير (٧) سعود الوهابى (السلفى) •

وفى يوم السبت الموافق للثالث من سبتمبر ، أيقظنا صوت بندقية الانطلاق الكريه فى الساعة الواحدة صباحا • ولا شىء أشد كراهة لدى العرب من السرية Sariyah أو السفر ليلا مع أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قد أوصى بالسفر فى الدلجه Daljah وهى الظلام المبكر لأن الحيات والحيوانات الضارة لا تظهر ليلا • ولا أجد الكلمات المعبرة عن الفزع الذى اعترى الناس من السفر الطويل ليلا ، كما أنه يضيع على الأوروبى فرصة رؤية المنطقة ، ما أبشع أن يضطر المرء لركوب جمل مرهق يمشى الهوينى ! • أما نوم النهار فهو بدوره نوع من الخمول والكسل اذ لا يستطيع المرء أن ينام نوما حقيقيا ، كما لا يستطيع الانسان أن يحتفظ بشهيته فى الساعات الحارة •

وفى الساعة الخامسة والنصف صباحا – دخلنا حوضا (سهلا) واسعا يبلغ عرضه ستة أميال على الأقل ، تحده دائرة من التلال – وذلك بعد أن سرنا باضطراب سيرا غير نشيط • لقد كان هذا الحوض مكسوا بعشب الجمال وأشجار الآكاسيا (أشجار الشتم Shittim) ولم تكن غضة تماما وانما تبدو مجرد نباتات محنطة • وتبدو آثار الماء فى مواضع كثيرة • والأرض هنا وهناك قد كسيت برقائق من الطمى كبقايا برك ماء جفت حديثا • وبعد ساعة من السير السريع رحنا نكدح فوق حيد (بتسكين الياء) وعر يتكون من كتل صخرية من بازلت وجفاء البراكين متناثرة ومهشمة وقد تكومت معا فى أشكال غريبة ، نبتت فيها هنا وهناك أشجار شوكية ، وأمضى الشيخ مسعود الوقت جيئة وذهابا بحذاء جماله وهو يوجهنا قائلا : « خليكم قدام » (جدام) عند صعودنا ، « وخليكم ورا » عند هبوطنا • وكان مثيرا للدهشة أن نرى الدواب تخطو من صخرة الى أخرى بحكمة سكان الجبال ، فترى الدابة تقدر بقدميها الأماميتين قبل الخطو

---

(٧) النص : المهرطق المثير Pestilent heretic، وما كان سعود مهرطقا أو مرتدا وانما كان داعيا سلفيا له أهداف سياسية واصلاحية – (المترجم) •

موضعها فلم يسقط جمل لا هنا ولا عند أى حيد (بتسكين الياء) آخر • ولكنها — على أية حال — كانت تصدر أصواتا كالعويل تدعو للشفقة عند انحناء الممر انحناء مفاجئا يسبب لها الارباك ، لقد كان الارتفاع المفاجىء مسببا للألم ، أما المنحدرات فكانت أشد ايلاما • لقد كانت الصخور حادة كما كانت بين كتلها حفر عميقة ، وفى بعض الأحيان كانت أشجار الأكاسيا (الشوكية) تحتك بالشقدوف فتفزع المفاجأة الحمال سيىء الحظ وتهز تماسكه وتزعـزع قبضته عما يتشبث به ، فهذا الممر له شـأنه بالنهار فما البال بالليل ، لن أنسى ذلك ، ولن أصفه •

ولما هبطنا من هذا الحيد (أو هذه الحافة) دخلنا حوضا آخر — من حصى وطمى — تحفه التلال وفى أماكن كثيرة نجد البازلت فى أكوام ، كما نجد طبقات متفتتة من الشست الهورنبلندى (خام من سليكات الكالسيوم والمغنسيوم والحديد) تجعل طرق الحيد (الحافة) تميل الى الخضرة دون أن تتسبب الشمس والأمطار فى اسودادها • وفى العاشرة والنصف وجدنا أنفسنا فى منطقة الأكاسيا القاحلة وهى من الأشياء التى يرهبها الحجاج • فالشقاديف تحتك بشدة بظهور الجمال وان سقطت تهشمت على الأرض الصلبة ، والدواب تثنى ركبها ، ويضطرب صف القافلة ، وتتعكر أمزجة الجميع ، فيتعارك المسلم مع أخيه • لقد كان الطريق محفوفا من ناحية الشمال بجدار من بازلت أسود كأنه جدار حديدى • وعند الظهر وصلنا لحيد (حافة) آخر ثم هبطنا لحوض (سهل محاط بالتلال) ثان •

والهواء هنا معبـأ بأعمدة الرمال التى وصفهـا بروس فى رحلتـه الحبشية وصفا حيا نابضا • لقد اندفعت على جناحى الزوبعـة (دوامة الريح) فوق السهل — أعمدة ضخمة صفراء لها رءوس سامقة تنثنى للأفق الى الخلف متخذة شكل السحب ، وفى أكثر من مرة سقطت الجمال بفعل هذه الأعمدة الرملية • انها تحتاج لقليل من الخيال لتدخل ضمن خرافات العرب ، فهم يفترضون أن أعمدة الرمال هذه هى جن الخرائب لا يمكن الامساك بها ، وقد تولدت هذه الفكرة من الحركات المتشنجة لهذه الرياح الدوامية الكهربية التى تطيح بهم (أو ترفعهم raises them) ، ويمد المسلم التقى أصبعه — بمجرد ظهـور هذه الدوامات — ويهتف قائـلا : « حديد ! انه نذير نحس » (٨) •

وخلال فترة ما قبل الظهر أزعجتنا رياح السموم التى جففت جلودنا وكنا نتوقع أن نكون غارقين فى العرق ، ويشكو العرب مر الشكوى من

---

(٨) حتى العوام من أهل اوربا يسمونها « شياطين » — (بيرتون) •

ضراوتها فى هذه الطريق • وقد أدركت هنا للمرة الأولى معنى تحمل البدو للظمأ • انهم يهتفون بين الحين والآخر « يا لطيف !! » ومع هذا يتصرفون كرجال • وقد طلبت منهم أن يجعلوا جمل الماء (الجمل الذى يحمل الماء) فى المقدمة لاحكام المراقبة عليه • ولم يكن الشيخ مسعود وابنه يترددان على القرب للشرب الا فى أوقات محدودة ، أما ابن أخيه – وكان قصيرا نحيلا به آثار الجدرى يقترب من الثانية عشرة ، ويدل جلده الأسود وشعره الصوفى أنه نصف أفريقى ومن أصل غير نبيل – فكان يتردد على القرب دائما للشرب ولا يكف الا عندما يركب الجمل ويغفو فوق حمله – هنالك – فقط – ينسى عطشه ، وعبثا أمرنا له ، وتوبيخنا اياه فقد كان يشرب دوما وينام دوما ، ولا يعمل أبدا •

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر عبرنا مسيلا ، وبعد ذلك بساعة تابعنا المسير فى مسيل آخـر ، وأسمى مسعود هذا الوادى (المسيل) بوادى الخنق Khunahk وأكد لى أنه يسير من الشرق والجنوب الشرقى الى الشمال والشمال الغربى ويصل الى سهل المدينة (المنورة) ، وبعد الظهر بقليل وصلنا مسطحا صغيرا على جانب المسيل تقع وراءه أرض صخرية يسمونها المحجـر Mahjar وهى سوداء – كما هو معتـاد فى الحجاز – ويمتد الطريق على طولها شاحبا متربا عليه رمال نقلتها أخفاف الابل • ولكوننا وصلنا قبل الباشا فلم نكن نعرف أين ننصب خيامنا ، وكان من رأى كثيرين أن القافلة ستتجاوز المحجر وتعسكر وراءه • وعلى أية حال فاننا سرعان ما توقفنا ونصبنا خيامنا تحت الشمس المحرقة وحذا الآخرون حذونا وأسـمى مسـعود هذا المكان بالحجرية Hijriyah • ووفقا لحساباتى فان هذا الموضع يقع على بعد خمسة وعشرين ميلا من غراب Ghurab والى الجنوب الشرقى باثنتين وعشرين درجة • وبعد الظهر بوقت متأخر بدأ الولد محمد فى جلب الماء من أعلى المسيل ، فهنا توجد بعض الآبار لازالت تسمى آبار هارون نسبة للخليفة العظيم ، وسرعان ما عاد الفتى بقربتين مليئتين لقاء تسعة قروش • لقد كان اليوم يوافق ٢٨ ذى القعدة لذا فقد شـغل حجاج كثيرون أنفسهم – عبثا – لرؤيـة الهلال • لقد فشلوا فى رؤيته ، لكننا كنا نغرى أنفسنا برؤية سحابة كثيفة تنزل حملها المبارك – من خلال فرجة فى التلال الغربية ، اذن فسيكون الليل باردا •

وفى يوم السبت الموافق للرابع من سبتمبر تلكأنا فى الحجيرة رغم أن الشيخ مسعود حذرنا مسبقا من السير الطويل ، ففى هذه القوافل الكبيرة ثمة نوع من النظام ، فصوت طلقة البندقية الأولى يعنى أن نطوى خيامنا ، أما الطلقة الثانية فتعنى أن نتحرك على وجه السرعة •

وثمة فترات راحة أو توقف تستغرق فى كل مرة نصف ساعة أو ساعة : فى الفجر وفى الظهر وفى العصر وفى المغرب ، لأداء الصلاة ، ويتم الاعلان عن التوقف باطلاق طلقة من بندقية قديمة الطراز أو مدفع • وأثناء توقفنا فى استراحات قصيرة يقوم الخدم السوريون والفرس بنصب خيام كبيرة خضراء فى أعاليها أهلة مذهبة ـ ليقيم فيها علية القوم وحريمهم • ويهرع هؤلاء الفراشون أو ناصبو الخيام فى محطة التوقف الأخيرة لحجز أفضل مكان فى الموقع بالقرب من البئر • وتعرف القافلة الموقع عند اطلاق النار من ثلاث بنادق ، وأثناء تحرك القافلة ليلا فان انطلاق المدفع يعنى التوقف للراحة ، على فترات متباعدة وغير متساوية ثلاث مرات أو أربع • وأهم المسئولين فى القافلة هم : أمير الحج ، واسمه اشجار (٩) على باشا (؟) Ashgar Ali وهو محارب قديم كان رفاقى يتحدثون عنه همسا ، لأنه كان عبد عبد (أى عبدا مملوكا لعبد) (١٠) وربما شغل وظيفة « حامل الشيشة » لأحد النبلاء الذى كان بدوره « حامل شيشة » لنبيل آخر • ويلى « أمير الحج » فى المرتبة « الوكيل » ويتولى الأمور التنفيذية ، أما « أمير الصرة » فيطلق عليه الناس ببساطة « الصرة » ويحمل معه الأموال والتحويلات الخاصة بالمدينتين المقدستين ، وأخيرا هناك « باشا العسكر » ويتبعه حوالى ألف من الخيالة غير النظاميين والباش بوزوق Bash-Busuk وهم أنصاف لصوص ، وأنصاف عسكر ، يلبس كل واحد منهم كما يحلو له ويتسلح بما يروق له ، قذرين فى الغاية من القذارة ، يستحق منظرهم أن يسجل فى لوحات فنية ، وهم شجعان ، ولا فائدة منهم ـ البتة ـ فى منطقة كالحجاز •

ولما غادرنا الحجيرة فى السابعة صباحا مررنا فوق مساحة حجرية مؤذية من خلال ممر متعب وكريه ، وفى الساعة التاسعة اندفعنا فى مسيل عريض يجرى من الشرق الى الشمال الغربى • لقد كان بطنه مغطى بالرمال التى تنمو بها أشجار الأكاسيا ، ونبات السنا Senna وأنواع مختلفة من نباتات الفربيون (١١) المدرة لسائل أبيض كاللبن وأشجار الدوم • وقد

---

(٩) لعله : اشغر (؟) ـ (المترجم) •

(١٠) مملوكا لمملوك وهو وضع عادى فى النظام المملوكى الذى ظلت بقاياه حتى وقت متأخر ـ (المترجم) •

(١١) عن معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية :

Euphorbia the Spnrges :

من أصل يونانى ويسميه العرب أيضا اليتوع (بفتح الياء وضم التاء) واليتوع (بفتح التاء وتشديدها وضم الياء وتشديدها) وهى من السريانية ، وتسمى بعض أنواعها (الحلاب) بتشديد اللام ، وبعض أنواعه (شبرم) بضم الشين وتسكين الباء ••• الخ• (المترجم) •

ظللنا مسافرين فى هذه المنطقة (فى خط السير هذا) طوال النهار ، وفى حوالى الثالثة بعد الظهر وصلنا الى حوض (واد) يبلغ عرضه – على الأقل – اثنى عشر ميلا تنصرف اليه مياه التلال القريبة فيتشربها . لقد كان وصفى كما لو كنت أرى ذلك السراب المعتاد ، فثمة خط طويل من طفح ملحى يظهر فى السهل أسفل منا على مسافة ، وعندما غشت ظلال الليل البصر ، تعرضت لخداع السراب تماما (١٢) وحتى العرب اختلفوا فى الرأى فالبعض ظنه بقايا ماء من أمطار هطلت بالأمس ، أما الآخرون فكانوا أكثر دقة فقالوا انه سراب . ويقال ان الدواب لا يخدعها السراب ، وهو قول صحيح وفقا لتجاربى ، وربما لا يكون السبب أن معظمها تعرف اقتراب الماء بحاسة الشم أكثر من معرفتها اياه بحاسة النظر ! ، وعند الأفق خلف السهل ظهرت كتل من صخور معتمة كأنها قلعة ، وقد أخطأت فظننتها مبانى ، وكان رأى الشيخ أكثر بساطة فقد نبهنى أننا نقترب من مكان آهل بالسكان . وأخيرا هبطنا تلا شديد الانحدار وسرنا فى أرض مستوية واكتشفنا خطأنا فقد نبهتنا أخفاف الجمال بأصوات الطحن (السحن) التى صدرت عنها – بأننا فى منطقة أرضها متجعدة (مكرمشة) من أملاح نتروجينية (بها نتروجين ثلاثى التكافؤ) فوق قشور من طين (١٣) ، وقد نبهتنا الحدآت والغربان – وهى طيور تحوم حول الأماكن الآهلة – الى قربنا من جماعات بشرية . وعلى أية حال ، فاننا لم ندخل حدود السويرقية قبل الساعة الحادية عشرة مساء . واتضحت لنا الحقيقة بتعثرنا وسقوطنا من فوق جمالنا فوق حيود (حواف) صغيرة من طمى جاف تحف الحقول . وكان ثمة عقبات أخرى كأسوار البساتين والآبار والزرائب ، ففى منتصف النهار وجدناها (هذه العوائق) تتوالى وتكثر قبل أن تصل جمالنا المرهقة لمكان استراحتنا . وقد سرى قول مؤداه أننا سنمكث هنا فى اليوم التالى مما جعلنا نتوقع المتاعب لكن اتضح – على أية حال – انه قول غير صحيح .

وخلال الأيام الثلاثة الأخيرة لاحظت – بوعى – وجه (سطح) المنطقة . ان هذا الطريق عبارة عن سلسلة من السهول والأحواض التى تتخذ أحيانا شكلا شبه دائرى وأحيانا شكل مستطيلات منتظمة تطوقها تلال نحتتها السيول أثناء نزولها من الأراضى الأكثر ارتفاعا ، وقد قسمت الأحواض – الحيود ومسطحات البازلت والأحجار الخضراء التى يبلغ ارتفاعها ما بين مائة قدم الى مائتى قدم . والشكل السائد هو شكل

---

(١٢) المقصود انه ظنه ماء – (المترجم) .

(١٣) يسمى العرب مثل هذه الاماكن (بحر ملح) ، وفى اماكن اخرى يسمونها بحر بلا ماء (بحر بلا ماى) – (بيرتون) .

الموشور الضخم Prism تشكل - أحيانا - قمته شكل المنضدة . ومن المدينة (المنورة) الى السويرقية تسود المسيلات ذوات القيعان الرملية ، ومن السويرقية للزريبة al-Zaribah تسود الغدران (جمع غدير Ghadir) ذوات الماء الراكد ، ويدخل المسافر فيما وراء الزريبة منطقة مجار مائية تتجه نحو الغرب والجنوب الغربى ، أما الانحدار - بشكل عام - فمن الشرق والجنوب الشرقى الى الغرب والشمال الغربى . ويمكن الحصول على الماء بالحفر ، وهو ماء جيد عندما يكون المطر قد هطل حديثا فى المسيل ،ويكون مالحا فى السهول مع أنه كان عذبا اذا جمع بعد المطر مباشرة ، ويكون مرا فى الأحواض والأراضى المنخفضة التى تتسم بطفح النترات اذ سرعان ما يفسد ماء المطر فيها . ولم أر أرضا قاحلة تماما ، كما لم أر أرضا أكثر خصوبة وغنية فى تكويناتها الأساسية والبركانية (١٤) . والتلال - خاصة نحو الجنوب - تتقطع فجأة وتتخذ شكلا عموديا وتكون لها جوانب قاحلة جعلتها الشقوق والصدوع والأخاديد مضلعة ، بينها جروف واسعة وهائلة ، وعلى قممها حصون كما لو كانت من عمل الانسان، وقد كانت التكوينات السائدة من البازلت تسمى حجار جهنم Hajar Jahannam وتبدو - هنا وهناك - مسامية ، وفى مواضع أخرى تبدو مدمجة (مضغوطة غير مسامية) وسوداء ، كما تكون أحيانا أخرى خشنة رملية ذات لون قطرانى (كلون القطران) ، وعند كسرها يتطاير منها شرار ، وينتشر معدن الهورنبلند - Hornblende فى المدينة (المنورة) وخلال هذه المنطقة من الحجاز : انه يظهر على جوانب الأرض أسود هشا . وتوجد أيضا الأحجار الخضراء والديوريت Diorite والأكتينوليت Actinolite ، لكنهما ليسا بنفس درجة توفر المواد السابقة ذكرها (الهورنبلند) أما الجرانيت الذى يسميه العرب الصوان Suwan فكثير وبعضه مشرب بلون قرنفلى أو أحمر ويظهر فى كتل كبيرة تعلوه رقائق هشة بتأثير المناخ ويكون جلاميد (جمع جلمود) تتجمع فى أكوام غير منتظمة . وصخور جرانيتية أخرى ذوات لون رمادى ومتماسكة بما فيه الكفاية بحيث تبدو صقيلة جدا عند قطعها . أما الصخر الأسوانى فخشن بشكل عام رغم أنه يوجد منه - أحيانا - ما يتسم بالتنوع والثراء ، ولم أر رخاما سماقيا الا قطعا صغيرة ويمكن أن يقال الشىء نفسه عن البتروسليكات Petrosilet والمرو (الكوارتز) الناعم الأبيض . وفى بعض الأماكن خاصة بين ينبع والمدينة (المنورة) يتوفر النايس

---

(١٤) لأننى لم أقرأ كثيرا فى الجيولوجيا فقد قدمت عينات من هذه التربة بعد عودتى الى بمباى لأحد الأصدقاء الفاهمين فى الجيولوجيا - (بيرتون) .

أو الصــخر الصــوانى Gneiss الأسمر المصفر فى طبقات . والتكوينات المنقــولة تتمثل فى الأحجــار الرملية الجيرية (كــذا) الجميلــة Calcareous Sandstone afin ذات لــون كلــون المغر (بفتــح الميم وتسكين الغين) وهو أكسيد الحديديك المائى الطبيعى ولونه أصفر أو أحمر فى العــادة - ويستخدمه أهــل مكة لتزيين البيوت من الخارج بادراجها بين أحجار البناء فى مواضع مختلفة هنا وهناك . وثمة قليل من الأحجار الرملية الخضراء من النوع الذى ينتشر فى عدن . أما التكوينات الثانوية فتتمثل فى أحجار جيرية جميلة تصلح فى بعض الأماكن لاستخدامها فى الطباعة الحجرية (حفر الكتابة عليه ثم طبعها بعد ذلك بعد مسحها بالأحبار) وجص (جبس) خشن غالبا ما يكون ذا طابع مسامى . ويمكننى أن أحيل القارىء للصحراء بين القاهرة والسويس لمزيد من المعلومات .

الفصل الخامس والعشرون

بدو الحجاز

أنساب العرب ـ التشكك فى سريان الدماء المصرية فى الرسول عليه السلام والرد على ذلك ـ العرب العاربة ـ العرب المستعربة ـ العرب المستعجمة ـ وصف البدو ـ الأصول العربية للأفارقة ـ اقباط مصر عرب ـ مناقشة الأصل الواحد للعرب ـ المرأة الحجازية ـ طبيعة الشجاعة العربية ـ مكانة المرأة عند المسلمين ـ آباء الكنيسة يقولون ان النساء كائنات بلا أرواح ـ غالية زوجة الزعيم السلفى (الوهابى) ـ الحب العذرى ـ لبيد ـ عنترة ـ قاضى العرب ـ الشعر العربى ـ الحرامى ـ الهبة ـ السلطان ولصوص الأراضى المقدسة ـ الموسيقا ـ العدالة ـ الداء والدواء ـ الكى والفصد ـ كلمة حرامى تحظى بالاحترام فى الحجاز ـ الدية ـ الخناجر والأسلحة ـ الملابس ـ العلاج ـ البشعة ـ الختان والسلخ ـ الجنائز والدفن ـ الأصحاب والكيمان والرفقة ـ قبائل الحجاز : فروع الأحامدة ، فروع بنى مسروح ٠

يمكن تقسيم العرب الى ثلاثة أقسام (١) ، وهو تقسيم يتفق مع علم الأنســـاب التاريخى ومع تراث المنطقة ومع ملاحظات الفســـيولوجيين المعاصرين (٢) ٠

---

(١) استخدم بيرتون races ، وآثرنا ترجمتها بالأقسام كما فى المتن ـ (المترجم) ٠

(٢) لم تصف التوراة سوى قوم نوح ولم تشر لأهل الجزيرة الأصليين ، ففى التـوراة نجـد : أ ـ أولاد Jottan (الحفيـد الكبير لســام) وهم العـراقيون (الميزوبوتاميون) الذين استقروا فى جنوب شبه الجزيرة العربية من الميشا Mesha (أو الموسا Musa أو مكه Meccah حتى سيفار (أو ظفار Zafar ؟!) ، وهو جبل الى الشرق ٠ ويقال انهم شغلوا الأرض من تهامة الى المهرة ٠ ب ـ أولاد اسماعيل من زوجته المصرية الذين استوطنوا فقط فى باران Paran فى شبه جزيرة ســيناء والمناطق المجاورة ، وقد القى الدكتور Aloys فى كتابه (حياة محمد ـ ص ١٨) شكا فلسفيا حول نسبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى اسماعيل ، ذاكرا أن منظر =

القسم الأول يمثل أهل البلاد الأصليين وهم قبائل من فروع قوقازية ، ربما لازال الانسان يلقاها فى منطقة المهرة Mahrah وعلى طول الساحل بين مسقط وحضرموت ـ بشكل عام • فالمهرة والجنبة Janabah والجارا Gara ، بشكل خاص ، تبدو قليلة التطور ولا يمكن تفسير ذلك بما يعانونه من شدة وحرمان فحسب (٣) • وهؤلاء هم العرب العاربة ، وبسبب تدنى مستواهم فان الخرافات الشرقية ـ كالعادة ـ تقدمهم من خلال السحر وصنع المعجزات •

= الرسول يوحى أنه قوقازى خالص لم تختلط دماؤه بأى دم مصرى (من زوجة اسماعيل المصرية) •

(المترجم : لاندرى من أين أتوا بهذا وهم لم يروا النبى ، وزواج سيدنا اسماعيل من هاجر المصرية رواية متواترة ومؤكدة فى كل السير) والأصل الاسماعيلى لكل العرب نظرية غير مقبولة • ومنذ سنوات لاحظ مؤرخنا العظيم أن بطليموس وبلنى Pliny قد استخدما كلمة Saracens وتعنى العرب بمعنى أكثر تحديدا ، بينما استخدمها Ammianus و Procopius بمفهوم عام وأكثر اتساعا ، وجعلوا الكلمة (اى Saracens مشتقة من سارة زوجة ابراهيم ـ وهو تفسير يدعو للسخرية » • وفى ملاحظة جيبون Gibbon ـ المفسر واسع المعرفة باحدى اللغات القديمة ـ العالم الدقيق بالكتاب المقدس الذى مسخ (حرف) سلوى البرارى quail of the wilderness الى « أوز احمر متورد "ruddy goose ـ يكتشف « المكر » و « روح الاستياء والعداء المرير » ضد الدين السماوى (دين الوحى) وانطلق من هذه الأرضية الراسخة ليهاجم دقة الراحل العظيم وأمانته وعلمه • وربما كان هذا حماسا مسيحيا لكنه ليس شهامة (فروسية) مسيحية وقد أصبحت « مودة » فى السنوات الأخيرة لكل طامح للشرف الاكليريكى (الكنسى) أن يوجه ضربة لروح جيبون • وكما لوحظ قبل ذلك فان السيد فوستر foster هاجم الرحالة بوركهارت بدون مبرر • وهذا يتناقض مع ما قاله اللورد Lindson من مدح واطراء فى ذكرى السويسرى الأمين ، كما يتناقض مع الاطراء الودود الذى أورده الدكتور Keith فى المجلة ربع السنوية (مجلد ٢٣) ويبدو من الحمق أن ندافع عن مؤرخ « السقوط والافول "Decline & fall ضد جامع الجغرافية التاريخية لشبه الجزيرة العربية • لكن المستشرقين العالميين قد عبروا عن دهشتهم عند ظهور « صوت اسرائيل (يعقوب) من جبل سيناء » ووجود الهند فى « اليونان » فى القرن التاسع عشر ، فلابد أن يخبرهم احد أن كل طلابنا الشرقيين ليسوا أنصارا لمثل هذه الأوهام (الخرافات) التى عفا عليها الزمن •

(٣) يوصفون بأن لهم رؤوسا صغيرة وجباها منخفضة وانوفا غير سوية (مما يتناقض بشكل حاد مع الملامح اليهودية) وخطوطا غير منتظمة وجلودا سوداء ، أما بنيتهم فواهنة هزيلة • وبالنسبة لوصف الفسيولوجيين لهذا الجنس (القسم) فاننى أحيل القارىء لكتابات الدكتور كارتر Carter فى بمباى وهو المسئول الطبى لـ Palinurus عندما كان ضمن بعثة لمسح شرق شبه الجزيرة العربية • فقد استطاع من خلال وسائل الملاحظة العديدة أن يجد تشابها بين العناصر البدوية المتدنية =

والموجة البشرية الرئيسية هم النوحيون Noachians (نسبة الى عهد نوح عليه السلام) ويمثلون القبيلة الكلدانية العراقية القديمة التى دخلت شبه الجزيرة العربية فى حوالى سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد ، وراحت تزحف بهدوء وبالتدريج لتزيح أمامها أصحاب الأراضى الأصليين واستولوا على أفضل أراضى happier lands شبه الجزيرة العربية . وقبيلة عنزة الكبيرة والأسرات النجدية هم من هذا النوع (الجنس) فهم قوقازيون خالصون ، أمزجتهم حادة فى الغاية من العصبية .. وهؤلاء القادمون هم العرب المتعربة عند المؤرخين الشرقيين (٤) .

والأسرة الثالثة (القســـم الثالث) القديمة والنبيلة والتى تعود لسنة ١٩٠٠ ق.م . وتمثل فى التاريخ باسماعيل ولاتزال تشغل ما يسمى شبه جزيرة سيناء . وهؤلاء العرب ـ على أية حال ـ لا ينتشرون ـ ولم ينتشروا من قبل ـ خلف حدود الجبال ـ ولازالوا يحتفظون بعاداتهم البدائية وروح أجدادهم المتمردة غير القابلة للترويض . ويمكن تمييزهم باختلاطهم بالدم المصرى (٥) وباحتفاظهم بالخصـــائص القديمة للأسرة

= Lowest type والهنود المتوطنين ممثلين فى البيل Bhils وغيرهم من عناصر الجنجل Jungle . وهذا القول من رجل علم لا يعتمد على النظريات قد يدعم القول باختلاف أصول الأنساب العربية (ليس للعرب نسب واحد أو لا يعودون لأصول واحدة) ان حقيقة أن العرب من أصل واحد كانت موضع شك لمدة طويلة ، لكن عددا قليلا من الرحالة قد وجهوا انتباههم لهذا الموضوع منذ نظرية وليم جونز William Jones التى تقـول بالأصـل الهنـدى : اننى مقتنع انـه لا يوجـد فى شـــبه الجــزيرة العربية وجه عربى واحد يجمع « الملامح والتعبيرات » التى تمت الاشـارة اليها فى السطور السابقة واننى اتجرأ بان أوصى أن يكون هذا الموضوع مجـالا للملاحـظة (الدراسة) للاحقى (باحثى) المستقبل - (بيرتون) .

(٤) بالنسبة لهؤلاء العراقيين القدماء (الميزوبوتاميين) يوجد بينهم الآن كثير من الفروق المحلية . ورعايا الأسرات الحاكمة الأربع الحبشية والمسيحية الذين تبعوا يوسف اليهودى «Lord of thepit» هم اصل جماعة الاخدام Akhdam فى اليمن الحديثة . اما هجر Hujur اليمن وعمان فعناصر مخلطة لازالت اصولهم غير معروفة . وطبقة الابناء Ebna التى أشار لها ابن إسحق ينحدرون من اصلاب عساكر انوشروان العجم (الفرس) الذين طردوا الغازى الحبشى - (بيرتون) .

(٥) ذلك أن القبط أو المصريين القدماء كانوا عربا مهجنين فهم شعب مخـلط كالاحباش والجالا والصومال والكافير Kafir فهم عرب مطعمون بالعناصر الأفريقية الغالبة . ومن ثم فان الجنس النيلى تمثل فى ملامح زنجية وشعر صوفى ، ولذا فقد اعتبر ليو الافريقى الافارقة منحدرين من اصول عربية . والافكار المتداولة أن مصر كان يسكنها الاثيوبيون الذين ابيضت بشرهم تدريجيا بفضل اختلاطهم بالفرس وسـكان =

النيلية Nilotic family • والاسماعيليون (سلالة اسماعيل عليه السلام) أحد فروع الجنس القوقازى ويعرفون فى التاريخ بالعرب المستعربة وتعنى العرب المهجنين •

والاثنوجرافيا الشرقية ـ مثلها فى ذلك مثل معظم العلوم الشرقية ـ حافلة بالمصطلحات والمسميات والتقسيمات وقد نتج عن هذا قسم (جنس) رابع وهو العرب المستعجمة يتمثلون الآن فى سكان مكة على سبيل المثال •

والأوس والخزرج ـ القبيلتان الحميريتان (بكسر الحاء وتسكين الميم) اللتان هاجرتا للحجاز قد اختلطتا بالعماليق وجرهم Jurhum والـ Katirah وهى أيضا أجناس من اليمن ، وكذلك بالعبريين Hebrews الفرع الشمالى للعائلة السامية ـ ولدينا على ذلك براهين تاريخية عديدة • وقلما يشك أولئك الذين يعرفون أن الجنس (العرق) يظل ثابتا لا يتغير فى الصحراء ـ أن بدو الحجاز يحتفظون بنقاء دمائهم التى ورثوها عن أجدادهم (٦) •

= البحر المتوسط والشرق الأوسط median والاغريق والرومان • ومن هنا أيضا يمكن تصور الصلات أو العلاقة بين أثيوبيا من ناحية وكوش و Snsiana وخوزستان أو المناطق المحيطة بدجلة • وقد أشار فرجيل Virgil للعلاقة بين الغرب والأثيوبيين الشرقيين بقوله : "Usque Coloratos Nilus devexus ad Indos"

واستمر سترابو Strabo فى وصف أهل موريتانيا Mauritania باعتبارهم هنودا كانوا قد قدموا مع Hercules • ولا نستطيع الا أن نلاحظ أثر الهنود فى جنوب شبه الجزيرة العربية ، فاساطيرهم ـ كأسطورة العنقاء الذى يطير من الهند ليموت فى مصر مارا بشبه الجزيرة العربية مع Dwipa Sukhatra (Socotra) حيث يتخذ له مكان راحة وهو فى سفره هذا فى مكان ناء بالمنطقة الغربية • ورغم التباعد بين اللغتين السنسكريتية والعربية فهناك بعض التشابه وقد حاولت أثناء عملى فى السند أن أجمع الكلمات المتشابهة فى اللغتين فوجدت أن كلمة تور العربية هى كلمة Tora تورا بالفارسية وهى كلمة Taurus تورس اللاتينية مما يشير الى صلات قديمة ، الا أن الموضوع لازال فى حاجة الى تدخل العلوم الحديثة لشرحه وتوضيح ما غمض منه •

(٦) أسرات الأشراف مولعة بالتزاوج من الجوارى السود ، ولذلك فلا يتجلى فيهم النبل العربى (كرم المحتد) بدرجة كافية • وبعض الأشراف يتزوج من فتيات بدويات فيكون دمهم نقيا • وأسوأ ما فى نظام الأشراف هذا أنهم يفرضون على بناتهم العنوسة اذا لم يتزوجهن أشراف ، ولهذ النظام آثار ضارة فرغم أن العنوسة أو التبتل أو البقاء بدون زواج موجود فى الشرق بمعنى أن يكون مرادفا للعفة ، الا انه هنا نابع من معنى مرضى Morbid sense للشرف ، وينتشر القول أن الشريف يهين زوج ابنته بشكل يتم عن عدم السواء ، لكن كل العرب يدينون هذه التصرفات •

ولن أعتذر عن دخولى فى تفاصيل متعلقة بخصوصيات البدو (٧) فالتفاصيل الفيزيقية (الطبيعية) الدقيقة للبدو هى ما تعوز بشـــكل ملحوظ ما كتبه بروس وبوركهارت ٠

فطبع الحجازى لا يبعد عن الطبع العصبى الخالص بما يشير اليه ارتفاع الجبهة والشعر غير الكثيف ٠ وأحيانا تسود العناصر الصفراوية (المتشائمة) ونادرا ما نجد العناصر الدموية Sanguine ولم أر فيهم أبدا عناصر لمفاوية (كسولة) ، فللبدوى مراكز عصبية واسعة وعموده الفقرى منتظم حسن التكوين وكذلك مخه brain ، وهو تكوين يؤدى لطول العمر ٠ وقد أجاد بارتيما (٨) وصف لون البدوى بأنه « داكن أسدى dark leonine » فهو يختلف عن اللون الاسبانى الذى يتدرج الى لون الشيكولاته ، ويعزو الناس الاختلاف فى اللون الى السلالة أو الدم ٠ وجلد البدوى شديد جاف وسرعان ما يتجعد بفعل تعرضه للعوامل الطبيعية ٠ ونادرا ما يكون بينهم النوع الأصفر المنغولى رغم أننا لا نعدم هذا النوع فى المدن ، أما النوع الأبيض الشمسى Leucous فغير موجود ٠ ويخفف البدوى من شعره ان كان جعدا بتقصيره ويميل شعره للون البنى ٠ وصوت البدوى قوى وواضح لكنه أقرب الى الجهير منه الى الصوت الصادح وأبعد عن أن يكون عميقا وخفيضا rather barytone than bass ، وفى حالة الغضب يصبح صوته حادا يصك كصرخة الحيوان المتوحش ٠ ونظرة الزعيم منهم وقورة وحزينة حتى فى حالة التأمل (الاستغراق فى التفكير) والبدوى المحترم مغرور وعنيف ، أما البدوى من الطبقات الدنيا فله نظرة عنيفة نارية متطفلة غبية ٠ وليست هناك فروق كبيرة فى هذا المجال بين الرجال من القبيلة نفسها ٠ وهناك تنويعات مختلفة فى مظاهر

---

(٧) استخدمت كلمة البدو وفقا لما استقر الاستخدام الشعبى عليه رغم خطئه ، فكل المستشرقين يعرفون أن « البدو » هى جمع « بدوى » منسوبا الى اسماعيـل أو كصفة مشتقة من البادية وهى الصحراء ٠ لكن كلمة البدوى ليست محددة أو ليست كلمة جامعة مانعة ككلمة الترك التى تطلق على العثمانلى Osmanli أو كلمة الفلاح التى تعنى المصرى فانت تهين الرجل البدوى the wild man اذا اخطأت اسم عشيرته ونسبته لعشيرة دون عشيرته مكانة ، فعلى سبيل المثال لو انك قلت لبدوى من بنى حرب : يا حتايمى Ya Hitaymi فانه ينزع لك خنجره ـ (مختصر تعليق بيرتون) ٠

(٨) يقصد فارتيما الذى تسمى باسم الحاج يونس المصرى وزار مصر والحجـاز وغيرهما فى مطلع القرن ١٦ ، وقد صدرت ترجمة رحلته كاملة فى سلسلة الألف كتاب الثانى ـ (المترجم) ٠

التعبير بين المتحضرين ، أما فى الصحراء فليس ثمة اختلافات الا قليلا ·

وجمجمة (قحف) البدوى صغيرة وعالية وضيقة وأعلى الجمجمة يرتفع حتى المنطقة اليابسة (الصلبة) التى تبدو مرتفعة ، أما جانبا الرأس فمستويان ، أما الشعر (٩) فلتعرضه للهواء والرياح والأمطار نراهم يجعلونه فى قرون Kurun (١٠) ، لأن تركه خشنا مهوشا يكون فى هذه الحالة - أمرا غير طبيعى ، ويتركون هذه القرون لتتدلى على الصدر أو يحلقون شعورهم لتكون على هيئة شوشة Shushah أى يجعلون الشعر على هيئة قلنسوة ضيقة ، يكون شكلها متوحشا ، لا أكثر فى وحشية المنظر منها · أما الوجه فقد خلق ليكون بيضاويا طويلا لكن يعوزه اللحم وهذا يقلل من اتساقه · وجبهة البدوى عالية وعريضة ومسحوبة للخلف والجزء الأعلى منها متطور باعتدال لكن لا شىء أكثر دقة من جبينه الأسفل (الجانب الأسفل من جبينه) والتجاويف الأمامية بارزة تشير الى قوة بدنية وحيوية فى الشخصية ، والحفر الصدغية فى وجهه عميقة ، والعظام بارزة وعظام الوجنات (الأقواس الوجنية) المرتفعة مع طول الفكين وهزالهما Lantern-jaw - تعطيان - غالبا - للوجه مظهرا أقرب لمظهر الأموات · والحواجب طويلة كثة معقوفة منحنية ، ومعظم الكتاب الشعبيين تبعوا ما كتبه دى باج De page (١١) ، فيصفون عين العربى بأنها كبيرة متقدة سوداء ، فالواقع أن بدوى الحجاز بل والعرب عموما ، لهم عموما عيون صغيرة مستديرة عميقة وغير مستقرة ومتقدة تلحظ الأشياء

---

(٩) بسبب العادة البدوية الأصل فى غسل الشعر ببول الابل فان خشونة الشعر منتشرة على نحو ليس بالقليل ، ويستخدم بول الابل أيضا للعين وقد يستخدم كشراب منبه لما به من نشادر ، فبول الابل لا يعتبر نجسا تماما ، ويعتبر الزبد النقى وسيلة تجميل كدهان للشعر والجسد - (بيرتون) ·

(١٠) القرون قد تعنى بالانجليزية "Korns" ويجعل الاشراف عموما شعورهم فى حفه (بتشديد الفاء وفتحها) Haffa وهى ضفائر طويلة تتدلى على جانبى العنق ويكشط (يحلق) الشعر عرض اصبع خلف الرقبة وأعلى الجبهة - (بيرتون) ·

(١١) وصف هذا الرحالة العراقيين المحدثين (الميزوبوتاميين) والجنس الشمالى حيث اللحى الكثة - وهى ظاهرة غير معتادة عند العرب الخلص أو ذوى الدم النقى - وهذا يعنى أن العناصر الميزوبوتامية قد اختلطت بعناصر آسيا الوسطى · وفى الشمال - كما هو متوقع - نجد الجمال ذات وبر كثيف اما فى الحجاز والمناطق المنخفضة فى اليمن فليس للحيوانات وبر كثيف ، ويعزو العرب ذلك - كما نعزوه نحن - للحرارة التى تجعل الشعر او الوبر يتناقص - (بيرتون) ·

وتتفحصها جيدا وتنم عن شخصية حية · ولونها (أى العين) بنى داكن أو بنى مشرب بخضرة ، وبؤبؤها (انسانها) غالبا ما يكون منقطا ، وعادة زم (أو تغضين) الجلد تحت محجرى العينين ، وكذلك اغماض العينين نصف اغماض (اسبال الجفنين) لتحاشى الوهج - كل ذلك يؤدى الى تجعدات حول العينين ، وان كانت تجعدات مبتسرة أو غير غائرة · وثمة خاصية أخرى هى أنهم يفتحون عيونهم بشكل مفاجىء خاصة اذا اعترتهم دهشة · وهذا الملمح فى شخصياتهم بالاضافة الى ثبات نظرتهم (تركيز نظرتهم) يعطى انطباعا باتقاد حاد وحيوى فى شخصياتهم ، ويبين صرامتهم بينما المنطقة الضيقة بين محجرى العينين تدل على ذكاء لا مكر فيه · وكقاعدة عامة - على أية حال - فان تعبير وجه البدوى أقرب الى الوقار منه الى المكر والدهاء الذى عرف بين الجنس السامى · وثمة خطوط بالقرب من الفم على خلاف مع خطوط الجبهة (خطوط الصرامة) · أما آذانهم فكآذان الخيول العربية : صغيرة وحسنة التكوين محكمة فى ارتفاعاتها وانخفاضاتها · أما الأنف فواضحة صريحة معقوفة بلطف وفى بعض الأحيان تكون مستقيمة كالأنف الاغريقية تبدو من الزاوية الوجهية كبيرة بشكل مبالغ · وهى (الأنف) فى معظم أجزائها حسنة الخلقة ذات منخرين لطيفين · ويوجد تحتها حاجز (فاصل) ، وعند الغضب ينتفخ المنخران وكأنهما منخرا فرس دموية · وعلى أية حال رأيت غير قليل من ذوى الأنوف الفطساء · وثمة تجعيدات (أو ثلمات) عميقة تمتد على جانبى الأنف مما يدل على عدم استقرار الحالة الانفعالية ، فهم طورا وقورون وطورا مرحون · والفم غير منتظم فالشفاه اما شهوانية تشير الى فظاظة وينقصها التذوق واما أنها مجرد خط ، وفى الحالة الأخيرة (كون الشفاه مجرد خط) ليس هناك ما يدل على أى تطور غير ضرورى فى الجزء العلوى خاصة عندما يكون الفكان نحيلين جدا والذقن ضعيفة متراجعة · وعلى أية حال ، فالحالة الأخيرة تمثل بشكل عام تكوينا حسنا وقويا · أما الأسنان فبيضاء - كما هو معتاد بين الشرقيين - بل انها قصيرة وعريضة مما يشير لقوتها · وبعض القبائل تشذب شواربها وفقا « للسنة Sunnat » (١٢) أما الشافعية (أتباع المذهب الشافعى) فغالبا ما يحلقونها ، وكثيرون يجعلون شواربهم على النسق الفارسى فوق شفاههم ، أما اللحية فتتمثل فى ذراعين (خصلتين) من الشعر تنموان على الذقن بينما تكون السبلة Whisker (الجزء من اللحية الذى ينمو على الصدغين) التى

---

(١٢) السنة هى حلق الشوارب ، وبيرتون واهم بلا شك أو اختلط عليه الأمر - (المترجم)

يتحتم وجودها اما حليقة أو غير كثيفة ومتناثرة (شعرها متناثر أو منتشر فى غير نظام) ٠

وبدو الحجاز قصار القامة ، فاطوالهم كأطوال الهنود بالقرب من بمباى لكن الواحد منهم أثقل وزنا من صخرة متوسطة ٠ وكالمعتاد فى هذه المرحلة فان أطوال القامات تختلف اختلافا بسيطا ، فقلما ترى عملاقا ونادرا ما ترى قزما ٠ ولا يمكن أن يعيش طفل ضعيف فى ظلال الحياة البدوية ، ويقوم الكبح الاسبرطى (*) بالتقليل من التشوهات والعيوب الجسمية ٠ وشكل البنية مربع ومتماسك تماما ونادرا ما تكون الأطراف ممتلئة الا أنه فى فصل الربيع ـ عندما كثر الحليب ـ رأيت حالتين أو ثلاثا ، تتسم بالامتلاء الا أننى لا يمكن أن اصف أيا من هذه الحالات بالسمنة ٠ والرقبة عصبية (وترية) قوية ، والصدر عريض ، وقصبة الساق نحيلة والبطن ضامرة والساقان ـ رغم أنهما غير ممتلئتين ـ الا أنهما حسنتا التكوين ٠ خاصة اذا لم تتشوه الركبة والكاحل بسبب ركوب الخيول والجمال وغيرهما فى سن باكرة جدا ٠ ومقدمة قصبة الساق لا تتخذ شكل الخيارة كما فى العناصر الأفريقية ، والذراع دقيقة وعضـــلاتها كالأوتار ، أما الأيدى والأقدام فهما من ناحية الحجم ومدى الضعف يمثلان حلقة وسطى (حلقة انتقال) بين أوروبا والهند ٠ وكما لدى السلتيين Celt ، فاننا نجد ابهام اليد عند العرب طويلة بشكل ملحوظ ، اذ يمتد غالبا الى الحلقة الأولى من اصبع السبابة لذا فيمكن استخدامه للامساك بالأدوات وغيرها بشكل تام ، أما الكف فغير ممتلئة أيضا وعظامها صغيرة وتتسم بالمرونة ٠ والبدوى ببنيته الصغيرة النشيطة يمشى مشية سريعة نشيطة فلا هو يتكلف أو يرهق نفسه أثناء المشى ولا هو يشوه كاحله (رسغ قدمه) بقلب turn cut أصابع قدميه وفقا للقاعدة المضحكة (السخيفة) التى يتبعها البعض ، واكتاف البدوى ليست مغطاة كأكتاف ضابط التدريب العسكرى مما يجعل كل ثقل الجسم واقعا على عقب القدم (يقصد أن تكوين البدوى يعفيه من هذا العيب) فمشية البدوى ليس فيها ترهل : انه خفيف مرن ولا يعيبه الا شىء واحد فهو يمشى مختالا متبخترا فى بعض الأحيان ٠

هذا هو البدوى ، وهكذا كان لعصور مضت ، وقد احتفظ بنوعه الوطنى عن طريق التزاوج الداخلى (بين أفراد العنصر نفسه) فالرجل البرى (الهمجى) لم يكن يمنع بناته من الزواج بالغرباء لكنه كان يشترط

---

(١٣) بينما الابهام السكسونية سميكة قصيرة لا تصل فى طولها الا الى نصف العقلة الأولى للسبابة ـ (بيرتون) ٠

(*) اشارة الى أسلوب التربية القاسى الذى اتبعه أهل اسبرطة القديمة ، وهو عكس أسلوب التربية الأثينى ـ (المترجم) ٠

على زوج ابنته أن يقيم بين أفراد قبيلة زوجته ، وبذلك تكون حياته بين ظهرانيهم جذابة لفترة لكنها سرعان ما تصبح مرهقة مضجرة • لكن اذا اقترن أولاد العم لم تكن هناك نتائج سيئة ، ومن هنا فان لكل بدوى الحق أن يتزوج ابنة عمه فهو مقدم على الغريب لذلك فعبارة « بنت العم » هى تعبير مهذب يدل على « الزوجة » (١٤) • ويورد فسيولوجيونا حالة السانجر أزول Sangro Azul (؟) الاسبانية وحالات فى الحيوانات الدنيا للتدليل على أن التحلل أو الانحلال يتبع بالضرورة الانسال الداخلى breeding-in • وسواء أكانوا قد وضعوا نظريتهم بناء على حقائق غير كافية ، أو أن للحضارة وممارسة الحياة المصطنعة بعض التأثيرات الخاصة أو أن العرب يمثلون استثناء من هذه القاعدة • فالحقيقة التى ذكرتها عن العرب ، حقيقة متواترة يعرفها كل الرحالة الذين جابوا الشرق •

وبعد هذا الوصف المسهب سيلحظ القارىء بسعادة أننا نقترب من طرق موضوع شيق ، فأول سؤال يوجهه الناس للرحالة هو : « كيف تكون النساء فى البلاد التى زرتها ؟ » • والصدق يجبرنى أن أقرر أن نساء بدو الحجاز ، هن بلا شك جميلات عموما ، الا أن لبنى عامر Amur أن يتباهوا ببعض بناتهن الحسناوات رغم أنهن أقل جمالا من جميلات نجد ذوات النهود العاليات ، الا أننى أحذر كل الرجال أنهم اذا هرعوا للحجاز بحثا عن الوجه الجذاب الذى يظهر فى كتاب رسومى (اسكتشاتى) عن « الفتاة البدوية » فقد يخيب أملهم فلباسهن عربى (بدوى) لكنهن يلبسنه بطريقة الغرب العفريتية (١٥) ، وعيون البدوية متقدة وملامحها حادة ووجهها مهزول ، ككل وجوه الناس فى الجنوب ، فهى سرعان ما تذوى ذابلة ، واذا كبرت سنها غدا وجهها وجه حيزبون حقيقية • فالشمطاوات الهزيلات يكثرن فى الخيام بينما يرى المرء قليلا من الرجال طاعنى السن ،

---

(١٤) كراهة ذكر اسم الزوجة موجود ايضا فى بعض مناطق جنوب أوربا وربما كان هذا بدافع الغيرة أو تأثيرا آسيويا ••• ويتحدث المالطى عن زوجته كما لو كان يتحدث عن شىء مزعج أو كريه ••• الخ ـ (مختصر تعليق بيرتون) •

وفى بعض المجتمعات العربية يكنى عن ذكر الزوجة بعبارات على شاكلة : « الجماعة » أو « الاولاد » أو « اهل البيت » أو « أم الاولاد » أو « أم العيال » أو « الحرمة ـ بضم الحاء » وهذا شائع فى صعيد مصر وريفها ، ويضاف لهذا : « الحاجة أو الحجية أو المرة » فى شبه الجزيرة العربية ، وبطبيعة الحال فان المثقفين يشيرون لها « بالمدام » أو « الزوجة » أو حتى بالاسم المباشر ـ (المترجم) •

(١٥) النص : By afairy of the west •

فالسيف والشمس أمران حاسمان كالقدر « للعمر الأخضر المديد ، تحول بينه وبين الدمار (الهرم) » •

وطباع البدو متحررة بسيطة ، فالتكلف والتظاهر والارتباك الناشىء عن الوفرة - كلها عوامل تمثل أعشابا ضارة فى النمو الحضارى - وهى أمور غير معروفة فى الصحراء • مع أن طباعهم - فى بعض الأحيان - يفسدها التكلف • فاذا تقابل صديقان فهما اما يتعانقان أو يتصافحان ، ويضغط كل واحد منهما على جبهة الآخر أو يحرك كل واحد منهما رأسه من جانب لآخر ، ويظلان - فى هذه الأثناء - لدقائق يستفسر الواحد منهما من الآخر ، ويسمع الاجابة • انه من قلة اللياقة حتى أثناء تناول الطعام أن تعطى ظهرك لشخص ، واذا فعل البدوى ذلك فانه يقصد الاهانة • وعندما يعد رجل القهوة فانه يشرب الفنجان الأول ، وكذلك الأمر بالنسبة لشربات القاجار Sharbat Kajari فى فارس والسليمانى Sulaymani فى مصر (١٦) • وعندما يقترب صديق من الخيام - يهتف من رأوه باسمه ، ويهرولون لتحيته حاملين رماحهم أو بنادقهم • أما الغرباء فلا يقتربون من الخيام (المضارب) خوفا من تعرضهم للترويع • واطلاق النار تحية للضيوف معروف بلعب البارود La'ab al Barut والبدوى - عموما - مهذب فى لغته وحديثه لكنه اذا غضب انطلقت من فمه قذائف كطلقات الرصاص ضد خصومه أو مجادليه ممثلة أقذع الشتائم والنعوت : ياكلب ، ياسكير ، ياكذاب ، ياكافر •

وأفضل صفات البدوى هى حقيقة طبعه النبيل المتمثل فى تصميمه وكياسته وكرمه • وعادة ما يكون طبعه مزاجا من المكر الدنيوى والبساطة الشديدة ، والحساسية والروح الراضية والدماثة ، كل هذا مع وقار وشغف بالفكاهة تأسره الابتسامة والكلمة الطيبة وهو سمح لين العريكة اذا طلبت وده ، وكما أنه حقود نزاع للانتقام اذا آذيته •

وسيتساءل القارىء كبعض النقاد الفكهين : كيف تقوم دعائم المجتمع على مثل هذه النوعيات • أولا : انه نوع من مجتمعات الأسود حيث يحصل الأكثر شراسة والأقوى والأكثر براعة على مكان الصدارة ويتبوأ مركز

---

(١٦) شربات القاجار Sharbat Kajari نسبة الى الأسرة الحاكمة الآن فى فارس • ويقال انها خليط من الزنجار (صدأ النحاس) والحليب ، وان كانت كذلك فهى أداة همجية لخدمة سياسة الدولة ، وفى مصر والموصل فان السليمانى (وهو الاسم الذى يطلق على الأفغان عامة) يستخدم فى تهيئة السم ••• لكننى أعلم أن ضفاف النيل غير مشهورة فى استخدام السم ، ويقال ان محمد على قد جلب الى مصر خبراء سموم من أوربا - (بيرتون) •

السيادة الكاملة على أتباعه ، وهذه القاعدة تمثل حجر الزاوية فى المجتمع البدوى • ثانيا : هناك اضطرابات ثأرية ، وثالثا : رغم وجود الشريعة المستمدة من القرآن (الكريم) الا أنها لا تراعى فى الصحراء (١٧) لذا فقد وجد فى مقابلها النظام العتيد المعروف بقاضى العرب Kazi-al-Arab وهو نظام صارم •

ان بسالة البدوى ليست دائمة كما أنها غير مؤكدة • فالانسان بطبعه حيوان يحب الغنيمة ويتعلم من خلال علاقات المجتمع المتشابكة ، لكنه مستعد للعودة لعاداته القديمة • فالميل للضراوة والتعطش للدماء تتقدم خطوة فى الصحراء ، وفى الوقت نفسه فان طيش الحضارة وتهورها غير معروف هنا ، فالمتوحشون وأنصاف البرابرة دائما حذرون فهم لايملكون الا حياتهم وأطرافهم • أما الرجل المتحضر ، فهو ـ على العكس ـ لديه مئات الاحتياجات والآمال والأغراض لا يكون للحياة طعم بدونها • وأفكار العرب عن الشجاعة لا تستهوينا ، فقصصهم الأسطورى ملىء بالأعمال البطولية الطائشة والأعمال المستحيلة التى قد تلفت النظر لفترة ، لكنها لا تكون مقياسا لشعب مقاتل حقا ، فالجنس الشجاع حقا لا يعجب بقاطع الطريق الحذر الذى يطلق النار من وكره الآمن فوق الجبل على القوافل الآمنة • والحروب العربية ـ أيضـــا ـ ما هى الا سلسلة من المناوشات حيث يتراجع خمسمائة رجل بمجرد قتل اثنى عشر رجلا منهم • وفى مثـــل هذه الحـــرب (حرب الحراب Partisan-fighting) يحقق النصر من سبق فى اسقاط عدد من القتلى فى صفوف خصمه ، ويفر المهزوم ويظل موليا الأدبار حتى يداريه الليل • ثم يأتى دور العويل ، وسخرية النساء وتوبيخهم (للمهزوم) والقسم بأغلظ الايمان ، والشعر الفحل ، والدعوة للثأر ، وقد ينتهى كل هذا بهروب الطرف الذى أحرز النصر سابقا بعد أن تحيق به الهزيمة • وعند عقد صلح السلام ، يقوم كل طرف من الطرفين المتحـــاربين باحصـــاء موتاه ويتم دفع الـــدية blood-money من كل طرف للطرف الآخر • وعلى أية حال ، فان الثأر يبقى قائما ـ بشكل عام ـ ويظل الطرفان خائفين منه ، ويتم دعوة بعض الشـــيوخ ذوى الحيثية كشريف مكة لابرام شروط الصلح الذى لا يتعدى أن يكون هدنة • وبعد استتباب السلام لشهور قلائل قد تؤدى نظرة أو كلمة لسفك الدماء ، اذ تتفجر الأحقاد القديمة نتيجة الخلافات الحديثة •

---

(١٧) اضاف بيرتون : لانها غير كافية لحكم الصحراء Being insufficient for the desert وهو قول غير صحيح لان هذه الشريعة نزلت أول ما نزلت فى الصحراء ـ (المترجم) •

فالبدو ليسوا جبناء رغم تفاهة معاركهم هذه فقد بلد جهازهم العصبى تعرضهم الدائم لأخطار الغارات ، والثارات والتعرض الدائم لاحتمالات فقدان الحياة ، والصحراء ، والمطاردة والحياة القاسية والتعرض الدائم للهواء وغيره من التأثيرات المناخية · كما أن توفر السلاح والتدرب عليه وبراعتهم فى الرماية وركـــوب الخيل ، كل ذلك عودهم على مواجهة الموت ـ كرجال ـ وجها لوجه · والدوافع الحيوية ستجعل منهم أبطالا · ويقال ان الانجليزى يحارب رغبة فى الحرية ، وجيراننـــا (الأوربيين) يحاربون رغبة فى العظمة ، والأسبان يحاربون أو يحاربون (بفتح الراء) لأسباب دينية ، أما الأيرلندى فيحارب للحرب ذاتها · (لان الحرب تمثل بالنسبة له بهجة أو فكاهة) أما العربى فهو يسحب سيفه لاحراز كسب ، أو ثأرا وانتقاما · وحتى فى هذه الحالة فانه يستخدمه بشكل تشنجى متقطع دون بسالة مبهجة كما يفعل الفرنسى وبدون مثابرة متواصلة كما يفعل الأنجلو سكسون · فلكى يقاتل البدوى قتال يائس لابد أن تواجهه بما يثير كل ما يكمن فيه من تعصب ورغبة فى الدفاع عن شرفه ، فهو قادر على القيام بأى عمل مجنون اذا تعرضت نساؤه لمكروه أو أصبح عرضة لوسمه بالجبن (١٨) ويؤدى التمسك الشديد بأهداب الدين الى خلق وفاء لا ينفد يملأ روحه لا يمكن وصفه بأنه مجرد حماس · فتاريخ البدو يظر لنا هذه الحقيقة بوضوح · وقد أخطأ بعض الرحالة غير الدقيقين ـ حقا ـ فهم حذر البدوى الشديد ، فعدوه جبنا شديدا · والواقع أنه يمكن للشخص الفاهم لمبادىء الحروب البدوية وأسسها أن يستوعب التناقض ؛ فبين البدو ـ كما هو بين الهنود الحمر ـ يمكن لحالة موت واحدة أن تذهب بريق النصر · ورغم الطيش والتهور اللذان يتبديان عندما تكون مشاعرهم ملتهبة ورغم الاستهانة بالخطر اذا دعاهم داعى الشرف ، فانهم لا يضحون بأنفسهم اذا حركتهم دوافع بسيطة أو هينة · والى جانب ذلك فلديهم ـ كما سبق القول ـ دوافع أو بواعث أكثر فعالية ليحتاطوا ويكونوا حذرين · واذا حل السلام تعين عليهم أن يدفعوا ثمنه ·

وثمة شيئان يخففان من شراسة الحياة البدوية · فهناك ـ فى المقام الأول ـ العلاقات مع أهل المدن الذين يزورون بشكل متتابع أصحاب الخيام السوداء ليتركوا أطفالهم أمانة لديهم ، وفى المقام الثانى ـ الوضع الاجتماعى للنساء · وقد أكد الراحل شارلز روبرتسون Robertson

---

(١٨) فى معركة Bissel ، عندما هزم محمد على الاربعين الف مقاتل الذين كان يقودهم فيصل بن سعود (الوهابى) عثر على كل مقاتلى قبيلة بنى عسير مقتولين وقد ربطت أرجلهم بالحبال معـا ·

مؤلف عدة « محاضرات فى الشعر موجهة للرجال العاملين » أن الشفقة أو العطف تصبح حبا بفعل التأثيرات المسيحية وأن فكرة الأم العذراء تسود على الجنس ، وتلك طهارة لا يعرفها الشعر أو فلسفة اليونان وروما » ·

واذا تجاوزنا عن تأليه ايروس Eros (اله الحرب عند الاغريق) وخلود بسيشة Psyche (الأميرة فائقة الفتنة التى عشقها كيوبيد) والأم العذراء – رموز الطهارة الخلقية – والتى شاعت فى كل العقائد القديمة والمادية – فاننى أعتقد أن كل القبائل العريقة المتبربرة لديها هذه المبادىء نفسها · وعلى هذا فان علينا أن نتوقع أن نجد – حيث يكون الهوى والغرام والخيال والمثالية عناصر قوية – بعض آثار الوجدان أو العاطفة الملازمتين للفطرة فى المجتمعات (التنظيمات) البشرية · يقول كاتلن Catlin اننا لانعدم شيئا كهذا بين هنود أمريكا الشمالية وحتى بين الجالا Gallas والصومال فى أفريقيا · لكن عندما تصبح الجماعات المتبربرة نصف متبربرة كما هو الحال فى معظم الشعوب الشرقية ، وكما هو الحال فيما قدمه لنا المؤلفون الكلاسيون من اليونانيين والرومان – نجد أن درجة المرأة تتدنى من مكانها العالى فى المجتمع لتصبح مجرد أداة للمتعة والترفيه ، وفى المرحلة التالية أو المرحلة الحضارية ترتفع مكانتها أو درجتها مرة أخرى لتصبح مخلوقا عالى القيمة وليست مجرد دمية للعبث بها ·

وقد زارت الآنسة مارتيمو Martimeau الحريم أثناء رحلتها فى مصر ، وقد وجدت – من بين أشياء أخرى – ما يشين جنسها ، كما روت ما يحز فى القلب وعقدت الآنسة المثقفة مقارنات قوية بين الحريم ، وبعض مواطن (مراكز) الرذيلة فى أوروبا ·

ومن ناحية أخرى نجد أن الرحالة الرجال يتحدثون حديث المحب عن الحريم فى الشرق ، فنحن نجد سونينى Sonnini ، وهو ليس من المعجبين بمصر ، يحدثنا باسهاب عن العفة والطهارة ، ومثل الشهامة ومشاعر الغيرة واللطف التى تشكل جميعا نسيجا متلاحما منسجما مع الجاذبية فى حريم المماليك ·

وكما هى العادة فان حقيقة الأمر تمثل النظرة المعتدلة التى هى عوان بين الرأيين اللذين يمثلان الطرفين النقيضين، فالطبيعة البشرية فى كل أنحاء العالم واحدة لا تختلف الا فى الدرجة ·. فالنساء فى كل مكان قد يكن حولات قلبات (بتشديد اللام) خمولات فى مواجهة الأزمات العامة ، لكنهن عند الحاجة يبدين بطولة متفانية · فأى مؤرخ للحرب الأفغانية سيكون

شاهدا على أن القلوب الدافئة والمشاعر النبيلة والشـــفقة على الفقراء والمساكين والتعساء ـ كل هذه المشاعر توجد حتى بين الحريم • وأوروبا تعرف الآن أن الزوج المسلم يقدم لكل زوجة من زوجاته محل اقامة مستقلا ووسائل معيشة لا تشاركها فيها الزوجات الأخريات ، الا اذا كانت احدى الزوجات عجوزا والأخريات صبيات ، وهذا يحدث فى بعض الأحيان • ومع الاعتراف بأن تعدد الزوجات يولد الحسد والبغضاء والمكر ، الا أن المسلمين يتساءلون : أيخلو الزواج بزوجة واحدة من العيوب ؟! وفى حدود ملاحظاتى القاصرة فان تعدد الزوجات هو الحالة الوحيدة فى المجتمع التى يكون فيها الصراع والغيرة حول الجنس هما الاستثناء وليس القاعدة فى الحياة •

وبحكم عملى كطبيب فقد سمعت كثيرا عن الحريم لكننى لم أر الا قليلا • فالبيت العربى يشبه البيت الأوروبى اذ يتكون من الرجل وزوجته وأمـــه ، وقد رأيت فى الغرب كثيرا من « الحيـــاة البيتية السعيدة » (١٩) تجعل الآنســة مارتيمو Martimeau حزينة أكثر من حزنها على أية معيشة للحريم فى القاهرة العظيمة •

ولم يحدث أن كان الباس العلاقات الجنسية طابعا روحيا بفيض من المشاعر والنزوع للخيال ـ اتجاها عالميا بين الطبقات العليا أو النظم الأكثر رقيا فالأمر كما قال فولتير :

« المشاعر السامية مجرد غطاء للرغبات البشرية الحقيقية » •

واننى أميل لارجاع أصــل فكرة « الحب love » لتأثير الشعر العربى والفروسية العربية على الفكر الأوروبى ، أكثر من ميلى لارجاعها لمسيحية العصـور الوسـطى ، فلابد لنا أن نتذكر أن آباء الكنيسة كانوا يعتقدون أن النساء مخلوقات لا أرواح لهن ، ولم يحدث أن ذهب المسلمون أبدا الى هذا الحد •

ففى الحياة البدوية تتلاقى القبائل غالبا لفترة من الزمن فتتعايش معا طالما استمر العشب والكلأ ، ثم تنفصل القبائل ويرحل أفرادها وقد لا يلتقون لجيل كامل ، وفى ظل هذه الظروف فان قلوب الشبان الذين تأسر العذارى قلوبهم ، قد لا يتمكنون من الزواج بهن بحـكم الأعراف القبلية والعشـــائرية ، ومن هنا تحلق أرواح الشـبان لديار العذارى المحبوبات (٢٠) • وتفرض الظروف على العاشق العربى أن يواجه كل

---

(١٩) يقصد التعيسة ، والسخرية واضحة ـ (المترجم) •

(٢٠) استشهد بيرتون هنا بشعر ايطالى :
"Perduto e tuttoil tempo che in a mor non si spende".

الأخطار ويتحمل كل النتائج ، فالقول بأن « أناسا ماتوا وأكلهم الدود ، لكن ذلك لم يكن بسبب الحب » هو قول قد يكون صحيحا فى الغرب ، لكنه كلام فارغ فى الشرق ، فالعشق وليس الطموح هو محور أى قصة أو رواية • ولا شىء يمكن أن يكون أكثر حدة ، وأكثر اثارة للخيال من حيث اضفاء صفات بشرية وعواطف بشرية على الجمادات ـ من هذه الاستخدامات التى قدمها الشعراء العرب •

ومن يتابع معلقة لبيد فسيجد أفكارا فى الغاية من الحزن وفى الغاية من النبل لدرجة أن الشاعر المثقف الدكتور كارليل Carlyle لا يجرؤ على الزعم بأنها غير بليغة أو غير جذابة (٢١) •

فشاعر الحرب الملحمى يعود من بعيد • انه ينظر لأطلال الديار التى لا زالت بقاياها متناثرة فى الصحراء ، فتذكره الأطلال بأحبائه وأصدقائه فيهتف مناديا وتذوب مشاعره فى ذكرى رحيلهم ويطلق العنان لخياله ، ثم يتقوى على الذكرى بتذكر تجول نوار Nawara وكيف غادرته وتخلت عن التفكير فيه • ويمعن النظر فى الأطلال نافد الصبر ، تلك الأطلال التى تحمل ذكراها ، وقد دفعه رحيلها الى استبدال حبها بحب غير حقيقى ، والبحث عن أصدقاء ، لم يكونوا كأصدقائه القدامى ، بل كانوا غير حقيقيين ، ولقد بدأ بعيره السريع يجرى خببا وهو يحمله ، وبدا كأنه يجد سلوى فى خببه من هجران النساء وخيانتهن • ومع هذا فلم يكن الشاعر بمستطيع نسيان اسم نوار وذكراها • ومرة أخرى يمعن النظر بشوق لبقايا السعادة الغابرة ويروح مفتخرا بشجاعته وأصالة محتده وكرمه وهى صفات تقربه اليها • وينهى معلقته (ملحمته) بمدح عشيرته كما يفعل النبيل العربى ويضفى عليها كل الفضائل • هذه هى قرية جولد سميث Gold Smith المنعزلة فى الحجاز • ولكن العربى يمتلك مشاعر فياضة ولغة قوية وعمقا فى الأحاسيس بحيث لا يمكن للشـاعر الأيرلندى مجاراته •

وكما لاحظ مؤلف حرب شبه الجزيرة Peninsular War فأحسن الملاحظـة ـ فان النسـاء فى فترات الاضطرابات يطرحن ضـعفهن المعتاد وعبثهن ، ليصبحن شقائق الرجال ، يساعدنه وهو يعمل ، وينطبق هذا على الحياة الرعوية فهنا ، نجد الجنس الأضعف يسمو بنفسه فيتحلى

---

(٢١) اشارة لشعر لبيد :

أو لم تكن تدرى نوار أننى ... وصال عقد حبائل جذامها

تراك أمكنـة اذا لم أرضها ... أو يعتلق بعض النفوس حمامها

(المترجم) •

بالشجاعة البدنية والخلقية وبهذا يعالج ضعفه وما يعتوره من قصور . وفى الأيام الباكرة للاسلام شهد التاريخ نساء مجاهدات - هذا ان كان التاريخ صادقا . وخلال القرن الأخير فان غالية Ghaliyah زوجة الزعيم السلفى (الوهابى) واجهت محمد على نفسه فى كثير من الوقائع الدامية . ومنذ سنوات قلائل عندما قتل الجنرال التركى كردى عثمان شيخ زبيد ابن عاصم Asm المعروف بابن رومى غدرا ، أصرت أخته وكانت فتاة شابة على الثأر له فترصدت له فى يوم عرفة فى موسم الحج وتنكرت فى ثوب رجل وتلثمت بكوفيتها (غطرتها) لتخفى نصف وجهها ، لكن التركى لم يكن - على أية حال - حاضرا ، وحققت الفتاة لنفسها شهرة محلية مساوية لشهرة عذراء سلامانكا Salamanca . لهذا فمن المعلوم أن العربى يقسم - قسما غليظا قائلا « بشرف نسائى ! » . ولا يخلو الأمر عند البدو من حب أفلاطونى ويسمونه الهوى (أو العشق) العذرى (٢٢) . انهم يضعون خطا رقيقا بين Amant والعشق Amoureaux . ويسخر أهل المدن من هذا .

وقد وجدنا البدوى يمارس التجوال (أو الارتحال) التماسا للفروسية منذ أزمنة بعيدة فى التاريخ العربى ، ويقول مؤلف كتاب الهلال والصليب « Crescent & the Cross » ان أشعار عنترة Antar لا يتجلى فيها الا القليل من روح الفروسية . فماذا يفهم القارىء من مشاعر كتلك ؟ : فعنترة المولع بالجنس اللطيف يلاحظ الرجل الشجاع وهو يدافع عن شرف امرأة . ونقرأ فى موضع آخر أن فى « سيده كل صفات الشرف والنبل » ومرة أخرى نجده يقول « أى فخر فى أسر امرأة حرة » « لا تحمل حقدا يا شيبوب » هكذا قال البطل ، واستطرد « فالمكر لا يأتى بخير » . فليس ثمة عظمة فى هذه المشاعر التى يبديها عنترة ! « فالمولد هو مجال فخر الكسولين العاطلين » . فالنبل الحقيقى يكمن فى شاب ينفض كل مرض ، ويتدرع بدرعه لا يبالى بحر الظهيرة ، ويثقب ظلام الليل غير هياب « ثم لماذا عشق فارس الفرسان عبلة ؟ لقد عشقها لأنها مشرقة كشمس ، وشعرها أسود كالليل والجنة تكمن فى عينيها ، وصدرها ناهد فاتن ، وقوامها كشجرة الطرفاء هبت عليها نسائم نجد ! » هذا صحيح ، ولكن هناك أسبابا أخرى تكمن فى اخلاصها وطهارتها ، ودفء مشاعرها . لقد كان جمال بدنها ووجهها بالاضافة لخلقها الطيب هو السبب الذى جعلها أمل البطل عنترة ، وجعلها سمعه وعينه ، وباختصار دعنى أسمعك قول عنترة :

---

(٢٢) جعل له بيرتون مقابلا انجليزيا Pardonable Love وهو خطأ واضح ، فهو - أى هذا النوع من العشق - منسوب لقبيلة معروفة - (المترجم) .

« العشق يدفع للعلا

باثارة كل نوازع الفروسية فى الانسان » (٢٣) ٠

وتعترينى الدهشة لرؤية رحالة أذكياء كثيرين يسيئون الحكم على العرب بعد تجربة سطحية مع عدد قليل من السوريين المنحطين أو عدد غير كاف من سكان شبه جزيرة سيناء ٠ وسيدى اللورد لندساى Lindsay لا يرى أن سلالة عنتره يمتازون بالرقة أو الكياسة ٠

وفى أيام الجاهلية ، كان من عادة البدو عندما تتوهج عواطفهم بسبب الانفعال الذى يبدو وكأنه يهاجمهم ، على هيئة فكرة تستحوذ على مشاعرهم استحواذا كاملا ، لأعوام طويلة فتدفعهم للهفة والشوق والنواح والرحيل والتجوال ، وتدفعهم للقيام بأخطر الأعمال لافراغ شحنة عواطفهم فيها ٠ وعندما أسلم أهل شبه الجزيرة العربية تحولت دوافعهم المحركة للرغبة فى القيام بأخطر الأعمال الى نشاطهم فى مجال الدعوة للاسلام ٠

فالخليفة الرابع كان معروفا عنه سفره البعيد ، ونصرة المظلوم ، ومعاقبة الظالم وهداية الكفار ، وحمايته ـ بالذات ـ للنساء ـ وتلك هى الغايات الرئيسية للفروسية ٠ وعندما سمع الخليفة المعتصم فى مجلسه أن « البيزنطيين البرابرة » فى عمورية سجنوا امرأة مسلمة من الأشراف ، وأنها صرخت مستنجدة عندما ضربها البيزنطى « وا معتصماه » وأن البيزنطى قال لها هازئا « انتظريه حتى يأتيك على جواده المطهم » ـ هب المعتصم واقفا وقذف بكأس الخمر من يده وأقسم لينجدنها (أقسم أن يقوم بدوره الفروسى) وفى اليوم التالى توجه الى عمورية بسبعين ألف فارس ، ولما دخل عمودية قال : « لبيك يا أختاه » وضرب رأس الوغد الخسيس وأطلق سراح السيدة بيديه ، ثم أمر الساقى باحضار زجاجة خمر لم تفتح بعد ، وفضها وشرب منها وهو يقول : « الآن يصبح مذاق الخمر جيدا » ٠

ولننه هذا الجزء من الموضوع بمثال آخر مشهور : نذكر أن المتنبى الشاعر الملهم ومقاتل حام (؟) Warrior of Ham (؟) (٣٥٤ هـ) عندما بدأ مع ابنه رحلتهما الأخيرة ، اقترح الأب (المتنبى) البحث عن مكان آمن لقضاء الليل فيه ، فقال عبده مندهشا :

---

(٢٣) لم نعثر فى معلقة عنترة المعروفة على بيت بهذا المعنى ، وربما كان المقصود :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ... ان كنت جاهلة بما لم تعلمى ...
اذ لا أزال على رحالة سابح ... نهد تعاوده الكماة مكلم

٠٠٠٠ الخ ـ (المترجم) ٠

ألست المتنبى ؟ ألست القائل :

الليـل والخيـل والبيداء تعرفنى

والسيف والضيف والقرطاس والقلم

فكان جواب الشاعر أن نام على شاطىء دجلة فى مكان غاص باللصوص ، وكبر عليه أن ينجو بنفسه هاربا ، ففقد حياته فى ساعات الليل ٠

فهذا يدل على وجود « الفروسية » فى أحفاد عنترة ، تلك الفروسية التى جعلت مجتمع البدو مجتمعا مبهجا للرحالة من أمثال الدكتور فالن Wallin (الذى تسمى باسم الحاج والى) يفهمه ويفهمونه ٠ انه مجتمع « الأجلاف النبلاء » (٢٤) ٠ فلا شىء أكثر سذاجة من عويله ونواحه (د٠ فالن) عندما وجد نفسه بين جماعة تافهة من الفرس أو بين جماعة من العرب من أهل المدن ، فراح يقارن بشكل حاد بين عقولهم « الوسخة الجبانة » « وروح الفروسية والسمو لأبناء الصحراء الحقيقيين » ٠ فدليلك البدوى سيحميك بسيفه ورمحه اذا تعرضت لخطر ـ حتى من أفراد عشيرته ـ وهو ـ فى الوقت نفسه يتوقع منك أن تفعل الشىء نفسه اذا واجه هو خطرا ٠ وقد تقدم لشخص مأوى الا أنه يجب عليك ألا تضيع وقتا فى ابداء سيفك له ٠ فاذا تورطت فى نزاع مع عدد كبير تجد أنك ضائع بينهم لكثرتهم ، فما عليك الا أن توجه حديثك لأحد كبار السن فيهم قائلا : « دخيلك يا شيخ » أى أنا فى حماك يا سيدى ـ عندئذ فانه سيدخل المعركة الى جانبك بكل طاقته أكثر مما لو كانت معركته هو ٠ لكن لماذا نضرب مزيدا من الأمثلة ٠

ان لغة الحب والحرب والحماسة هى الشعر ، وفى هذا المضمار ـ مرة أخرى ـ يتفوق البدوى ٠ ويشكو المسافرون والرحالة من أن البدائيين (البدو) قد توقفوا عن الغناء ، وهذا صحيح اذا كان المقصود أن الشعر قد أصبح قصرا على عدد محدود من الشعراء أصبح وجودهم فى كل مكان يعتمد على توفر وقائع الكرم أو الأحداث السياسية (التى تلهب قرائحهم) ، فلغة العرب المميزة وطريقتهم فى صياغة الألفاظ وتعبيراتهم المفعمة بالخيال ، كل ذلك يجعلهم قادرين على التعبير شعرا عن أقوى المشاعر ، فمن المؤكد أن العربى (البدوى) يشتعل ذكاء وخيالا

---

(٢٤) النص عن دكتور فالن Wallin فيما يبدو :
("damned saints" perchance, and honourable villians).

وحيوية وعاطفة وهى أمور كافية للعقل والحكم ٠٠ انها المشـاعر التى قادت عربة أبوللو (٢٥) ٠

ورغم أن البدو لم يعودوا يفخرون بلبيد أو ميسـونه Maysunah الا أنهم ما زالوا مولعين بشعرائهم الملحميين أو القبليين القدماء ٠ ويستقبل العرب الرجل البارع فى قراءة أشعار المتنبى والمعلقات استقبالا يفوق فى شرفه وبهائه استقبال أهل الحضارة لمليونير مسافر وتحفظ ذاكرة البدو كبار السن كثيرا من أغانى الحرب القديمة والحديثة ، وكثيرا من الحكايات الأسطورية وقصائد الحب القصيرة الصالحة للغناء ، وكلها أشعار وأغان جميلة مبهجة ٠

ولا أستطيع أن أجيد توضيح أثر الشعر العربى لشخص لم يسبق له أن زار الصحراء ، فبصرف النظر عن جزالة الكلمات وفخامتها وموسيقى الوزن ووقع الصوت فان الشعر العربى عامر بالأفكار الحالمة ، والضباب الرقيق الذى يكون غموضا سرمدى الجاذبية ، يعطى الموضوع الذى يتناوله تشويقا لا حد له يفوق الوصف ٠ فالوصف ـ حقا ـ يعطى روحا للأغنية (أو القصيدة) ذات المعانى العادية ، فالشاعر العربى ينظر للأشياء نظرا روحيا معنويا ويحدد الاطار العام الغامض للصورة ـ بحيث يتعين عـلى القارىء أن يملأ تفاصيل الصورة من عنده مسترشـدا فقط بقليل من اللمسات والايحاءات العظيمة البارزة بقوة ، وبالمشـاعر التى قصدت الصورة (المشهد) أن تعبر عنها ـ بينما نحن الأوربيين والمعاصرين ننتج صورا مصغرة لمشاهد ضخمة ، أو كثيرة بايرادنا لمسات دقيقة وتفصيلات كثيرة يستهلكها القارىء ، أو يستوعبها دون أن تثير فيه مشاعر أو تلهب خياله ٠ فاذا كان الشاعر خلاقا ، فان الشاعر العربى هو الشعر نفسه ، أما الشاعر الأوروبى فبارع فى الوصف الشعرى ٠ واللغة مثلها فى ذلك مثل الزوجة المخلصة تتبع العقل وتعطى مولودا وذرية ، وتصفو من الحشو واللدم الذى يفسد لغاتنا (ألسنتنا) المعاصرة ويعوقها عن الانطلاق ، وتترك غموضـا مبهما فى علاقة الكلمة بالكلمة مما يسـاعد فى اثارة العاطفة وشحذ الخيال فى القصيدة أكثر من التركيز على المعانى ٠ فعندما

---

(٢٥) للشعر العربى خصوبته التى تمنع مشاعرنا من الانصراف عن الفاكهة لزهور شجرتها ، بينما الشعر الأيرلندى غالبا ما يكون مجرد رصف للكلمات حيث لا معنى اقرأ معى :

"The diamond turrets of shedukiam and the fragrant bowers of Amberabed".

(موجز تعليق بيرتون) ٠

يكون للأفعال والأسماء ـ كل على حدة ـ كثير من المعانى المختلفة فان الفكرة العامة هى التى تفرض نفسها ٠ والمترادفات الخصبة والمختلفة التى توضح أدق ظلال المعنى تستخدم ببراعة متناهية ، أصبحت الآن مبعثرة متفرقة نجعل منها بالتحديد (بتحديد معانيها) وبصياغتها كما لو كانت نجمة تحيط بها الظلمة وتدور فى أفلاك ٠ ولننه هذا المبحث الموجز الذى قد ينتهى بنا الى غموض يمتد طويلا ، نذكر أنه يوجد فى اللهجة السامية (كذا) وفرة هائلة من الايقاعات والقوافى rhytme التى تساعد الشاعر فى اختيار التعبير الذى يريده ٠ لقد صدق اذن محمد الدميرى فى قوله : « ان الحكمة قد أشرقت فى أمور ثلاثة : عقول الفرنجة وأيدى الصينيين وألسنة العرب » ٠

ولا تزال كلمة حرامى Harami كلمة تحظى بالتوقير بين بدو الحجاز ٠ واذا قتل الرجل فى غارة أو غزوة قيل مات « غندورا Ghandur» أى شجاعا ٠ أما من مات فى مخدعه فان كنا نعتبره محظوظا فانهم يعتبرونه قد مات « فطيس Fatis » فستنوح عليه أمه قائلة « مات ابنى ميتة طائر ! » فتواسيها الشمطاوات الحاضرات بقولهن « انه أمر الله » ويقال عن اللهابه Lahabah وهم فخذ من عوف Auf بالقرب من رابغ Rabigh ان البنت منهم سترفض ـ حتى ابن عمها ـ وتأبى الزواج منه ما لم ينهب بعض الأشياء من قافلة الحجاج فى مواجهة حلقة الباشا ، وذلك اذا لم تتح له فرصة نهب أخرى ٠ وربما تعرض الذى ينتهك القانون ـ منذ عشرين عاما ـ للموت بالخازوق أما الآن فانه يهرب ، ومما يمنع تطبيق الاجراءات التركية الخوف من الثأر والخوف من قطع الطرق فى وجه المسافرين ، فالترك يغطون ضعفهم بالتظاهر بأن السلطان يتردد فى شن حرب ابادة ضد اللصوص فى الأراضى المقدسة ٠

ومن السهل أن نفهم هذا الاحترام الذى يحظى به قطاع الطرق واللصوص ، فأيما امرىء يثور ضد مجتمع لابد أن يكون له عقل حديدى iron mind فى جسد حديدى ، وهذا النوع من البشر يثير الاعجاب بشكل غريزى مع أن هذا النوع من البشر يبدد طاقته فى الاتجاه غير الصحيح ٠ وفى البلدان التى يتصف أهلها بالخيالية يعتبر قاطع الطريق بطلا ، بل ويسرى هذا على القاتل الذى يطلق النار على ضحيته وهو مختبىء وراء سياج ، وتغلف القصص الرومانسية معيشة القاتل أو قاطع الطريق وحيدا منعزلا بكثير من الجلال ، وان كانت له زوجة أو خليلة تضاعفت القصص الرومانسية وأمعنت فى رومانسيتها،أما الضرائب غير الشرعية التى يسرقها بوفرة من الأغنياء ليهبها للفقراء فتجعله يكسب تعاطف الناس ٠ ان الاسلوب البدوى الأصيل فى السلب يعطى اللص وعيا بالاستقامة الخلقية وذلك بما فيه من سمات شريفة متعددة وتصرفات كيسة ٠ فقاطع

الطريق يصرخ بقوة قائلا : « اخلع عباءتك وعمامتك يا رجل فابنة عمى (زوجتى) فى حاجة لهما » ولابد أنك ستطيع الأمر (ان كنت مضطرا لذلك) لتلبى حاجة الجنس اللطيف ، فهذا يدخل فى باب الأدب • واذا أنت أضفت بعض العبارات الاجبارية (الضرورية) للعصابة وقدمت على سبيل الاكرام فنجان قهوة وشيشة فستسترد نصف ثيابك (التى أخذوها منك) واذا كنت قادرا على الاستشهاد بقليل من الشعر فقد تصبح وسارقوك أصدقاء وربما لا تتخلى لهم الا عن صندلك (خفك) • لكنك اذا ترددت فى تقديم القهوة والشيشة أو غيرها ، وترددت فى اظهار الألم والخضوع اللازمين فاحتك ظهرك بعقب رمحه (أى رمح قاطع الطريق) ، فقد يخز برمحه وعندما يتبدى الدم يظهر الجانب الانسانى فيه • وبين البدو فان سرقة الفرس تسبب للمسلوب خزيا أبديا ، فالبدوى مستعد للتضحية بحياته ومستعد لمواجهة أعداد كبيرة من اللصوص وقطاع الطرق لكنه لا يسلم فرسه • فالمواجهة اليائسة تستفز شجاعة البدوى لتصل الى ذروتها وهذا أمر معروف تماما بين العرب من أهل المدن ، فالبدوى قادر على القيام بأعمال انتحارية فردية ضد أعداد كبيرة وهو فى ذلك كأبطال هوميروس الذين كان الواحد منهم يواجه أكثر من ثلاثمائة خصم •

وقد حذفت تفاصيل عن عادة الثأر لدى العرب فدية القتيل تساوى ٨٠٠ دولار (٢٠٠ جنيه) أو تطفيف هذا المبلغ باعطاء مقابل من الدواب بدلا منه • ويساعد كل الخمسة The Khamsah (؟) أو الأعمام وهم أقارب القاتل (من العصب) فى جمع المبلغ المطلوب • وفى هذه المناسبات يثور فى نفس البدوى صراع حاد بين عاطفتين : جشعه وحبه للمال من ناحية ورغبته فى الثأر أو الانتقام من ناحية أخرى • فصاحب الدم The avenger of blood (أو صاحب الثأر) ينتظر حتى يحين وقت قطع رقبة عدوه ، وفى الوقت نفسه هو يريد أن يهتبل الفرصة ليصبح غنيا ! فتنفتح شهيته لامتلاك ما للغير تماما كما تتوقد كل مشاعره الأخرى ، فلديه دائما مشروع لشراء بعير أو استثمار المال فى الأفراس الأصيلة • والنتيجة أنه يصبح نهما لا يشبع • ويظل يتلقى مال « الدية » وهو يحس بالخجل ، واذا كانت الدية (ثمن الدم) تقدم لامرأة عجوز فانها سوف تلقيها على الأرض ، وسوف تشحذ سكينها مقسمة بالله بأغلظ الايمان أنها لن تأكل من « دم ابنها » ـ ويلاحظ فى هذا الصدد أنهم صنف من البشر يختلف عنا اختلافا كبيرا •

ولا يعتبر البدوى نفسه رجلا حقا الا عندما يمتطى حصانه ويقبض على حربته بيده ويشترك فى غزوة أو معركة فيتغنى ببعض الأهازيج المرحة مثل :

جوادى ما فى الدنيا مثله ،
وسيفى صارم من معدن كله ،
وغير هذا ما له لزوم
ما يهمنى ـ ما على الأرض
ما يجعلنى « مهموم » ٠

وحتى عندما يمارس البدوى الرياضة فانه يحاكى ما يحدث فى الحرب محتفظا بالصفات الغريزية التى كبتتها الحضارة ، والبدوى رياضى يثير الاعجاب ، فالأطفال هم فى الواقع رجال صغار يبدءون فى ممارسة نظام رياضى بمجرد مقدرتهم على المشى فعندما قدمت بعض اللعب المصرية لطفل بدوى من جهينة (جهينى) قال : « ان أولادى يلعبون على ظهور الجمال » ، ويقضى الرجال أوقات فراغهم فى القنص ٠ مستعينين بالصقور وفى اطلاق النار وفى امتطاء الجمال أو الخيول ٠ والصقر ـ كما أخبرونى ـ الذى يستخدم فى الصيد من نوع مخصوص وهم يدربونه لملاحقة الغزال ، فى الوقت الذى ينهك فيه كلب الصيد السلوقى تعبا عند ملاحقتها ، وقد سمعت كثيرا عن مهارتهم الشديدة فى الرماية لكننى لم أر الا اطلاق نار من البنادق القديمة التى يثبتونها ويطلقونها على أهداف ثابتة ، وكان مستوى الرماية عاديا ٠ والبندقية ذات الماسورتين نادرة بينهم ، وسلاحهم الأساسى هو البندقية قديمة الطراز والبندقية ذات الفتيل والمسدسات ، والرماح (ذوات عصى من جريد النخل) والرماح المعتادة والسيوف والخناجر التى يسمى الواحد منها جنبية Jambiyah ؛ أما القوس والمقلاع فلم يعودا يستخدمان منذ فترة طويلة ٠ وترد البنادق الى هنا من مصر وسوريا وتركيا فالبدوى لا يستطيع صنعها وان كان يستطيع اصلاحها ٠ وهو يقدر بشكل خاص البندقية القديمة الجيدة ذات الماسورة التى يبلغ طولها سبعة أشبار ويحافظ عليها أكثر من حفاظه على عباءته ، لذا فان الأسرة غالبا ما تفخر بامتلاكها أربع بنادق أو خمس توارثتها جيلا بعد جيل ٠ ويتراوح ثمن البندقية من دولارين الى ستين دولارا ٠ ويجمع البدوى النترات Nitres ، ويصنع فحما نباتيا ممتازا ويستورد الكبريت من مصر والهند ، الا أن البارود المستخدم ـ على أية حال ـ ضعيف المفعول٠ وبالنسبة لصيد الأرانب البرية والطيور فانهم يجزئون قضيب الرصاص ليجعلوا منه قذائف صغيرة يشكلونها بالطرق ليجعلوها فى الحجم المناسب

وهم شغوفون بتدريبات اطلاق النار ومولعون بالرماية ـ كما يولع كل رجل فطن ـ على مسـافات قريبة ويبذلون قصارى جهدهم فى احكام التصويب وهم يراهنون ـ فى الرماية ـ على خروف ويقوم الخاسر بدعوة أصدقائه الى وليمة ، وفى المناسبات يسلقون رأس الخروف ويستخدمونها كهدف للرماية يحصل عليهـا من يصيبها (كهدف وجائزة) ويقال ان البارعين فى الرماية يصيبون كرة معلقة فى خيط ، وعلى أية حال فالغريب أن بـدو الحجاز ـ كما يحكى ـ لم يعرفوا اطـلاق النـار من فـوق ظهور الخيل وهى تعدو بأقصى سرعتها ـ الا حديثا ، مع أن هذا الفن معروف بشكل عام فى بلاد فارس وبلاد المغرب ٠

وقد وصلت المسدسات مؤخرا الى الحجاز لكن استخدامها غير شائع بين البدو ويميل أهل المدن لاقتنائها ويجلبونها من استانبول ٠ وفى الصحراء فان زوج المسدسات الجيدين ذوا الخزانتين المزودتين بصوان أو قداحة قد يساويان ثلاثين دولارا وهو ما يقابل عشرة أمثال ثمنهما فى انجلترا ٠

والرمح المسمى قناة Kanat يصنع من خيزران مستورد من الهند ، ويبلغ طوله اثنى عشر قدما على الأقل ويزود رأس الرمح الحديـدى ذو الرأس المستدق بخصلة أو خصلتين من ريش النعام تحشر بين الرأس والخيزرانة ٠ وبالاضافة للمزراق Mizrak أو رمح الجريدة فان لديهم رمحا يسمونه شلفة Shalfah وهو عبارة عن خيزرانة أو جريدة مزخرفة لها رأس فى عرض يد الانسان ٠

ولا تصنع سيوف جيدة بالحجاز فالخلوية Khalawiyah وغيرها من العشـائر الصحـراوية تقوم بصناعـة سيوف متدنيـة المسـتوى ٠ ويستوردون السيوف من مصر وفارس والهند ، لكنني لم أر سيوفا ذوات قيمة ٠

والدرقات Darakah أو التروس تجلب أيضا من الهند والمفترض أنها مصـنوعة من جلود الكركدن (وحيد القرن) المدبوغة ، وهى مذهبة ومحلاة بحليات نحاسية ٠ ولازال البدو فى المناطق النائية يستخدمون الدروع Diraa أو زرديـات (بتسكين الراء وكسر الدال) من ظهـور السلاحف ، يلبسها الفرسان فوق ستراتهم buff jackets .

أما الخناجر فتصنع فى اليمن وأماكن أخـرى وتختلف أشـكالها اختلافا كبيرا ، ولكل نوع منها ـ كالعادة ـ اسم خاص ٠ وهى معقوفة بشكل عام الا القليل منها (بينما الخناجر القدايمى Gadaymi اليمنيـة والحضرمية على شكل نصف دائرة غالبا) ولها مقابض خشبية وهى مستدقة

الأطراف وأغمادها (جمع غمد بكسر الغين) مصنوعة من المعدن نفسه الذى صنعت منه الخناجر وفوقه طبقة من النحاس • وتوجد حلية عند موضع استدارة الغمد ، وهذه الخناجر طويلة بحيث لا يستطيع من يحملها أن يهز ذراعه اليمنى وإذا دخل مكانا ضيقا تحتم عليه – بسبب طول الخنجر – أن يدخل بجنبه • لكن العرف جرى أن يظهر الرجل دائما حاملا خنجره وسلاحه كتماثيل الجنود الفرنسيين ، والخنجر أداة مفيدة بصرف النظر عن استخدامه الدموى فهو يستخدم فى قطع الخشب وقص العشب • ويتراوح سعره بين دولار واحد وثلاثين دولارا •

ويفخر البدوى كثيرا باللعب بالسيف (العرضة – بتسكين الراء وفتح الضاد) وإن كان من الواضح أنه يقيد نفسه لتلقى ضربات خطرة وأنه يقفز بعيدا عن الضربة المرتدة بدلا من تفاديها بالسيف أو الترس(٢٦)• وقد تعلم أهل المدن فى الحجاز اللعب بالسيوف التركية المعقوفة المزركشة زركشات مبالغة سخيفة – بشكل عام – تشبه الزركشات المستعملة فى شرق الهند • ولا أحد من الشرقيين استخدام « الهدف النقطى » the point التى تميز أعلى درجات فن السيافة (المثاقفة) •

وليس لدى بدو الحجاز ألعاب حظ ، ولا يجسر الواحد منهم على تخمير عصير الدوم Dawm palm (؟) كما يفعل أهل المناطق القريبة من عدن ونقل عنهم أهل اليمن ذلك • وموسيقى بدو الحجاز بدائية (غير متطورة)، وأهم أدوات موسيقاهم الطبل (الطبول) وهى على نوعين : الصغيرة وتستخدم فى الاحتفالات والمناسبات ، والكبيرة (توم توم) وتستخدم للأغراض الحربية وهى من نحاس مغطى بالجلد ويدق عليها بقبضة اليد لا بالعصا ، وبالاضافة لذلك فلديهم الربابة ذات الوتر الواحد (أو الجيتار) وهى آلة رتيبة مملة ، لكنها ذات جاذبية فى الصحراء وقد وصفت فى موضع غير هذا – رقصهم وهو من مستوى غير راق •

ولدى بدو الحجاز كل المعلومات الضرورية للحفاظ على ثراء الحياة البدوية • فهم بارعون فى استيلاد الخيول والجمال وتدريبها وبيعها ويعرفون معلومات فلكية كافية يسترشدون بها ليلا كما أنهم ملمون بأسماء

---

(٢٦) نظرا لتعرض هذه الفقرة لمصطلحات خاصة فانا نفضل ايرادها فى هذه الحاشية بنصها :

"... but it's apparently confined to delivering a tremedous slosh, and to Jumping away from the return — cut instead of parrying either with Sword or shield".

النجوم الرئيسية . وذاكرتهم المحلية (المامهم بالأحداث والوقائع المحلية) مدهشــة . ولهم موهبــة فى قص الأثر ويشيع القول أن عشيرة زبيــد Zubayd التى تعيش بين مكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) يعرف الرجل منها مكان وليد ناقته – التى شردت – وهو ابن اربع سنين من أثر خفيه . ويعرف البدو نوعا من البيطرة وأسلوبا بسيطا فى الجراحة وقد اكتسبوا هذه الخبرة بحكم تجاربهم وتنقلهم . وفى حالات الكسور والتمزق يقومون بوضع المراهم وربط موضع الكسر أو التمزق ويسقون المصاب حليب النوق والسمن حتى يشفى . أما الخدوش والجروح فيغسلونها جيدا ويرشونها بملح البارود (أو بالبــارود) (؟) meal gunpowder ويخيطونها . أما الجروح التى سببها اطلاق النار فيغطونها بلحم الابل . وفى حالــة عض الأفاعى أو لسع العقارب فانهم يشرحون الجرح بالموسى ويتلون الرقى ويغطونه بالثوم . والأثرياء منهم يستخدمون لذلك حجرا على هيئة حلقة (فس Fiss) مجلوب من الهند يستنزفون به السم وهم يرتلون الدعوات . ولدى قليلين منهــم تريــاق العراق Tariyak Al-Irak وهو مضاد قوى للسموم فى الشرق (يستخدم من الخارج ومن الداخل أيضا – بمعنى امكان ابتلاعه) ويلبس كل أفراد الطبقة الدنيا زعل اليمن أو حباس اليمن Za'al or Hibas of Al-Yaman وهو قطعتان من غزل (بتسكين الزاى) من صوف الغنم تربط حول الساق تحت الركبة وفوق الكاحل ، وفى حالة تعرض الشخص للعض أو اللدغ فانه يحكم الرباط فوق موضع اللدغة أو العضة وبذلك فان الزعل أو الحباس يقوم بدور الشريط الضاغط . وهذه الطــريقة فى الربط تستخدم أيضــا فى علاج المغص والتقلصات – وليس من علاج آخر له الا هذا . ومعلومات البدوى الطبية – على غير المعتاد – محدودة فى هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية فحتى أبسط أنواع العلاج غير مطلوبة هنا غالبــا فالناس يستيقظون مع الفجر ولا يأكلون حتى يجوعوا واذا أكلوا لم يشبعوا ويتنفسون دائما هواء الصحراء النقى وفى الليل تقوم جمالهم بدور نواقيس تحديد المواقيت . منشطهم السمن وعلاجهم الكى – حتى فى حالات الروماتيزم . والكى بالاضافة للفصد الذى يتم بطريقة متقنة – كما يفعل الايطاليون – حيث يتم نزف الدم من أصابع اليدين أو القدمين ومن أجزاء أخرى من الجسم – يعتبره العرب دواء لكل داء ويعالجون ســفع الشمس للجلد بالدهن والكبريت . أما القرح المنتشرة هنا فتعالج بالكى وينثرون عليها الزنجار (صدأ النحاس) وهذا لا يسرى بطبيعة الحال على القرحة المرعبة المعروفة باســم القرحــة القرنيــة Helcoma Yemenense ، وثمــة مرض يقاومونه بالأدويــة التى تعوق تطوره وبالمراهم المكونة من زيت وكبريت

وبحمامات الرمال على نحو خاص (٢٧) حيث يدفن المريض فى الرمال حتى رقبته ويبقى على هذه الحال صائما فى الشمس طوال النهار ، وفى المساء يسمحون له بتناول قليل من الطعام • وتستمر هذه الطريقة القاسية فى العلاج حوالى الشهر • وهذه الطريقة تلائم بعض الأجسام ، ولكن آخرين - خاصة من الأوربيين - جربوا حمامات الرمال فماتوا بالحمى • ويخلعون أسنانهم بكماشة (كلاب) البيطار ، ويستخدمون الدودة التى يفترضون فى الشرق أنها تسبب آلام الأسنان بتعريضها للحرارة والدخان (التبخير) (٢٨) واذا عانى البدن من البرد بعد عناء شديد دهنوه بالسمن وأكثروا وعرضوه لوهج النار •

لم يهزم محمد (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه الا أكثر البدو تحضرا، فلازال يوجد حتى هذه الأيام بين البدو من لا دين له ، أو من يتسم دينه بالرقة الشديدة ولا يستثنى من ذلك الا سكان السواحل أو القريبون من المدن ، وارتباط البدوى بالاسلام ضعيف ، فلا زال يحتفظ بتراث أجداده فيما يتعلق بالعادات والتقاليد والنظم والاحتياجات فلازالت الطبيعة هى طبيعة أجداده ، ولازال المناخ الذى يعيش فيه هو ذات المناخ الذى عاشوا فيه ، قبل أن يخرج أهل مكة رسول الله من بين ظهرانيهم (٢٩) فلا زال البدوى يحتفظ باسمه القديم ووسيلته فى المحاكمة بالتعذيب (لعق حديدة محماة لاثبات البراءة أو الادانة) وطريقته فى سلخ ذبيحته - دليل على الخسة - وعادة الأخذ بالثأر وأكله للميتة Carrion (أو الحيوان الذى لم يذبح بالطريقة الشرعية) وتقديمه زوجاته للغرباء • كل ذلك

---

(٢٧) نص بيرتون : The evil of which Fracastorius Saney.

ولعدم قدرتنا على استنتاج اسم المرض أو التحقيق منه ، فقد أشرنا اليه فى المتن بقولنا : « وثمة مرض » وأوردنا النص هنا من باب الأمانة العلمية •• لذا لزم التنويه - (المترجم) •

(٢٨) أورد بيرتون جملة عن عملية ميولز Mules لم نترجمها فى المتن وهو يربط فيها بين الشفاء من مرض اعتام عدسة العين ، وأسنان ميولز :
Mules' teeth, roasted & imperfectally pounded, femore cataract.
(المترجم) •

(٢٩) أورد بيرتون جملة فيها مبالغة سقيمة آثرنا حذفها من المتن وتفيد أن البدو يعملون على :
To survive the day when every vestige of the Ka'abah shall have di-appeared.

أزعم أنه من بقايا عقائد قديمة ولا أستبعد وجود بدو فى المناطق المتاخمة للصحراء الكبرى لا زالوا على وثنيتهم القديمة ٠

وبـدو الحجاز يعتبرون أنفسهم من أتبـاع المذهب الشافعى لكن ما ينطبق على اخوانهم فى الغرب ينطبق عليهم ، فهم يقولون انهم لا يصلون لأنهم يحتاجون لماء الوضـوء فى الشرب ولا يتصدقون لأنهم يسـتجدون الصدقات ولا يصومون شهر رمضان لأنهم يموتون جوعـا طوال العام ، ولا يحجون لأن العالم كله هو بيت الله ، وأخطاؤهـم فى الأمور الدينية وأمورهم التى تدعو للسـخرية تزود أهـل المدن بكثير من الحـكايات المضحكة ٠ ويجب أن نلاحظ أنهم لا يراعون المبادىء الدينية فيما يسلبونه وينهبونه فهم لا يقدمون نذورا ويتجنبون بعناية تقديم القرابين ٠

والمناسبات الاحتفالية فى حياة البدوى قليلة وبسيطة لا تتعدى مناسبات الختان والزواج والموت ٠ وبالنسبة للختان فانه يتخذ شكلين : الطهارة ـ وفقا لشعائر الاسلام والسلخ Salkh وفقا للطريقة الجاهلية (مستمرة منذ أيام ما قبـل الاسلام حتى اليوم) وأيام الحـكم السلفى (الوهابى) تم منع طريقة السلخ لكن الناس عادوا لها الآن ٠

وتتم الطهارة بين الخامسة والسادسة من العمر ، وعلى أية حال فان بعض الطبقات تؤخرها للعاشرة ٠ وفى مثل هذه المناسبات تقام الولائم وتســود البهجة ٠

والمرأة سلعة لدى البـدائيين كما هى لدى المتحضرين ، ولا يتزوج الشاب فى الحجاز حتى يكون أبوه قادرا على شراء عروس له ٠ وقلما توجد مناسبة من المناسبات آنفة الذكر لا يتم فيها اطلاق النار والرقص والغناء وتناول الضأن ٠ وعادة ما يكون مهر العرس حوالى ثلاثين دولارا اسبانيا وتأخذ بعض القبائل ماشية (كمهر) عوضا عن النقود ٠ واذا حنق الرجل على زوجته تخلى عنها مرة واحدة ويشيع الطلاق بين البدو ولا ينتج عن ذلك مشاكل ما دام المهر كان قد تم دفعه فى حينه ٠

وجنائز البدائيين تشبه جنائز المتمدينين وان كانت أكثر بساطـة فالميت يتم دفنـه حيث مات ٠ وتوارى الجثة الثرى بعد غسلها وتكفينها بما يتاح من قماش ، ويتم منع النساء والنائحات من الحضور ، فالرجال وحدهم يحملون الميت الى قبره ، حيث تحفر حفرة وفقـا لعادة المسلمين وتغطى الجثة بفروع الأشجار الجافة المتوفرة ويوضع فوق القبر حجر ، لمنع الثعالب وابن آوى ، من نبش القبر وليكون علامة دالة عليه ٠ وليس لدى البدو مقابر فخمة ينقلون اليها موتاهم من مناطق بعيدة كما هو الحال عند أهل السند والبلوش ٠

ولا يجد الرحالة صعوبة فى العيش بين بدو الحجاز فكما يقال عن الهنود The Crow indians (؟) « ثق بشرفهم تكن آمنا ، أما من حيث أمانتهم فانهم سيسرقون شعر رأسك » لكن على الرحالة أو المسافر أن يتخذ شعار أهل الصحراء (٣٠) ويجب أن يتحلى بأعصاب هادئة وأن يتحمل المتاعب والمشاق وأن يكون لديه معلومات عن العقاقير وأن يجيد الرماية والركوب وأن يتحدث العربية والتركية وأن يعرف عاداتهم وتقاليدهم ، من خلال القراءة وأن يتجنب انتقاد أحكامهم المسبقة بأن يتسبب فى أن يقال عنه « طجعه Tagga'a » ، واذا أنفق مبلغا يسيرا ضمن وجود رفيق Rafik له وهذا الرفيق أو الصديق سيكون مخلصا صدوقا بمجرد تناوله الطعام معك فلازالت عبارة « لقد أكلنا الملح معا » أو باللهجة المحلية « نحنا مالحين ـ بكسر النون الأولى فى نحن » ـ تمثل رابطة صداقة قوية· وعلى أية حال ، فهناك بعض القبائل التى تحتاج لتجديد رابطة المودة كل اثنتين وعشرين ساعة مستخدمين عبارة « لم يعد الملح فى معداتنا » ويجب الحذر عند اختيار صديق أو رفيق بحيث لا يكون له ثارات دموية كثيرة (غير مطلوب أو طالب للثأر) وليس ثمه مانع من حملك ساعة نحاسية أو بوصلة جيب ومصحفا فى جيب سرى مع قلم ومذكرة ، وعلى الرحالة أو المسافر أن يتجنب حمل الأسلحة الثمينة فهى تثير طمع البدوى أكثر مما يثيره الذهب · ومن ناحية أخرى فليس من داع لتكررا القول بأن الرحالة أو المسافر يجب أن يكون حريصا فلا يراه البدو وهو يكتب الا التعاويذ أو أن يرسم فى مكان عام وعليه ألا يوجه أسئلة بشكل مباشر ، وانما يستدرج محدثه للحصول على المعلومة · ومما يزعج بعض البدو أن تسألهم عن أسمائهم أو عشائرهم بالاضافة الى أن مثل هذه الأسئلة تكشف عن جهلك وفضولك ·

فالبدوى قد يعيش باسم مستعار كما أن بدوى قبيلة ما يتعرف على بدو القبائل الأخرى من خلال اللباس والمظهر والصوت واللهجة والنبرة · وتكفى عدة دولارات لتكاليف الطريق ان أردت أن تكون محترما فان بعض الهدايا كالأمواس والطرابيش لتقديمها للشيوخ ، وهو أمر لم أغفله ·

ويمكن وصف « حكومة العرب » بأنها حكومة مستقلة أو حكومة تتمتع بالحكم الذاتى ، فالقبائل لا تعصى شيوخها أبدا ، الا فى حالات فردية ولاعتبارات شخصية ، كما يحدث تماما فى الجيوش المتمدنة ، اذ

---

(٣٠) أورد بيرتون الشعار هكذا : Omnia mea mecum porto.

يحدث أن يكون هناك أفراد يتمتعون بالذكاء المتوقد والصفاقة فتكون أصواتهم أعلى من أصوات قادتهم • وفى مجتمع البدو (مجتمع الأسود) يعتبر السيف هو الذى يفرض القانون •

والعلاقات بين القبائل البدوية فى الحجاز على ثلاثة أنواع : فهم اما أصحاب أو كيمان Koman أو اخوان •

الأصحاب :

وهم المرتبطون بيمين التحالف للدفاع أو الهجوم وعلاقاتهم وثيقة لأن بعضهم يتزوج من بعضهم الآخر •

الكيمان (القيمان) :

أو الأعداء وهى القبائل التى بينها ثارات مما يؤدى الى حزازات وعداوات عميقة •

الاخوان (أو الأخوات) Akhuan or Akhawat .

واللفظ يشير الى الرباط بين الغريب والبدوى الذى يؤكد حقا له قديما وثابتا على الأرض التى رعى فيها أسلافه قطعانهم ، وأى تجاوز لجيرانه عليها يؤدى للحرب ، وقلما تجرى محاولات لتوسيع حدود هذه الأرض فحتى الصبى الصغير سيطالب يوما بحقه فى أرضه وسيساعده فى ذلك كل الأصحاب ويمكنك اذا دفعت لرجل أو طفل أو امرأة مبلغا صغيرا يختلف وفقا لمواردك المالية من بنسات قليلة الى دولارين ـ تكون قد شاركت القبيلة الخبز والملح (العيش والملح)ـ فيمكنك بذلك أن تكون أنت وحصانك « دخيل » Dakhil أى فى حماية القبيلة ، ويتحتم على كل فرد من أفرادها أن يساعدك كأخيه • واذا حاول مسافر أو تاجر أن يمر خلال الأرض دون دفع « الأخوة Al-Akhawah » أو الرفقة Al-Rifkah » فلابد أن يتعرض للسلب ، وان قاوم قتل • وليس فى دفع « الأخوة » أو « الرفقة » عار • فمخطىء من لا يراعى العادات • ونظام الرفيق ـ بمسمياته المختلفة ـ موجود فى هذا الجزء من العالم ، ففى سيناء يسمى « الخفير » Ghafir ويسمى ربيا (٣١) Rabia فى شرق شبه الجزيرة العربية وتسمى عبان (أو أبان) فى الصومال وتسمى موجاسا Mogasa عند الجالا • لقد

---

(٣١) لعله يقصد ربع (بفتح الراء وتسكين الباء) وتعنى فى الخليج جماعة الأصدقاء ـ (المترجم) •

أسميت الضريبة « ابتزازا black mail » لكنها أخذت اسما أفضل ، وأصبحت شكلا من أشكال رسوم العبور أو رسوم الدخول · وأهل البيت Ahl Bayt (البيت جمع بيوت ويقصد بها خيام البدو)(٣٢) ، يجبون الضريبة من أهل الحائط (الحيط) Ahl Hayt (أى أهل القرى والمدن) الذين صودر حقهم فى أن يكونوا بدوا · وتطلب هذه الضريبة من العرب المهجنين (غير الأصلاء)ومن القبائل الوضيعة ، فهؤلاء (المهجنون والقبائل الوضيعة) مضطرون لدفعها سواء قعدوا فى ديارهم أم خرجوا منها · ومن هنا فان دفعها فى هذه الحالة يلحق الخزى بدافعها ، والقبائل الأصيلة كبنى حرب لا يزوجون بناتهم « للاخوان » ·

وبالاضافة لضريبة « الأخوة » ورواتب شيوخ القبائل والعشائر التى يدفعها الباب العالى ، فان ثروة البدوى تتكون من قطعان أغنامه وماشيته وفرسه وأسلحته ، وبعض العشائر ثرية بما تمتلكه من خيول ، وأخرى مشهورة باقتنائها للجمال وعشائر أخرى ليست قليلة معروفه باقتنائها للأغنام والحمير وكلاب الصيد ·

وقبيلة الأحامدة Ahamidah – كما قيل – لا يملكون الا القليل من الحيوانات ، وانما يعيشون على السلب والنهب وما يتلقونه من الحجاج · والاحتياجات الرئيسية للمنطقة تتمثل فى الكبريت والرصاص والملابس بمختلف أنواعها والسكر والبهارات والبن والقمح والأرز · ويثمن الرجال السلاح ويعرفون قيمته ، ومما ينصح به أن يحمل الرحالة معه شيئا من جواهر بيرمنجهام لاسترضاء صنف النساء · وفى المقابل فان البدو يقدمون الأغنام والماشية والسمن والحليب والصوف والجلود التى يصنعون منها القرب (بكسر القاف وفتح الراء) لحفظ الماء ، كما يصنع المصريون وغيرهم من أهل الشرق الأوانى الفخارية (القلل والأزيار) للغرض نفسه · ولوفرة الدولارات فى المنطقة الآن فقلما تلزم الضرورة استخدام نظام المقايضة ·

وتتميز الملابس العربية ببساطتها التى تماثل بساطة البدوى وهى تميز شخصيته (وطنيته) كما تميز السراويل الطويلة الواسعة أهل سويسرا ، وملابس جديرة بأن يرسمها فنان · ومما يؤسف له أننا لم نعد نراها الا على البدو الجفاة ، وعدد قليل من الأشراف ، ويبدو

---

(٣٢) أورد بيرتون ما بين القوسين فى الحاشية ، لكننا آثرنا جعله فى المتن لأن المصطلح هنا لا يعنى أهل بيت الرسول وانما يعني سكان الصحراء – وقد فعلنا ذلك حتى لا يختلط المعني – (المترجم) ·

الحجازى ـ للعين الخبيرة ـ اذا لبس طربوشا وقفطانا ـ مثيرا للضحك ، تماما كالفتاة الباسكية (من الباســك فى أسبانيا Basque) والقطلونية (من كتالونيا أو قطالونيا فى أسبانيا) اذا ارتدت الملابس الكشميرية • ووضعت قطعة من قماش رقيق (٣٣) • واللباس الضرورى للرجل يتمثل فى ثوب Saub (وتنطق بالتاء : توب) وقميص أزرق من قماش الكاليكو Calico يصل من الرقبة الى الكاحل له أكمام محكمة أو واسعة ، ومفتوح من ناحية الصدر من الأمام ثم يضيق أسفل الصدر بحيث ان مرتديه ـ ان أراد الجرى ـ كان عليه أن يخلعه أو يشمره من أسفل ، وثالث عناصر اللباس الأساسية هو الحقو Hakw وهو حزام جلدى عريض يشدونه باحكام حول الوسط (الخصر) ليشد من أزر الظهر (ليـــدعم الظهر ويقويه) أما السروال والفتح Futah (منطقة الفتح هى منطقة الأعضاء التناسلية) فيبدو عند أهل المدن ـ مخنثا (كسراويل النساء) وفى الشتاء يلبس الشيوخ فوق قمصانهم عباءات • وهى تصنع فى نجد والمنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية ، وهى ـ أى العباءات ـ على أربعة ألوان : أبيض ، وأســود وأحمر ، وبنى مخطط ، وأفضلها ما كان من وبر الابل فقد يبلغ ثمنها خمسة عشر دولارا ، وأقلها قيمة من صوف الغنم وتســاوى ثلاثة دولارات فقط ، ويعتبر كلاهما رخيصا اذا قيسا بمدة بقائهما ، فالعباءة تظل تستخدم لعدة سنوات • أما المحرمة Mahramah (غطاء الرأس) فتأتى من سوريا كما تزود سوريا ونجد هذه المنطقة بالكوفيات ، أما العقال الذى يلف حول الكوفية ويثبتها فعلى أنواع كثيرة : فقبيلة بشر Bishr بالقرب من مكة (المكرمة) تصنع نوعا من العقل (جمع عقال) يشبه ما يضعه القديسون (المسيحيون) على رءوســـهم ويزودونها بقطع من الخشب توضع فيها قطع من عرق اللؤلؤ ، أما الصنادل (الأخفاف : جمع خف بضـم الخاء) فهى أيضـــا على أنواع كثيرة ، تتراوح بين ما هو مجرد قطعة من الجلد تربط بخيوط ، الى أحذية مكة الجميلة الراقية ، ويتراوح ثمنها من قرش لدولار ، أما الفقراء فيمشون حفاة • والمجدل Majdal حزام عريض يوضع على الكتف اليسرى ويصل الى مفصل الفخذ اليمنى ، ويضم فى صف الخراطيش النحاسية للبندقية (وتسمى ططارف Tatarif جمـــع ططريفـــة tatrifah) (٣٤) ، والمصـــدر Al-Masdar مصـــنوع من جلد مزخرف ومزين بحلقات نحاســـية معلقـــة على الجانب الأيسر ويضـــعون فيهـــا الخرزة Al-Kharizah

---

(٣٣) ربما على وجهها ـ (المترجم) •

(٣٤) ولعلها بالتاء ـ (المترجم) •

وهى بمثابة كيس للرصاص • وأخيرا الحزام Hizam ويثبتون فيه الخنجر والفائض من الخراطيش • ولايخرج البدوى للناس الا مسلحا•

والنساء يلبسن ـ كالرجال ـ أثوابا زرقاء داكنة ، لكنها أكبر وأكثر اتساعا ، فاذا خرجن غطين رءوسهن باليشمك Yashmak وهو من قماش أسود ، أو برقع Burka على نسق البرقع المصرى ، ولا يلبسن سراويل طويلة وقلما يولعون بالصنادل أو الأخفاف • ويجعلن شعورهن فى ضفائر (مجدول Majdul) دهنها بكثير من السمن • والثريات منهن يدهن أجسادهن بزيت الورد ، وزيت له أريج القرفة ، ويزين شعورهن بالشيح (٣٥) أجمل أعشاب الصحراء ، وحليهن هى الأساور والقلائد وحلقات للأذن والأنف ، وكلها من ذهب أو فضة أو فضة مطلية بالذهب • والفقيرات يضعن عقودا من عملات فضية حول الرقبة •

والبدوى الحقيقى معتدل غير مسرف قادر على أن يعيش شهورا ستة على عشر أونصات طعام فى الوجبة • وحليب النوق وقبضة من تمر أو رطب فى السمن تكفى حاجته للغذاء ، وهو يزدرى البدين والنهم الذى يأكل بانتظام وبكثرة ، وينام البدوى على الحصير ولا يعرف الرفاهية أو الراحة وهو يتجمد من البرد ربع السنة ، وتشويه الحرارة ثلاثة أرباعها ، ويمكنه ، كسائر البدائيين ـ تحمل الجوع ، فاذا ما أتيحت الفرصة التهم طعامه التهاما ، ولم أر أبدا الرجل الذى يمكنه الاحجام عن شرب الماء فى خط مسيرنا ، وهم فى هذا غير السلفيين (الوهابيين) الشداد فى الشرق وجبليى شمر الغلاظ ، وحتى المتمدينون من بدو الحجاز يفضلون طبق الجراد على الفسيخ Fasikh الذى يجعله أهل مصر كالأنشوقة والسردين والرنكه (الرنجة) • وهم يشعلون النار ليلا ، فيتساقط الجراد ميتا فينشدون أشعارا تبرر أكله ميتا :

أحلت لنا ميتتان ودمان

السمك والجراد والكبد والطحال •

(تعليق المترجم : هذه ليست أشعارا ولا هى مجرد تبرير وانما النصوص الدينية الاسلامية تقول ذلك) (٣٦) وعندما لايكون لديهم

---

(٣٥) كتبها بيرتون بالعربية Al-Shayh ـ وجعل لها مقابلا لاتينيا absinthium ، وبمراجعة معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية وجدناه أعطى لها مقابلا بالاحرف العربية (افسنتين) لكنه ذكر من الصفات ما ينطبق على الشيح وهو المقصود غالبا ـ (المترجم) •

(٣٦) اضافة من المترجم •

محاصيل ، فانهم يمتنون لسقوط الجراد ، وفى الحجاز لا تعتبر أسرابه مؤكدة فلم تر خلال الأعوام الخمسة الأخيرة الا قليلا • والبدو يعدون الجراد للأكل بغليه فى ماء مالح وتجفيفه فى الشمس أربعة أيام أو خمسة• والجراد الطازج بالنسبة للعربى كالقواقع بالنسبة للبريطانى ، وهم (أى العرب) يقطعون رأس الجراد ويسحبون أمعاءه وينزعون أجنحته وأرجله ، وبذلك يكون جاهزا للمائدة • ولا يأكلون الجراد مصحوبا بأى شيء حلو (حلويات) والا أصبح مقرفا باعثا للغثيان ، ويقدم طبق الجراد ساخنا مع الملح والفلفل والبصل المقلى فى السمن ، وعندما تتذوق طبق الجراد تجد طعمه قريبا من طعم الربيان (الجمبرى) غير الجيد •

والطعام الأثير أثناء الرحلة هو القديد أو شرائح اللحم المجففة فى الشمس • فاللحم المجفف بالاضافة للاقط (كرات من لبن حامض) • وقليل من البن تكفى لرحلة أو معركة • ولايعرف البدوى المشروبات المخمرة أو الكحولية ، رغم وجود عبارة سب شائعة هى « اخص يا خمار Ikhs yal-khammar » وبعض العشائر – وليس كل العشائر أو كل أفراد العشيرة الواحدة تدخن التمباك ، والتمباك الذى يدخنونه محلى – بشكل عام – ويسمى الحجازى أو الكاظمية Kazimiyah وهو عشب أخضر ذو رائحة نفاذة سيئة ، ويباع الرطل منه بقرش • ولا يستسيغ البدوى التمباك الفارسى ولا يستطيع الحصول على اللاتاكيا Latakia (نوع من التمباك) وربما كانت خرافة النوع الوطنى (الذى ينمو أو يزرع محليا) التى تثير تقزز رجال الصحراء الحساسين ، هى التى جعلت السلفيين (الوهابيين) يحرمونه ، فراحوا يحيون ضده أقوالا مهجورة لامعنى لها (٣٧) •

ان روح الاستقلال المطلق بين العرب ، وكذلك بين الجنس النبيل من الجيل السابق للهنود الحمر (هنود أمريكا الشمالية) جعلت بينهما • (العرب والهنود الحمر) تشابها جديرا بالملاحظة • لأن ايراد ذلك قد يكون تحذيرا للأنثروبولوجيين كى لايفسروا ، دائما – التشابه فى العادات والتقاليد بالرجوع للأصل العرقى • فكلاهما (العرب والهنود الحمر) لهما نفس روح الفروسية البدائية ، ونفس المعنى المتقد للشرف ، وكلاهما يتحلى بالكرم غير المحدود نفسه ، كما أن الأخذ بالثأر والفرار من قبيلة لقبيلة ، والحزازات الدموية – كلها شائعة بينهما ، وكلاهما

---

(٣٧) حرم السلفيون (الوهابيون) التتن أو شرب الدخان باعتباره (بدعة) وباعتباره مضرا ، وقد امتدح بوركهارت ذلك ، ولا غرابة أن يدافع بيرتون عن التمباك، فهو – أى بيرتون – مدخن كبير ومدمن للأفيون – (المترجم) •

حذر فى تصرفاته ، ووقور الى حد الرسمية (التصرف بشكل رسمى منضبط) ـ انهم أمراء سواء لبسوا الخرق البالية أم الملابس المزركشة والعرب (يقصد البدو) ينهبون الحجاج ، والهنود يكونون العصابات ، وكلاهما (العرب والهنود) من البارعين فى الغزو والاغارة ، وكلاهما من لصوص الماشية ، وكلاهما يسرق وفقا لقواعد معينة ٠ وكلاهما عصبى المزاج وكلاهما يتسم بالفصاحة والبلاغة ، وفكاهاتهم (العرب والهنود) فجة ، وهم بارعون فى الهجاء ولهم قصص تعج بالنزوات ولهم مجازاتهم الكثيرة ، محبون للفخر ولهم أمثالهم البليغة المعبرة وأغانيهم المرتجلة وكلاهما (العرب والهنود) له لغته التى تثير الدهشة بتعقيدها ، وكلاهما لايعترف بعمل سوى الحرب والاغارة والمطاردة ، وكلاهما يحتقر تخنث أهل المدن وتصنعهم ٠ وفرسان السهول المرتفعة فى الغرب (يقصد الهنود الحمر) كسكان السهول المرتفعة فى الشرق (يقصد العرب) كلاهما يحيى الضيف بجعل الفرسان يستقبلونه ، وباطلاق النار وبالالتفاف حوله صائحين صارخين ٠ والشجاع يضع يده الحمراء (الملطخة بالدماء) على فمه ليظهر أنه شرب من دم عدوه (٣٨) ٠ والعتيبى Utaybah ، وكذلك الحرامى Harami يتذوق دماء أعدائه المتخثرة بعد موتهم عقب انتهاء المعركة ٠

لكن البدوى ـ فى مجال المقارنة بين هذين الجنسين (الهنود والعرب) يمتاز بحسن معاملته للمرأة وتوقد ذكائه ، وتاريخه العظيم ٠

وقبائل الحجاز عديدة بدرجة مزعجة ، ويكفى أن نورد الفروع الرئيسية فى الشجرة البدوية دون التعرض لمئات العشائر والبطون ٠ والقبائل القديمة كعبس Abs وعدنان Adnan لم يعد لها وجود فى الغالب ، وان كانت عدنان لازالت توجد ـ كما يقال ـ بالقرب من الطائف كما أخبرونى أن عبس لاتزال توجد بالقصير Kusayr على الساحل الافريقى (يعنى فى مصر) وليس فى الحجاز ٠ وبالنسبة للأوس والخزرج ونذير فقد قدمنا عنها تفاصيل فى فصل سابق ٠

وبنو حرب هم ـ الآن ـ القبيلة الحاكمة (السائدة) فى الأراضى المقدسة ، ويقسمها النسابون الى قسمين كبيرين : بنو سالم ، والمسروح Masruh (٣٩) وتعنى القبيلة الجوالة أو الطوافة ٠

---

(٣٨) هذا واضح فى التعبيرات والأمثال الشعبية حتى الآن فالشخص يهدد الآخر « بالشرب من دمه » « ح أشرب من دمك » ٠٠ الخ ـ (المترجم) ٠

(٣٩) اشار لهم البتانونى بالاسم نفسه ـ (المترجم) ٠

أما « بنو سالم » فينقسمون الى ثمانية أقسام (بطون) فرعية :

١ ـ الأحامدة (واحدهم أحمدى) ومنهم شيخ الجبل (سعد) ويقال انهم ٣٥٠٠ رجل ، وأهم فروعهم الحضرى the Hadari .

٢ ـ الحوازم (٤٠) (واحدهم حازمى) وهى القبيلة المنافسة للأحامد ، وعددها ٣٠٠٠ رجل وأهم فروعها المزانية والزهايرة Muzaynia & Zahiri .

٣ ـ صبح Sobh (واحدهم صبحى Sobhi) (٤١) وعددهم ٣٥٠٠ ويسكنون قرب بدر .

٤ ـ السلايمة (واحدهم سليمى) ويسمون أيضا أولاد سالم .

٥ ـ السعدان (السعادين) وواحدهم سعدانى (٤٢) .

٦ ـ المحاميد (وواحدهم محاميدى) (٤٣) وعددهم ٨٠٠٠ .

٧ ـ الرحالة (٤٤) (دون تشديد الحاء) وواحدهم رحايلى وعددهم ١٠٠٠ .

٨ ـ التمام (بشديد التاء وكسرها) وواحدهم تميمى Tamimi .

أما شجرة بنى مسروح Masruh فتنقسم الى قسمين كبيرين هما : بنو عوف (واحدهم عوفى) وبنو عمرو (وواحدهم عمرى بفتح العين وتسكين الميم) Aufi & Amri وبنو عوف بطن كبيرة تمتد من وادى نقيع Nakia بالقرب من نجد الى رابغ والمدينة (المنورة) وليس لديهم الا قليل من الخيل وان كانت جمالهم كثيرة وكذلك أغنامهم ، وهم مرهوبو الجانب لطبيعتهم المقاتلة الفظة وينقسمون الى : .

١ ـ السحلية Sihliyah (واحدهم سحلى (Sihli (٤٥) وعددهم حوالى ٢٠٠٠ .

---

(٤٠) يذكر البتانونى أنهم يسمون ايضا (المراوحة) ـ (المترجم) .

(٤١) أظنه صبيحى ـ (المترجم) .

(٤٢) أظنه سعيدانى ـ (المترجم) .

(٤٣) أورد البتانونى اسم القبيلة هكذا : (الحامدة) المترجم .

(٤٤) أوردها البتانونى هكذا : (الرحلة) بتحريك الراء والحاء ـ (المترجم).

(٤٥) أظنه سحيلى ـ (المترجم) .

٢ ـ السـوايد Sawaid (واحـدهم سويدى Sa'idi)
وعددهم ١٠٠٠ ٠

٣ ـ الرخاصة Rukhasah (واحدهم رخيص Rakhis) ٠

٤ ـ القصانين Kassanin (واحدهم قصان Kassan) ويدعون أصولا ترجعهم الى قبيلة جصان Gussan القديمة ويوجدون فى أكثر من مكان فى وادى نقيع وأماكن أخـرى بالقرب من المدينة المنورة) ٠

٥ ـ الرباعة Ruba'ah (واحدهم ربيعى بضم الراء) ٠

٦ ـ الخضارة Khazarah (وواحدهم خضارى Khuzayri) (٤٦) ٠

٧ ـ اللهبة (وواحدهم لهبى) (٤٧) وعددهم ١٥٠٠ ٠

٨ ـ الفراده Faradah (؟) (واحدهم فرادى Faradi) .

٩ ـ بنو على (وواحدهم علوى) ٠

١٠ـ زبيد (وواحدهم زبيدى) بالقرب من مكة وهى كثيرة العدد من لصوص مقاتلين ٠

وتنقسم بنو عمرو الى عشرة فروع :

١ ـ المرابطة (واحدهم مرابطى) ٠

٢ ـ الحصار Hussar (واحدهم حضير Hasir) ٠

٣ ـ بنو جابر (واحدهم : جابرى) ٠

٤ ـ الربايكه (واحدهم : ربيكى Rubayki) وهم يسكنون بشكل أسـاسى حـول الفرع Fara فى مجمـوعة من التجمعـات السكنية على بعد أربع مراحل الى جنوب المدينة (المنورة) ويبلغ عددهم حوالى ١٠٫٠٠٠ رجل وهم رعاة أغنام وابل ، وليس لديهم الا قليل من الخيل ٠

---

(٤٦) وليس خضيرى كما كتبها بيرتون اذ أن الخضيرى فى تعبيرات الجزيرة العربية تعنى من لا قبيلة له ، أو الذى تبنته احدى القبائل ـ (المترجم) ٠

(٤٧) وليس اللهابة كما توحى كتابة بيرتون ، وقد كتبها البتانونى فى (الرحلة الحجازية) كما أوردناها ـ (المترجم) ٠

٥ ـ Hisnan (واحدهم Hasuni) .

٦ ـ البيزان Bizan (واحدهم بيزانى) .

٧ ـ البدارين Badarin (واحدهم بدرانى) .

٨ ـ البلاديه Biladiyah (واحدهم بلادى) .

٩ ـ الجهم Jaham (الواحد كالجماعة) .

١٠ـ الشطارة (٤٨) Shatarah (واحدهم شطايرى) .

وقد أخبرونى أن قبيلة عنزة الكبيرة تقطن الآن خيبر ويجب ألا يزور أفرادها المدينة (المنورة) دون رفيق أو حام ، ويشيع القول انه لا يوجد فى الحجاز طائفة من المنبوذين ـ كما هو الحال فى اليمن والصومال ، ولكن الهتمان Hitman (جمع هيتم Hutaym أو هتايمى Hitaymi) الذين يقطنون ساحل البحر بالقرب من ينبع ـ يفرض عليهم البدو الآخرون اتاوات باعتبارهم من أصول منحطة ، ويحتقر بنو حرب بائعات الجبن ، بل وينظرون للجبن نظرة زرية ، ويلاقى الخلاوية Khalawiyah (واحدهم خلاوى) الاحتقار لأنهم ـ بشكل عام ـ حدادون ، ولديهم سلالات جيدة من كلاب الصيد ، ويقدمون الحمير كمهر للعروس مما يجعلهم موضع سخرية واستهزاء . وقد تفضل على السيد س . كول نائب القنصل البريطانى فى جده فجمع لى ملاحظات عن مختلف القبائل فى وسط الحجاز وجنوبه وقد قسمت مصادره قبيلة جهينة التى تعيش حول ميناء ينبع وبلدة ينبع النخل الى خمسة فروع (بطون) :

١ ـ بنو ابراهيمة (٤٩) Ibrahimah (٥٠٠٠) .

٢ ـ العشران Ishran (٥٠) (٧٠٠) .

٣ ـ بنو مالك (٦٠٠٠) .

---

(٤٨) اضاف السيد كول لهذه القائمة ما يلى : ١ ـ اهالى القرى (٥٠٠٠) . ٢ ـ الردادة Radadah (٨٠٠) . ٣ ـ الهجية Hijiah (٦٠٠) الدبية Dubayah (١٥٠٠) ٥ ـ بنو كلب (٢٠٠٠) ٦ ـ الريدانة . (٨٠٠) ٧ ـ بنو يحيى (٨٠٠) ، وجعل عدد بنى حرب حول الجديدة ٣٥ر٠٠٠ رجل .

(٤٩) اوردها البتانونى البراهمة وجعلهم فرعا من بنى موسى الذين هم بدورهم من جهينة ـ (المترجم) .

(٥٠) لا اعرف شخصيا هذا الاسم ولم اقرأه وقد يقصد العيايشة ـ (المترجم) .

٤ ـ عروه Arwah (٥٠٠٠) .

٥ ـ كـــونه Kaunah (٣٠٠٠) .

وهؤلاء يشكلون ١٩٫٧٠٠ رجل قادرين على حمل الســلاح (٥١) . وقد قام السيد كول أيضا الذى كان يعمل فى شرق الجزيرة العربية لمسح المناطق الساحلية بتقديم أسماء القبائل التالية التى تكن ولاء لشريف مكة:

١ ـ ثقيف اليمن (٢٠٠٠) .

٢ ـ ثقيف الشام (١٠٠٠) .

٣ ـ بنو مالك (٦٠٠٠) .

٤ ـ الناصره Nasirah (٣٠٠٠) .

٥ ـ بنو ســعد (٤٠٠٠) .

٦ ـ الحضــيه (Huzayh) .

٧ ـ البجــوم Begoum .

٨ ـ العضوضة Adudah (٥٠٠) .

٩ ـ بشـــار (١٠٠٠) .

١٠ـ ســعيد Sa'id (١٥٠٠) .

١١ـ زبيــد (٤٠٠) .

١٢ـ عيضــة Aydah (١٠٠٠) .

وفيما يلى قائمة بقبائل جنوب الحجاز تفضـــل على بها هاملتون Abbé Hamilton بعد عودته من زيارة لشريف الطائف :

١ ـ غامد البداوى (٣٠٫٠٠٠) .

٢ ـ غامد الحضر (٤٠٫٠٠٠) .

---

(٥١) أورده البتانونى بالميم (كومة) ـ وهو الاصح ـ (المترجم) .

٣ زهـــران (٣٨ر٠٠٠) ٠

٤ ـ بنـــو مالك (٣٠ر٠٠٠) ٠

٥ ـ ناصره Nasirah (١٥ر٠٠٠) (٥٢) ٠

٦ ـ عســير (٤٠ر٠٠٠) ٠

٧ ـ تمـــوم Tamum

٨ ـ بلقرن (٥٣) Bilkarn (٨٠ر٠٠٠) ٠

٩ ـ بنـو الأحمر (٥٤) (١٠ر٠٠٠) ٠

١٠ـ عتيبة (شمال مكة) ٠

١١ـ الشيابين (٥٥) Shu'abin .

١٢ـ الدرايسه Daraysh (٢٠٠٠) ٠

١٣ـ بنو ســفيان (١٥ر٠٠٠) ٠

١٤ـ Al-Hullad (٣٠٠٠) ٠

وقد ضم هذا الرحالة النساء الى الاحصاء المذكور أعلاه وربمـا الأطفال ، ومن المتوقع وجود بعض المبالغات فى هذه الأرقام ٠

والعشائر الأساسية التى تمارس عادة السلخ الوثنية فى الحجاز هى الحضـــايل Huzayl وبنو سـفيان ، بالاضـــافة للأسر التالية فى تهـــامة :

١ ـ الجهـــادلة Juhadilah ٠

٢ ـ الكباكه (؟) Kabakah ٠

---

(٥٢) اوردها قبل ذلك فى الصفحة السابقة وجعل عددها (٣٠٠٠) وقد تكون قبيلة أخرى ـ (المترجم) ٠

(٥٣) بتسكين اللام وفتح الميم ، عن البتانونى ـ (المترجم) ٠

(٥٤) واحده أحمرى

(٥٥) فرع من عتيبة وهو المقصود غالبا ـ (المترجم) ٠

٣ ـ بنــو فهــم ٠

٤ ـ السرامو (؟) Saramu .

٥ ـ بنــو محمــود ٠

٦ ـ المجاريش Majarish ٠

٧ ـ بنــو يزيد ٠

والآن أودع هذا الموضوع الذى لابد أن يكون غير مشوق للقارئ الانجليزى ٠

هذه صفحة مفعمة بالحياة لأحوال مصر الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بل والسياسية فى منتصف القرن التاسع عشر، يزيد من قيمتها أن كاتبها ليس بشخص عادى، وإنما رحالة عالم طبقت شهرته الآفاق هو الأيرلندى ريتشارد بيرتون الذى زار مصر فى غضون سنة ١٨٥٣، أى فى أواخر عهد عباس باشا الأول (١٨٤٨ـ ١٨٥٤) وكانت مصر يومئذ تمر بمرحلة انتقال خطيرة كان لها أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية..

وفى الجزء الثانى من رحلته يزور المدينة المنورة والمسجد النبوى ويعرض للحياة فيها ولسكانها فى ذلك الحين، ويصف بدو الحجاز وأساليب حياتهم قبل أن يتوجه إلى مكة المكرمة التى سيتحدث عن زيارتها فى الجزء التالى (الثالث) ...

٣٢٥ قرشـــا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب